

في العقيدة والشريعة



القول الفصل النفيس

في الرد على المفترى داود بن جرجيس

تأليف

العالم الرباني والمجدد الثاني الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الإمام شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان رحمهم الله
١١٩٣ - ١٢٨٥

نشر وتوزيع
دار الهداية للطبع والنشر والترجمة
الرياض . ص . ب : ٧٧٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده وبعد ...

فهذا هو الرقم الثاني من سلسلة

(التراث الإصلاحي في العقيدة والشريعة)

وهو مجموعة هذه الكتب :

١- القول الفصل النفيس .

٢- المورد العذب الزلال .

٣- ملخص منهاج السنة .

من تأليف العالم الرباني والمجدد الثاني

الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

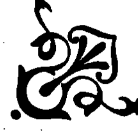
رحمه الله

تم طبعه باشراف ومراجعة فضيلة الشيخ إسماعيل بن سعد بن عتيق

نشر وتوزيع مكتبة دار الهداية للطبع والنشر

وصلى الله على محمد

٧ شوال ١٤٠٥هـ



(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمدلله علىٰ آلائه والصلاة والسلام علىٰ أصفيائه من أنبياءه... وبعـد؛

فلعل القارئ الكريم يتطلع إلى مزيد من المعلومات عن أولئك الذين شرقوا بالدعوة وأشربوا بحب الفتنة ممن قاوموا الدعوة السلفية وحاولوا جهدهم إثارة الشبه وصد الناس عن سواء السبيل...

لذا أذكر في تقديم هذا الكتاب بعض الأمثلة لمن هم علىٰ أشدهم في العدا ونالوا من الدعوة بأقلامهم المشبوهة وزجوا بترهاتهم المشؤومة وعليهم من الله ما يستحقون.

أولاً :

أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية في وقته بمكة المكرمة والمتوفىٰ سنة ١٣٠٤ هجرية من ألد خصوم الدعوة وقد تجاوز في الافتراء والتقول على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتزوير الحقائق ففي كتابه الدرر السنية صفحة ٤٦ يقول [والظاهر من حال محمد بن عبد الوهاب أنه يدعي النبوة إلا أنه ما قدر على إظهار التصريح بذلك،،

ثانيـــاً :

داوود بن سليمان بن جرجيس العراقي وقد استوطن نجداً وأقام في ناحية القصيم وكانت مهمته إثارة الشبه ضد الدعوة حتىٰ ظهر له تلامذه يأخذون عنه ومنهم عثمان بن منصور النجدي التميمي ومن أشهر كتبه المنحة الوهبية في الرد علىٰ الوهابية.

ثالثـــاً :

يوسف بن إسماعيل النبهاني القاضي الشرعي في بيروت له شطحات لا تغتفر فمن كتبه شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق وكتاب الأنوار المحمدية في المواهب اللدنية.

رابعـــاً :

سليمان بن عبد الوهاب وقد ألف كتابه المسمى الصواعق الإلٰهية في الرد على الوهابية. وهذا كان في مطلع الدعوة ثم فتح الله عليه ورجع عما كان عليه.

خامســاً :

ومن المعاصرين ممن يعمل علىٰ إثارة الشبه ونشر كتب المناوئين للدعوة السلفية المدعو حسين حلمي إيشق فقد قام بنشر كتب عدة وبتوزيعها بالمجان وشبه المجان بواسطة مؤسسته في استنابول بتركيا ومن أشهر ما نشر:

١ ــ الدرر السنية في الرد على الوهابية للسيد أحمد زيني دحلان.
٢ ــ التوسل وجهلة الوهابية للشيخ حامد المرزوق.
٣ ــ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة لأحمد ابن حجر الهيثمي.
٤ ــ البصائر لمنكري التوسل بأهل المقابر للمؤلف أحمد الله الداجوي.
٥ ــ حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين ليوسف بن اسماعيل النبهاني.
٦ ــ المنتخبات في المكتوبات لأحمد القادري السرهندي.
٧ ــ علماء الاسلام والوهابية مجموعة أربعة كتب لأربعة من المؤلفين.
٨ ــ فتنة الوهابية للسيد أحمد زيني دحلان.
٩ ــ المنحة الوهبية في الرد على الوهابية لداوود بن سليمان البغدادي.
١٠ ــ الحقائق الاسلامية في الرد على المزاعم الوهابية للحاج مالك بن الشيخ داوود.

هذه نماذج وأمثلة لمن حملوا حربة العدا قديماً وحديثاً للدعوة السلفية لذا فإن نشر كتب أئمة الدعوة الأعلام في الرد على مثل هؤلاء الطغام باب من أبواب الجهاد ودعوة إلى تصحيح المفاهيم وأخذ الحق من ينبوعه وللمرة الأولى طبع كتاب القول الفصل النفيس في الرد على المفتري داوود بن جرجيس بمطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر عام ١٣٦٥ هـ وهذه هي الطبعة الثانية أقدمها للقراء في سلسلة التراث الإصلاحي في العقيدة والشريعة.

أسأل الله أن ينصر دينه ويعلي كلمته وأن يأخذ بنواصي الجميع إلى ما فيه سعادة الدارين والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد.

في ٧ / ١٠ / ١٤٠٥ هـ

تقـــــديم
إسماعيل بن سعد بن عتيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف رحمه الله[1]

هو العلامة المشهور، صاحب التاريخ الحافل بالجهاد والكفاح، والمشرق بالدعوة والإصلاح، الذي كرس جهده، وأوقف حياته في بث العلم ونشره وجرد قلمه في الذب عن دعوة الإسلام، وعقيدة التوحيد، الإمام الأوحد الرباني والمجدد الثاني الشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب.

ولد هذا العالم الكبير سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف من الهجرة في بلدة الدرعية، موطن الدعوة ومهد علمائها، وعاصمة ولاتها في ذلك الحين، فنشأ بها وقرأ القرآن حتى حفظه وهو في التاسعة من عمره، ثم لازم دروس العلم وحلق الذكر فقرأ على جده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب كتاب التوحيد من أوله إلى أبواب السحر، وجملة من كتاب آداب المشي إلى الصلاة، وحضر عليه قراءات كثيرة في كتب التفسير والحديث والأحكام.

ثم توفي جده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وهو لا يزال في الثالثة عشرة من عمره، فلازم علماء الدرعية وجهابذتها الأعلام، فقرأ على الشيخ حمد بن ناصر بن معمر كتاب المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، وقرأ على الشيخ عبدالله بن فاضل من علماء الدرعية، وقرأ على عمه علامة نجد في زمنه وخليفة والده بعد وفاة الشيخ عبدالله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وقرأ في الفرائض على عبد الرحمن بن خميس من علماء

(١) من كتاب مشاهير علماء نجد للمؤلف الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف ابن عبدالله آل الشيخ.

الدرعية، وقرأ في النحو على العلامة الشيخ حسين بن غنام صاحب التاريخ المشهور.

وبعد هذه القراءات جلس لطلاب العلم يدرسهم علم التوحيد والفقه، ثم ولي قضاء الدرعية زمن الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود وزمن ابنه الإمام عبدالله بن سعود، وكان في الدرعية ذلك الحين قضاة كثيرون مرجعهم علامة نجد في زمنه الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، واستمر الشيخ عبد الرحمن في وظيفتي القضاء والتدريس حتى خرج طوسون بن محمد علي باشا لقتال أهل هذه الدعوة السلفية.

فعند ذلك جند الشيخ عبد الرحمن نفسه للدفاع عن الدين والأوطان، فصحب الإمام عبدالله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود في مسيرة لقتال طوسون فحضر معه وقعة وادي الصفراء الوقعة المشهورة بالقرب من المدينة التي حصلت بين طوسون وبين الإمام عبدالله وهزم فيها طوسون هزيمة منكرة.

وبعد هذه الوقعة استمر الشيخ في الدفاع وحضور الوقائع والحروب التي حصلت بين هذه الدعوة السلفية والدولة العثمانية حتى قدر الله سقوط الدرعية واستيلاء إبراهيم بن محمد علي باشا عليها، وعلى جميع الجزيرة العربية فنقله ابراهيم باشا إلى مصر، ومعه حرمه وعائلته وابنه الشيخ عبد اللطيف وذلك في سنة ١٢٣٣ هـ. وبقي ثمان سنوات بمصر، قرأ فيها على عدة علماء منهم الشيخ حسن القويسني ذكر : أنه حضر عليه شرح جمع الجوامع للمحلي، ومختصر السعد في المعاني والبيان، وأجازه بجميع مروياته، ولقي بمصر مفتي الجزائر محمد بن محمود الجزائري الحنفي فقرأ عليه في الأحكام الكبرى للحافظ عبد الحق الاشبيلي، وأجازه بجميع مروياته عن شيخه

الشيخ محمود الجزائري، والشيخ علي بن الأمير، ووجد بمصر الشيخ ابراهيم العبيدي المقري، شيخ مصر في زمنه في القراءات، فقرأ عليه القرآن ولقي الشيخ أحمد بن سلمونة فقرأ عليه الشاطبية وشرح الجزرية، وقرأ على الشيخ يوسف الصاوي شرح الخلاصة لابن عقيل وقرأ على الشيخ ابراهيم الباجوري شرح الخلاصة للأشموني.

وحضر على محمد الدمنهوري في الاستعارات والكافي في علمي العروض والقوافي وذلك بالجامع الأزهر الشريف عمره الله بالعلم والإيمان وجعله مقر للعمل بالسنة والقرآن.

ولم يزل المترجم له الشيخ عبد الرحمن بن حسن مقيماً بمصر ينهل من العلوم ويتزود من الفنون إلى أن رد الله الكرة لأهل نجد على يد الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، فاستعاد نجداً وطهرها من جميع الأتراك والغزاة وارجعها إلى الحكم السعودي مرة ثانية بعدما خرجت عنه وذلك سنة ١٢٤٠ هـ فعند ذلك كتب للشيخ عبد الرحمن يستحثه في القدوم عليه من مصر فحقق الشيخ رغبته وقدم عليه بعد ولايته بسنة عام ١٢٤١ هـ ففرح بمقدمه الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود وأكرمه غاية الإكرام.

فقام الشيخ عبد الرحمن بمؤازرة الإمام تركي خير قيام، فاستعان به الإمام تركي على تأسيس دولة إسلامية ونشر دعوة سلفية، أصلح الله بها ما أفسدته تلك العساكر التركية، فأعادت إلى أهل نجد ما فقدوه من الروح الدينية والقوة المعنوية فاستقر الأمن وساد النظام والعدل.

فأخذ الشيخ عبد الرحمن ينشر العلم ويناصح أهل نجد بالرسائل ويأمرهم بالمعروف ويحثهم على لزوم جماعة المسلمين والسمع والطاعة لولي

أمرهم، ولهذا قال: فلبي في تاريخه المسمى (تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد) ص ١٨٧ بالحرف الواحد ما نصه: (ثم وصل من مصر شخص آخر بارز هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد محمد بن عبد الوهاب، فاحتل منصب قاضي الرياض ذلك المنصب الذي قدر للشيخ أن يشغله سنوات عديدة يشاركه ابنه وتلميذه الشيخ عبد اللطيف وقد لعب الوالد وابنه دوراً مهماً في جعل الدين عاملاً له أثره في حياة العرب) انتهى كلام فلبي وقد انتهت إلى الشيخ عبد الرحمن رئاسة العلم في زمنه بنجد فأصبح مرجع علمائها وشيخهم حيث جلس لطلاب العلم في نجد فتخرج به خلائق لا يحصون منهم ابنه الشيخ عبد اللطيف قرأ عليه في مصر وقرأ عليه بنجد والشيخ عبد الملك ابن لشيخ حسين ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأخوه الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حسين والشيخ حسين بن حمد ابن الشيخ حسين ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشيخ عبد العزيز ابن عثمان بن عبد الجبار بن شبانة والشيخ عبد الرحمن الثميري والشيخ عبدالله بن جبر والشيخ العلامة حمد بن عتيق والشيخ عبد العزيز بن يحيي الفضلي الملهمي والشيخ محمد بن إبراهيم بن عجلان والشيخ عبد الرحمن بن عدوان والشيخ محمد بن ابراهيم بن سيف والشيخ عبدالله بن علي بن مرخان والشيخ علي بن عبدالله بن عيسى والشيخ أحمد بن ابراهيم بن عيسى والشيخ عبد الرحمن بن مانع والشيخ محمد بن عبدالله بن سليم والشيخ حسن بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشيخ عبدالله بن نصير والشيخ ناصر ابن عيد، وأخذ عنه غير هؤلاء خلق كثير يطول عدهم فهو شيخ مشايخ أهل نجد في زمانه بلا نزاع قام ببث العلم ونشر الدعوة وتصدي للرد على زعماء

الضلال ورؤساء البدع المعارضين لدعوة الإخلاص والتوحيد التي قام بها جده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

فرد ـ رحمة الله ـ على داود بن سليمان بن جرجيس العراقي(١) بكتاب سماه القول الفصل النفيس في الرد على داود بن جرجيس، ورد على عثمان بن عبد العزيز بن منصور الناصري برد سماه المقامات، وقد استطرد فيه فأتى على جميع الحروب التي وقعت بين أهل هذه الدعوة السلفية والدولة العثمانية المصرية، فهو بحق رد وتاريخ، ورد ـ رحمه الله ـ على صاحب السحب الوابلة برد سماه المحجة، ورد على عبد الحميد الكشميري بكتاب سماه بيان كلمة التوحيد والرد على الكشميري عبد الحميد وشرح كتاب التوحيد لجده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بكتاب سماه فتح المجيد وعلق على كتاب التوحيد لجده المذكور حاشية مفيدة سماها ابنه العلامة الشيخ عبد اللطيف قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين وقد طبع هذان الكتابان وعم نفعهما. وله الرد والردع رد على داود بن جرجيس وله ـ رحمه الله ـ رسائل كثيرة وأجوبة عديدة طبعت ضمن رسائل أئمة الدعوة. وله رسالة في تحريم صيام يوم الشك طبعت بمطبعة المكتب الإسلامي في دمشق وكان رحمه الله متنبهاً فطناً لدسائس أهل البدع كتب له مرة الشيخ عثمان بن بشر صاحب تاريخ عنوان المجد وقال في آخر دعائه أنه على ما يشاء قدير فكتب إليه وقال في أثناء جوابه إن هذه الكلمة اشتهرت

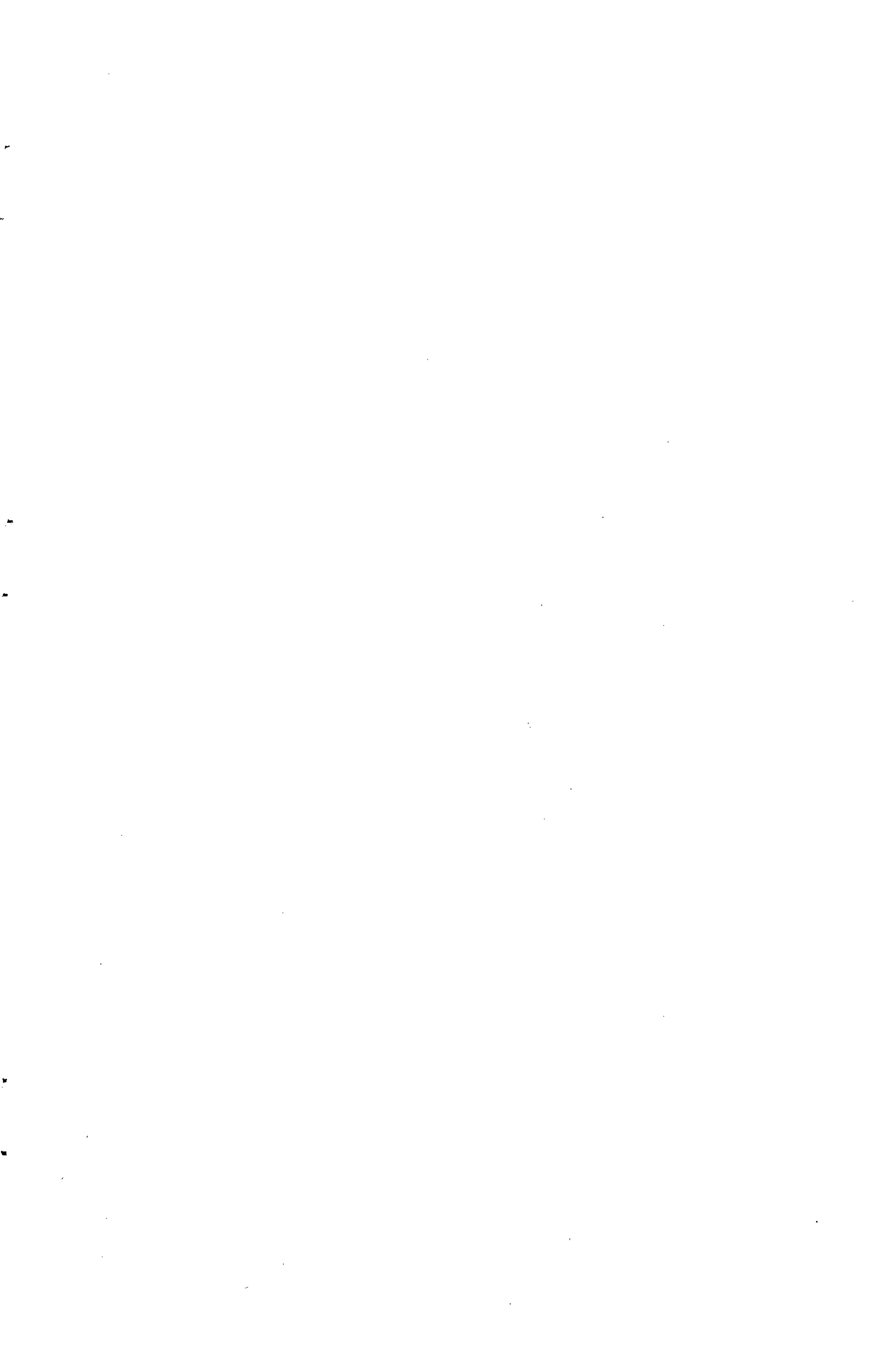
---

(١) داود البغدادي (١٢٣١ - ١٢٩٩هـ) (١٨١٦ - ١٨٨٢م) داود ابن سليمان البغدادي النقشبندي الخالدي الحنفي عالم أديب ولد ببغداد ورحل إلى مكة والشام والموصل وتوفي آخر يوم من رمضان من مؤلفاته: المنحة الوهبية في الرد على الوهابية، الفوائد الجلية في نظم الرسالة الوضعية، صالح الإخوان من أهل الإيمان، وبيان الدين القيم في تبرئة ابن تيمية وابن القيم، تشطير البردة، وروحة التوحيد في علم انكلام. (معجم المؤلفين جـ٤ ص١٣٦ - ١٣٧).

على الألسن من غير قصد وهي مثل قول الكثير إذا سأل الله تعالى قال وهو القادر على ما يشاء وهذه الكلمة يقصد بها أهل البدع شراً وكل ما في القرآن وهو على كل شيء قدير وليس في القرآن والسنة ما يخالف ذلك أصلاً لأن القدرة شاملة كاملة وهي والعلم صفتان شاملتان تتعلقان بالموجودات والمعدومات وإنما قصد أهل البدع بقولهم وهو القادر على ما يشاء أن القدرة لا تتعلق إلا بما تتعلق به المشيئة انتهى .

وكتب إليه المذكور مرة أخرى يهنئه بقدوم ابنه عبد اللطيف من مصر سنة ١٢٦٤ هـ وتوسل إلى الله في دعائه بصفاته الكاملة التي لا يعلمها إلا هو فكتب إليه وقال: (وقد ذكرت وفقك الله في وسيلة دعوتك جزاك الله عني أحسن الجزاء عن تلك الدعوات قلت وأتوسل إليك بصفاتك الكاملة التي لا يعلمها إلا أنت فأعلم أيها الأريب الأديب أن التي لا يعلمها إلا هو كيفية الصفة وأما الصفة فيعلمها أهل العلم بالله كما قال الإمام مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول ففرق هذا الإمام بين ما يعلم من معنى الصفة على ما يليق بالله فيقال استواء لا يشبه استواء المخلوق ومعناه ثابت لله كما وصف به نفسه. وأما الكيف فلا يعلمه إلا الله، ولم يزل ـ رحمه الله ـ يفتي ويدرس ويكاتب أهل بلدان نجد بالمراسلات والنصائح يحثهم على لزوم جماعة المسلمين ويذكرهم نعمة الإسلام والدين زمن الإمام تركي بن عبدالله ثم زمن ابنه الإمام فيصل حتى توفاه الله عشية يوم السبت حادي عشر ذي القعدة سنة خمس وثمانين ومائتين وألف في بلدة الرياض فصلى عليه بجامع الرياض ودفن في مقبرة العود وذلك في ولاية الإمام عبدالله ابن فيصل وكان ـ رحمه الله تعالى ـ سخياً جواداً يتفقد طلاب العلم ويواسيهم ويعطف على الفقراء والمعوزين .

ترجم له عثمان بن بشر في تاريخه عنوان المجد ترجمة طويلة اثنى عليه فيها بما هو أهله من الفضل والعلم وكذلك ترجم له المؤرخ الشهير ابراهيم بن صالح بن عيسى ترجمة طويلة في تاريخه عقد الدرر، وقد أنجب ـ رحمه الله تعالى ـ أولاداً خمسة هم: « محمد والشيخ العلامة الشهير عبد اللطيف وإسحاق وعبدالله واسماعيل وكل من هؤلاء الأولاد المذكورين خلف ذرية كثيرة إلا محمداً واسماعيل، فليس لهما عقب ولا ذرية رحم الله الشيخ عبد الرحمن» ابن حسن وبارك في أحفاده وعقبه ورحم الله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ورضي عنه وأرضاه وجعل جنة الخلد نزله ومأواه وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله معز التوحيد بنصره، ومذل الشرك بقهره؛ ومصرّف الأحوال بأمره. الذي أظهر دينه على الدين كله. أحمده على إعزازه لأوليائه، وخفضه لأعدائه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من طهر بالإخلاص قلبه، وأرضى بالمعادات فيه والموالاة ربه. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ رافع الشك، وخافض الشرك، وقامع الكذب والافك اللهم صلى على محمد النبي الكريم والرسول الصادق الأمين. وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

وبعد، فإنه قد بلغني أنه قد ورد على بعض الأخوان مكاتبة من داود بن جرجيس مملوءة بالكذب والتلبيس. ولا ريب أنه مما أوحاه إليه الشيطان وزخرفة إبليس. فاعجب لاتفاق الاسمين وزنا؛ وموافقته له في كل حركة وسكون. فالأول منهما مكسور. والثاني ساكن. والثالث مكسور. والرابع ساكن. والخامس متحرك بالضمة. وفي هذا بعضُ حروف هذا. وهي الياء والسين، كالاشتقاق الأكبر. فحصل بين الاسمين من الاشتقاق ما لا يخفى. فأعجب لذلك يا من نظر فيه. وأما المشابهة في المعنى فقد سود القرطاس بضروب من الوسواس. إذا تأمله الموحد الأريب. سليم الطوية صحيح الروية، وجد أقواله كلها تدور على جحود التوحيد، ومصادمة محكمات القرآن المجيد كذباً وتأويلاً، وتحريفاً وتبديلاً. كما قال تعالى ﴿٦: ١١٢، ١١٣ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون.

ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه؛ وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ فمن الواجب على من عرف الحق بدليله أن يسعى فيما يبطل دعواه، ويهدم ما أسسه من الزيغ وبناه، ويبين ما فيه من المكابرة وما أتى به من المماحلة تعمداً ومجاهرة ﴿٦: ٥٧ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾.

(فأما قوله: إنه على معتقد الإمام أحمد وشيخ الإسلام وابن القيم رحمهم الله).

فهذا أول ما أبداه من الكذب والتمويه. فأيم الله لقد خالف هؤلاء الأئمة ومن قبلهم ومن بعدهم من أمثالهم فيما اعتقدوه من الإخلاص والتوحيد، الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه. فلقد صرح هؤلاء الأئمة وغيرهم بالإنكار والبراءة ممن يدعو مع الله غيره. أو يستغيث به، أو يتوسل به في الرغبات والرهبات من الغائبين والأموات. في كل كتاب كتبه هؤلاء وألفوه، وفي كل ماردوا به على كل صاحب بدعة وصنفوه. كما سأذكر بعضه إن شاء الله تعالى في هذا الجواب.

فأما الإمام أحمد رحمه الله[1] فهو إمام أهل السنة ومن أجل حفاظ

---

(١) ولد الإمام أحمد ببغداد وقيل بمرو، ثم حملته أمه إلى بغداد في شهر ربيع الأول سنة ١٦٤ وضرب في المحنة بالقول بخلق القرآن وحبس في رمضان سنة ٢٢٠ ومات في أحد الربيعين في سنة ٢٤١ ودفن بمقبرة حرب ببغداد؛ وقد أكثر المؤرخون في ترجمته ومناقبه. وأفرد له ابن الجوزي وغيره تآليف ضخمة في ترجمته. وهو أشهر من أن يعرف. قال المزني صاحب الإمام الشافعي «أبو بكر الصديق يوم الردة، وعمر يوم السقيفة؛ وعثمان يوم الدار، وأحمد بن حنبل يوم المحنة» وقال الإمام الشافعي «خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أعلم ولا أزهد من أحمد بن حنبل».

وقال أبو زرعة «كان يحفظ ألف ألف حديث» كان رضي الله عنه أعرف الناس بالسنة وأحرصهم على اتباعها والوقوف حيث وقف رسول الله ﷺ وأصحابه. ومع ذلك فقد خالف السنة كثير ممن ادعى الانتساب إليه. في الفقه والعقائد. فقد اتخذ قبره عيداً ووثناً وخاض كثير منهم في الكلام الذي كان أبغض شيء إلى أحمد. وله أسوة برسول الله ﷺ.

الأمة، وفقهاء الأئمة. فله المسند الذي جمع فيه من الأحاديث في أصول الدين والأحكام ما لم يجتمع في غيره. ونقل المفسرون وغيرهم عنه من أدلة التوحيد ما يكفي ويشفي طالب الحق فلو ذهبنا نسوق الأحاديث التي رواها بالإسناد في هذا المعنى، كحديث ابن مسعود «من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار» وكحديث جابر «من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»، ونحو هذه الأحاديث التي يستدل بها أهل التوحيد في محل النزاع، لطال الجواب.

وله التصانيف الشهيرة في بيان السنة، وما عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبيان ما خالفوا فيه أهل الأهواء والبدع. فمن استقرأ ما في مصنفاته رحمه الله عرف منها ما هو الحق، وأنه عدو لمن ألحد في دين الله وخرج عن الصراط المستقيم، الذي بعث الله به رسله وأنبيائه؛ ورد على الزنادقة وغيرهم ممن إبتدع في دين الله، وهذه الاعتقادات في الأموات إنما حدثت بعد الإمام أحمد ومن في طبقته من أهل الحديث والفقهاء والمفسرين.

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] فأقامه الله سبحانه في زمانه

---

(١) هو الإمام الحافظ الحجة المجاهد الصابر المجتهد بلا منازع ولا مدافع: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني. ولد بحران في شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ ثم انتقل به والده إلى الشام ٦٦٧ فنشأ بها سنة وتوفي في قلعة دمشق. وقد حبس بها سنتان ونيفاً ـ سنة ٧٢٨ في شهر ذي القعدة. وابن تيمية رحمه الله ورضي عنه هو مجدد الإسلام، ودافع كل بدعة بما آتاه الله من الحق والقوة. وكم كاد له أعداء الإسلام من الصوفية والمقلدين. والله يرد كيدهم في نحورهم. ولايزال صوته بالحق مدوياً في الآفاق الإسلامية السلفية حتى الآن. فجزاه الله أحسن الجزاء وما من أحد يفتح الله بصيرته على الهدى والعلم إلا بما يقتبس من مشكاة شيخ الإسلام ابن تيمية. ومن لم يعرفه ولم يقرأ كتبه فمهما ادعى السلفية فهيهات هيهات أن يكون خالصاً. قد جربنا ذلك تجربة دقيقة فقام الدليل على هذا الذي نقول. والحمدلله الذي هدانا لهذا وعرفنا أئمة الهدى ووفقنا للسير على نهجهم مقتفين آثار إمامهم سيد المهتدين وخاتم المرسلين صلى الله. عليه وعلى آله الذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين.

لتحقيق التوحيد بأنواعه الثلاثة؛ كما أقام الإمام أحمد رحمه الله في زمانه لذلك: من توحيد الصفات، فبين هذا الشيخ رحمه الله تعالى نوعى التوحيد بأتم بيان: توحيد المعرفة والإثبات. وتوحيد الطلب والقصد. ورد على من عارض أدلة التوحيد بشبهة أو تحريف. فهذه كتبه موجودة. وكلها متفقة على هذا المعنى، كاقتضاء الصراط المستقيم ومنهاج السنة في الرد على ابن الحلى الرافضي وكتاب العقل والنقل. وكتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. ورده على ابن الأخنائي ورده على السبكي في مسألة الزيارة، ورده على ابن البكري في مسألة الاستغاثة، وسيأتيك جمل منه إن شاء الله تعالى. وكلامه في أصول الدين مطرد في جميع كُتُبه لا اختلاف فيه بحمد الله.

فما نقل عنه أصحابه رحمه الله كصاحب الفروع، وكذلك من بعده من الحنابلة المصنفين في مذهب أحمد كصاحب الإنصاف والتنقيح. وكذا من بعده من المصنفين. كصاحب الإقناع والمنتهى. وقد نقل هؤلاء وغيرهم في باب حكم المرتد عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله أنه قال «من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم كفرّإجماعاً. وهذا هو مذهب أحمد عند أصحابه كلهم» وسيأتي كلامه هذا في مسألة الوسائط إن شاء الله تعالى.

فصار اعتماد الحنابلة وغيرهم من أهل السنة على اعتقاد ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله من الإجماع، لأنه هو الذي اتفقت عليه دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم وهو الذي خلق الله تعالى الخلق لأجله، وهو نفى الشرك في العبادة بأن لا يُصرف شيء من أنواعها لغير الله كائناً من كان. وهو الذي دل عليه القرآن من أوله إلى آخره ولم ينقل عن أحد من سلف الأمة وأئمتها أنه

أجاز دعاء الأموات والغائبين والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم. وقد تواتر النهي عن ذلك في الآيات المحكمات كما سنذكر بعض ذلك إن شاء الله تعالى.

وما ذكرناه من الإجماع. وما دل عليه الكتاب والسنة من قصر العبادة بجميع أنواعها على الله تعالى، وأن من صرف منها شيئاً لغير الله فهو كافر، تبين أن هذا العراقي قد خالف الكتاب والسنة والإجماع. وخالف العلماء من أهل السنة من كل مذهب؛ فما أبعده عن هذا الدين الذي أجمعوا عليه كما قال الشاعر:

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

ويكفيك في تقرير ما ذكروه عن شيخ الإسلام، من ذكر الإجماع وأنه هو الحق الذي يجب اعتقاده، والدين الذي يدان الله به ما استند إليه من محكم القرآن كقوله تعالى: ﴿ ٢٦ : ٢١٣ ولا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ وقال ﴿ ١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ﴾ والمخاطب بهذا سيد المرسلين، وهو لجميع الأمة. وانظر إلى ما ترتب على دعوة غير الله من الوعيد الشديد، والخبر الأكيد: والآيات في هذا المعنى لا تكاد تحصى إلا بعد الاستقراء والاستقصاء. ويأتيك لهاتين الآيتين نظائر من محكم القرآن في ضمن كلام العلماء.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في الرسالة السنية: فإذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من يمرق منه مع عبادته العظيمة فيَعْلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة قد يمرق من الإسلام لأسباب. منها الغلو في

بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح عليه السلام. وكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الآلهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أنصرني وأغثني وأرزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب والا قتل. فإن الله تعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له ولا يدعى معه إله آخر، والذين يدعون مع الله إلهاً آخر، مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق وتنزل المطر وتنبت النبات. وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم. يقولون ﴿٣٩:٣ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ﴿١٠:١٨ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ فبعث الله سبحانه رسله تنهي أن يدعى أحد من دونه لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. انتهى.

وتأمل كل جملة من هذا الذي قرره هذا الإمام في بيان ما بعث الله به رسله من النهي عن أن يدعي أحد من دون الله وبيانه رحمه الله تعالى كيفية الدعاء الذي لا يجوز أن يصرف منه شيء لغير الله؛ وأنه نوعان. وفيه بيان الشرك الذي نهت عنه الرسل، ومنه الاستشفاع بالشفعاء؛ كما هو بين في الآيتين المذكورتين. فهذا الكلام بحمد الله يقضي ويأتي على جميع ما ذكره هذا العراقي من الاستشفاع بالأموات ونحوهم بالفساد، بل بالبطلان.

وقال شيخ الإسلام: وكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة. قال الله تعالى ﴿٧:٥٥ ادعو ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ وقال ﴿٦:٤٠,٤١ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ وقال

تعالى ﴿ ٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾.

قلت و «أحداً» نكرة في سياق النهي. وهي تعم كل مدعو من دون الله.

وقال(١٣ : ١٤ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه. وما دعاء الكافرين إلا في ضلال).

قلت: ومن ذلك قوله تعالى ﴿ ٤٠ : ٦٦ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دونه لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ الخ فتضمنت هذه الآية حقيقة دين الإسلام كالآيات قبلها. وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصى. وهو يتضمن دعاء العبادة. لأن السائل أخلص سؤاله لله. وذلك من أفضل العبادات وكذلك الذاكر لله والتالي لكتابه ونحوه طالب من الله في المعنى. فيكون داعياً عابداً.

وللعلامة ابن القيم مثل ذلك.

فلم يبق بعد لهذا المشرك حجة يحتج بها على جواز شركه بدعائه غير الله من أي وجه كان. وهذا أيضاً يأتي على جميع ما ذكره هذا العراقي بالمنع والبطلان.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب: إغاثة اللهفان ـ وذكر زيارة القبور الشرعية ـ ثم قال: وأما الزيارة البدعية فمن جنس زيارة النصارى المشركين. مقصودها الإشراك بالميت، مثل طلب الحوائج منه والتمسح بقبره وتقبيله، والسجود له ونحو ذلك. وهذا ونحوه لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أستحبه أحد من أئمة المسلمين ولا ثبت عن أحد من السلف أنه كان يفعله لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند قبر غيره، بل أجدبوا واستسقوا، ولم يكونوا

يأتون عند قبر النبي ﷺ يدعون عنده لا في ذلك الوقت ولا غيره. بل ثبت في الصحيح «إنهم لما أجدبوا في خلافة عمر رضي الله عنه استسقوا بالعباس، فقال عمر: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون[1]» وكانوا في حياته يتوسلون بدعائه وشفاعته، فلما مات ﷺ بقوا يتوسلون بدعاء العباس، ولم يكونوا يقسمون على الله بأحد من خلقه؛ لا نبي ولا غيره؛ ولا يسألون ميتاً ولا غائباً. ولا يستعينون بميت ولا غائب، سواء كان نبياً أو غير نبي.

وهذا لأن جماع الدين أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع لا يعبد بالبدع. كما قال الفضيل بن عياض في قوله عز وجل ﴿٦٧ : ٢ ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ قال أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. فالخالص أن يكون لله. والصواب أن يكون على السنة انتهى.

فتأمله يكشف عنك شبهات الشرك إن شاء الله.

وقال رحمه الله تعالى ـ وذكر أهل الخلوات من الصوفية قال: وهذه

وكان العباس يدعو فيؤمنون على دعائه؛ كما جاء في فتح الباري (ج٢ ص ٣٣٩) قال الحافظ: وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة مادعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه. فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث» فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس. وهذا كان في عام الرمادة في السنة الثامنة عشرة. وكان ابتداء القحط مصدر الحاج منها ودام تسعة أشهر. ا.هـ. وهذا هو هدى الصحابة والسلف: أنهم يتوسلون بدعاء الصالحين من الأحياء، لا بذواتهم ولا بجاههم كما يفعله الجاهلون الذين لا يعقلون. وليس لهم في استسقاء عمر بالعباس أي حجة. بل هو صريح في الرد عليهم، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن العباس أوجه من رسول الله عند الله. ولا أن فضل رسول الله قل ومنزلته عند ربه نقصت بموته ﷺ.

الخلوات قد يقصد أصحابها الأماكن التي ليس فيها أذان ولا إقامة؛ ولا مسجد يصلي فيه الصلوات الخمس. مثل الكهوف والغيران والمقابر، ومثل المواضع التي يقال إن بها أثر نبي أو رجل صالح، فقد يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية، يظنون أنها كرامات رحمانية. فمنهم من يرى أن صاحب القبر قد جاء إليه، ويقول له: أنا فلان؛ أو ربما قال له: نحن إذا وضعنا في القبر خرجنا. والشياطين تتصور بصورة الإنس في اليقظة والمنام. وقد تأتي لمن لم يعرف، فيقول أنا الشيخ فلان، أو العالم فلان. وربما قال: أنا أبو بكر أو عمر. وربما جاءت الشياطين في اليقظة والمنام فقالت: أنا المسيح أنا موسى. وقد جرى من ذلك أنواع أعرفها؛ وثَمَّ من يصدق أن الأنبياء يأتون في اليقظة في صورهم، وثم شيوخ لهم زهد وعلم ودين يصدقون بمثل هذا. ومن هؤلاء من يظن أن النبي يخرج من قبره في صورته فيتكلم. وفيهم من يظن أن النبي ﷺ خرج من الحجرة وكلمهم فجعلوا هذا من كراماته. وفيهم من يعتقد أنه سأل المقبور فأجابه. وبعضهم كان يحكي أنه إذا أشكل عليه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي ﷺ فأجابه، وآخر من أهل الغرب حصل له مثل ذلك، وجعل هذا من كراماته. قال ابن عبد البر لمن ظن ذاك: ويحك تري هذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؟ فهل من هؤلاء من سأل النبي ﷺ وأجابه؟ وقد تنازع الصحابة في أشياء، فهلا سألوه فأجابهم وهذه ابنته فاطمة تنازع أبا بكر في ميراثه؛ فهلا سألته فأجابهم انتهى

فأنكر العلماء رحمهم الله ما حدث في هذه الأمة من البدع والضلالات التي اغتر بها أكثر الجهال. ولو تتبعنا ما في كتب شيخ الإسلام في معنى ما ذكرنا لاحتمل كثرة من الاوراق.

وأما صاحبه العلامة ابن القيم رحمه الله فأكثر مصنفاته في أصول الدين؛ وما بعث الله به المرسلين.

قال في إغاثة اللهفان. والمقصود أن الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح كان أبغض الأشياء إلى الله، وأشدها مقتاً لديه وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين؛ وجعلهم أعداء له سبحانه وللملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وأن يتخذوهم عبيداً. وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين. كما قال تعالى ﴿ ٤٨ : ٦ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به. ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده. ولهذا أخبر سبحانه أنهم ماقدروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه. وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل له ويخضع قال تعالى ﴿ ٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ وقال ﴿ ٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ أي يجعلون له عدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنها كانت ضلالاً وباطلاً يقولون لآلهتهم وهي في النار (تالله إن كنا لفي ضلال مبين. إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا أن آلهتهم خلقت السموات والأرض وإنما ساووهم به بمحبتهم لهم وتعظيمهم وعبادتهم إياهم

كما ترى ما عليه أهل الشرك ممن ينتسب إلى الإسلام، ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً؛ وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبداً، بل حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة فليس لهم من الأمر شيء؛ بل الأمر كله لله. والشفاعة كلها له سبحانه ﴿ ٣٩ : ٤٤ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ﴾ والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع.

فالمشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير أو ظهير، أو عون. وهذا أعظم التنقص لمن هو غني عن كل ماسواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته. وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك؛ وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يُعلمه الواسطة، ولا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم؛ أو لا يكفي وحده؛ أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق. فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع، وانتفاعه به، وتكثره به من القلة، وتعززه به من الذلة، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجة إليه كما هو حال ملوك الدنيا. وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لا يسمع دعاءه لبعده عنهم حتى يرفع الوسائط إليه ذلك، أو يظن أن للمخلوق عليه حقاً. فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا يمكنهم مخالفته. وكل ذلك تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك

بسبب قسمه ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فيضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دون الله.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى. ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره وأن يحرم صاحبه على الجنة وأن يخلده في العذاب الأليم ويجعله أشقى البرية، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه معظم له بذلك. انتهى.

هذا ما قرره العلامة ابن القيم في إغاثة اللهفان، وذكر في المدارج وغيره من كتبه ما هو مثل ذلك أو أبسط.

فماذا بعد الحق إلا الضلال. وما أحسن ما قاله رحمه الله في الكافية الشافية:

والعلم يدخل قلب كل موفق من غير بواب ولا إستئذان
ويرده المحروم من خذلانه لا تشقنا اللهم بالخذلان

ولكن هذا العراقي اعتاد هذه الأمور الشركية التي يجادل عنها لأنه نشأ عليها وتمكنت من قلبه فلم يعرف غيرها، كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيأتي بأدلة يزعم أنها له وهي عليه.

من ذلك: استدلاله على جواز دعاء الأموات والغائبين بقول سليمان ﴿ ٣٨:٢٧ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ ﴾ فهذا حجة

عليه لا له ، فإن سليمان عليه السلام ملك يأمر رعيته بما يقدرون عليه . وهكذا حال الملوك وغيرهم ؛ خصوصاً إذا كان مما يحبه الله ويرضاه . فهذا مما أوجبه الله تعالى على الراعي لرعيته أن يأمرهم بما ينفعهم وما يتعدى نفعه إلى غيرهم . والرسل عليهم الصلاة والسلام يأمرون الأمم بما أمرهم الله تعالى به وأوجبه عليهم ؛ وينهونهم عما حرم الله تعالى عليهم من الشرك فما دونه. فأين هذا من دعاء الأموات والغائبين وسؤالهم مالا يقدر عليه إلا الله. من قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات؟ وقد أخبر الله تعالى أن استجابتهم للداعي ممتنعة. لأنهم يسألونهم ما لا يجوز أن يسأل إلا من الله القريب المجيب الذي أمر عباده بدعائه والرغبة إليه، ووعدهم على ذلك الاستجابة. كما قال تعالى ﴿ ٤٠ : ٦٠ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ فرغب هذا المشرك عن الله ودعائه إلى دعاء هذا الميت أو الغائب الذي أخبر تعالى أنه لا يستجيب له؛ وانه غافل عن دعائه، وأنه لا يرضى بذلك منه، بل يبرأ إلى الله مما فعل، ويعاديه عليه. كما دلت على ذلك الآيات المحكمات. فيا خيبة من رغب عن سؤال الحي القيوم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض إلى سؤال ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب.

ولم يشرع الله تعالى لنا أن نتوسل بذات أحد من خلقه، بل أرشدنا إلى أعظم الوسائل إليه، وهو أسماؤه الحسنى. قال تعالى ﴿ ٧ : ١٨ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ وأما سؤال الحي الحاضر أن يدعو لأخيه المسلم. فليس من هذا الباب، لأن الله تعالى أقدره على الدعاء وأرشد العباد إلى أن يدعو بعضهم لبعض، لأن الله تعالى أقدرهم عليه. وهذا من جنس أن يعطيه مما أعطاه الله من المال ما ينتفع به لقدرته على ذلك. فهذا من باب الإحسان من بعض

وأما أهل الشرك بالله فمصيبتهم عدم الفرقان بين ماشرعه الله وما لم يشرعه من دعاء من لا يسمع، ولا يضر ولا ينفع. وقد بين تعالى ذلك في كتابه بياناً مفصلاً وأنكر على من اتخذ من دون الله شفعاء، وبين أن هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله كما قال تعالى ﴿ ٣٩ : ٤٣، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ قل: أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ وقال ﴿ (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل: أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ فسبحان من حال بين قلوب المشركين وبين فهم القرآن؛ حتى صار هدهد سليمان أعرف منهم بالشرك، وهو السجود للشمس، وأنكره على من فعله. فقال ﴿ ٢٧ : ٢٤ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ فأنكر الشرك بالله في العبادة وهو طير من جنس الطيور، وبيّن أن الشيطان صدهم عن السبيل، وأنهم ليسوا على هدى. ولا ريب أن السجود نوع من أنواع العبادة كالدعاء ونحوه. وقد ذكرها تعالى في كتابه وتعبد بها عباده. وهي أنواع كثيرة. ومن أعظمها الدعاء سماه الله عبادة في مواضع من كتابه، كما في السنن من حديث النعمان بن بشير بأسانيد صحيحة أن النبي ﷺ قال « الدعاء هو العبادة » ثم قوله ٤٠:٦٠ وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) قال ابن الجزري في شرح الحصن الحصين: إن الذين يستكبرون عن عبادتي أي عن دعائي وصرح به غيره من المفسرين وغيرهم، وقال تعالى ﴿ ١٠ : ٨٨، ٨٩ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ﴾ بحذف

ياء النداء ومعناها أدعو وهو العامل للنصب في المضاف ثم قال في آخر الآية (قد أجيبت دعوتكما) فعلم يقيناً أن المراد بقوله (دعوتكما) قول موسى (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا) وكان موسى يدعو وهرون يؤمن، وهذا هو حقيقة الدعاء في الكتاب والسنة واللغة والعرف والاستعمال. وهذا في القرآن أكثر من أن يحصى. وقال عن الخليل عليه السلام ﴿ ١٩ : ٤٨، ٤٩ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا. فلما أعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ فسمى دعاءهم لغير الله عبادة فما عرفوا من الشرك ما عرف هدهد سليمان؛ فانه أنكر الشرك وهؤلاء قبلوه واتخذوه ديناً ومعلوم أن الدعاء والاستغاثة كالسجود وأعظم. وقد تقرر بالكتاب والسنة أنه عبادة فجحد هذا العراقي ما هو معلوم من الدين بالضرورة مكابرة وعناداً.

وقد تقدم لشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم أن الدعاء نوعان لا يخرج عنهما: دعاء مسألة ودعاء عبادة. فدعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة، ودعاء العبادة يستلزمْ دعاء المسألة.

وهذا العراقي جهل هذه العلوم النافعة، فصار في ظلمة الجهل؛ فلم يعرف المعروف من المنكر، ولا عرف الحق من الباطل، فما وجدنا عنده إلا الخبط والعناد، والمرء عدو ما جهل.

وفي هذه القصة ما ذكره الله تعالى عن بلقيس لما جاءت سليمان عرفت من التوحيد ودعوة الرسل ما أوجب أن قالت (٢٧ : ٤٤ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ولم تقل: وأسلمت لسليمان،

عرفت دعوة الرسل بشواهد الأحوال، وأن الإسلام هو إخلاص الوجه والقلب وجميع الأعمال لله تعالى لا يصلح أن يقصد بشيء منها أحد دون الله عز وجل، كما قال تعالى ﴿ ١٣ : ١٤ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه. وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ فتأمل ما ذكر الله تعالى في كتابه في الدعاء والتشديد في صرفه لغيره واختصاصه تعالى به دون خلقه. وقد قال تعالى ﴿ ١٨ : ١٧ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ﴾ نعوذ بالله من صرف القلوب عن الحق إلى الباطل كما هو حال هذا الماحل المعاند المجادل.

فصـــل

وقد بين الله تعالى في كتابه حقيقة الإسلام الذي تصلح به القلوب والأعمال قال تعالى ﴿ ٤ : ٣٣ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين﴾ وقال ﴿ ٢ : ١١١ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ١١٢ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ وقال ﴿ ٣١ : ٢٣ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ والعروة الوثقى هي لا إله إلا الله؛ وإسلام الوجه هو إخلاص العمل لله وحده لا شريك له. قال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى ﴿ ٣ : ٢٠ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله

ومن اتبعن ﴾ أي انقدت لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي. وإنما خص الوجه لأنه أكرم جوارح ابن آدم فإذا خضع وجهه لله فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة من جوارح بدنه انتهى.

وأنت ترى هذا العراقي الجاهل يدعو الناس بشبهاته وضلالاته إلى أن يقصدوا بدعائهم واستغاثتهم عبداً من عباد الله، كان هذا العبد نفسه قبل موته يدعو الأمة إلى أن يخلصوا أعمالهم لله ويسلموا له قلوبهم وجوارحهم، رغبة إليه ورهبة منه ومحبة له، كما كان رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان يدعون ويجاهدون. وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب. فهذا الضال وشيعته من حزب الشيطان يدعون الناس إلى نقض ما كان عليه المؤمنون الصالحون ليكونوا لهم أعداء كما بين الله ذلك في كتابه.

ثم إن هذا الجاهل يقول: إن هذا الطلب والسؤال الذي يصرف لغير الله: ليس بدعاء بل هو نداء. فكابر المعقول والمنقول. وقد سمى الله تعالى السؤال والطلب دعاء في كثير من الآيات كما قال تعالى ﴿ ١٩ : ١، ٢ ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً. قال: رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾ سمى الله النداء دعاء لأن مدلولها واحد، من باب الترادف على معنى واحد. وهذا ظاهر جلي لمن تدبر. وعلى كل حال فتسميته نداء لا يخرجه عن كونه عبادة كما تقدم. قال الله تعالى ﴿ ٢ : ١٧١ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ فعطف النداء على الدعاء عطف مرادف وقد تقدم أن الدعاء

هو العبادة، وفي حديث آنس الذي في السنن «الدعاء مخ العبادة» وقد قصر الله تعالى العبادة على نفسه، كما قال تعالى في فاتحة الكتاب ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وفي حديث أبي ذر المتفق عليه «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» فالعبادة بجميع أنواعها مادق منها وما جل حق الله تعالى على عباده، لا يصلح منها شيء لغيره كائناً من كان. فمن صرف من العبادة شيئاً لغير الله فقد جعله شريكاً لله في حقه. وذلك ينافي التوحيد الذي دلت عليه الآيات المحكمات والذي ما خلق الله السموات والأرض والإنس والجن إلا له.

ومما يوضح ترادف النداء والدعاء، وانهما بمعنى واحد: ما أخبر الله تعالى عن نوح عليه السلام بقوله ﴿ ٢١ : ٧٦ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ﴾ فأخلص القصد لله بندائه إياه في كربه وشدته، فاستجاب الله له. وقال في الآية الأخرى ﴿ ٥٤ : ١٠ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ فسماه تعالى دعاء.

ولا ريب أن الدعاء يجمع من أنواع العبادة ما لا يجتمع في غيره من أنواع العبادات الأخرى، كتوجه الوجه والقلب واللسان للمدعو، تذللاً له وخضوعاً واستكانة ورغبة. وهذا هو حقيقة العبادة بل مخها ولبها. لأن أصل العبادة وأساسها أن يخضع العابد بقلبه غاية الخضوع والتذلل للمعبود؛ ولا بد مع ذلك من المحبة. وأنت ترى ما يفعله المشركون من إقبالهم على الأموات بسؤالهم ما لا قدرة لهم عليه، وتجد عندهم من الخضوع والتذلل وإسلام الوجه والقلب والجوارح لسؤال صاحب القبر ما لا يوجد مثله في المساجد. وهذا لا يخفى على من عرف حال هؤلاء المشركين مع من يقصدونه لإغاثة لهفاتهم وتفريج كرباتهم، فيقع منهم من الشرك بالله ما يجل

عن الوصف وتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم.

وأما قول هذا الجاهل العراقي: وكذلك المسلمون يذكرون أن طلبتهم من غير الله إنما هي من باب التسبب.

فالجواب: أن نسبة الطالب من غير الله إلى المسلمين من أمحل المحال، وأبطل الباطل فإن المسلم لا يطلب من غير الله أبداً. فإن من طلب وسأل حاجته من ميت أو غائب، فقد فارق الإسلام. لأن الشرك ينافي الإسلام ويهدمه وينقضه عروة عروة لما تقدم من أن الإسلام هو إسلام الوجه والقلب واللسان. والأركان لله وحده دون من سواه. فالمسلم ليس هو الذي يقلد آباءه وشيوخه الجاهلين ويمشي وراءهم على غير هدى ولا بصيرة، بل المسلم هو الذي يعرف ربه من التفكر في آياته الكونية، والتدبر لآياته القرآنية، فيعرفه بأسمائه وصفاته وآلائه ونعمائه؛ ويعرف رسوله من حديثه وسنته فيأخذ طريقه إلى الله على هدى وبصيرة. فيعرف حق ربه عليه من العبودية والطاعة الخالصة فهو أبداً خالص من قذارة الجهل ونجاسة الشرك، وهو مستمسك بالعروة الوثقى ومعتصم بحبل الله. لا يتركه من يده أبداً، لأنه قد عرفه الوليَّ الحميدَ القوي العزيز أرحم الراحمين القريب المجيب. وهو لذلك مخلص يخلص دعاءه لله؛ أما المقلد لآبائه وسادته وكبرائه الجاهلين، فهو أجهل الناس بربه، وأبعد الناس عنه، على قلبه حجب الغفلة وأكنة الجهل والعمة، فهو في ظلمات بعضها فوق بعض قد أحاط قلبه بها شياطين الأنس والجن؛ فأقاموا له من هذه الأوهام والخرافات في وسط هذه الظلمات آلهة مادية من قبور وأنصاب وأوثان تعلق منها بأوهى من بيت العنكبوت ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾. ولكنهم لا يعلمون لأنهم أضل من الأنعام سبيلاً. وهو يعترف على نفسه أنه بعيد عن

الله لا يعرفه . فاتخذ له شياطينه أولئك الوسطاء وضربوا لله الأمثال سبحانه وتعالى عما يشركون - وهو يقرر على نفسه أنه ليس أهلاً لأن يدعو الله ويسأله ويفزع إليه ، وصدق . فما للبهائم والأنعام الذين كفروا بنعمة الله وانسلخوا من آياته - ما لهم وللقرب من الله الكريم ، ما لهم ولمناجاة السميع القريب المجيب ؟ إنهم عن ذلك مبعدون ، لأنهم أقذر وأنجس من أن يكونوا أهلا لمناجاة الله ودعائه. فالمشرك لهذا وغيره يصرف وجهه وصلاة قلبه ونسكه لهذه الآلهة التي ستكفر به وتتبرأ منه يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضاً، ومأواهم النار وما لهم من ناصرين.

وقد عرفت مما تقدم أن الدعاء هو العبادة وقد نهى سبحانه نبيه ﷺ أن يدعو أي عبد غيره. فقال (١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين) وهذا خرج مخرج الخصوص وهو عام لجميع الأمة، وكذلك (٢٦ : ٢١٣ ولا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقال تعالى: ﴿ ٢٨ : ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو ﴾ فظهر من هذه الآيات أن الدعاء تأله للمدعو، فإن المألوه هو المعبود والعابد آلة له ومصدره الآله والألهية. وقال ابن عباس رضي الله عنهما (٧ : ١٢٧ ويذرك وإلهتك) بكسر الهمزة وفتح اللام قال لأن فرعون يُعبد ولا يَعبد.

وفي هذه الآيات التي ذكرناها هنا وقبلُ ما يبين أن الله تعالى زجر الأمة وأبلغ في الزجر والوعيد لمن دعا معه غيره.

وقول هذا العراقي الجاهل الماحل: أن طلبتهم من غير الله إنما هي من باب التسبب.

فيقال: هذا من باب التلبيس والتمويه على الجهال. وهذا من مصائد الشيطان ووحيه، معارضة لما دلت عليه الآيات المحكمات من بيان الشرك والوعيد عليه. فإذا اعتقد المشرك أن هذا من باب التسبب فليس كل ما اعتقده هو أو غيره سبباً يكون مشروعاً، يجوز فعله وقد قال الخليل عليه السلام (٢٩: ٢٥ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً، مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) وقد قال تعالى ﴿ ٢: ١٦٥؛ ١٦٦ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ـ إلى قوله ـ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال المفسرون «الأسباب» هي الوسائل التي كانت بينهم في الدنيا وقال تعالى ﴿ ٦:١٢٨ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس، وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله، إن ربك حكيم عليم﴾ وما تضمنته هذه الآيات هي أسباب لأهل الاشراك يعتقدون أنها سبب في حصول مطلوبهم، و دفع موهوبهم في الدنيا والآخرة، فخانتهم هذه الأسباب وتقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها. لأنها شرك وضلال، وهي من مصائد الشيطان التي صاد بها قلوب الجهال. فمن أطاع الشيطان ندم شر الندامة ومن عصاه سلم خير السلامة وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وأعظم الأسباب النافعة الجالبة لرضى الله، المنجية من عقابه وعذابه: إخلاص العبادة لله تعالى بجميع أنواعها؛ والاستعانة بالله على ذلك، والعمل بطاعته والتباعد عن معصيته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: والتوكل والاستعانة

للعبد، لأنه هو الوسيلة والطريق الذي به ينال مقصوده ومطلوبه من العبادة؛ فالاستعانة كالدعاء والمسألة.

فإذا عرفت بصحيح المنقول وصريح المعقول أن الدعاء عبادة وأن مدلوله السؤال والطلب فمن صرف من هذه العبادات شيئاً لغير الله فقد أشرك مع الله غيره في عبادته كائناً ما كان، لعموم النهى عن دعوة غير الله في القرآن كله من أوله إلى آخره. فمن ادعى أنه يصرف منه شيء لأحد سوى الله، فقد صادم الكتاب والسنة وخالف ما اجتمعت عليه دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم فيما دعوا إليه أممهم بقولهم (٧: ٥٦، ٦٤، ٧٢، ٨٤، و١١: ٥٠، ٦١، ٨٣ و٢٣: ٣٢ و٢٩: ٣٦ أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره).

ومما يدل على أن السؤال والطلب عبادة: ماصح عن النبي ﷺ أنه قال «من لم يسأل الله يغضب عليه» وقال: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض» وعماد الدين عبادة بلا ريب، لا يشك في هذا من له أدنى مسكة من عقل. والأدلة على هذا أكثر من أن تحصى.

وأما قول هذا العراقي: إن أهل السنة لا يكفرون المعتزلة.

فالجواب:

أولاً أن يقال: الكلام معك في أصل الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى بالعبادة، الذي أرسل الله تعالى به رسله، وأنزل كتبه في بيانه والدعوة إليه، والنهي عما ينافيه من الشرك بالله، وهو الذي أهلك الله الأمم حين ردوه وأبوا أن يقبلوا ماجاءت به الرسل من هذا التوحيد، وأبو إلا أن يجعلوا لله شريكاً

في العبادة فأهلكهم الله بعذاب الاستئصال. وأما هذه الأمة فمن لم يقبل منهم التوحيد الذي بعث الله به رسوله محمد ﷺ فإن دماءهم وأموالهم حلال. وكذلك سبى نسائهم وذراريهم. فمن أنكر هذا التوحيد أو شك فيه من مشرك أو منافق كفر بإجماع المسلمين.

وأما البدع التي حدثت في هذه الأمة فإن سببها أن أهلها أخطأوا في فهم الكتاب والسنة في بعض الأصول، وصاروا هم وأهل السنة في طرفي نقيض لخفاء الأدلة عليهم وعدم التوفيق بينها في محل النزاع، كما جرى من الخوارج. كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله فيهم:

ولهم نصوص قصروا في فهمها ... فأتوا من التقصير في العرفان
وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

فكلامنا مع هذا العراقي في أصل الدين الذي لا يصلح قول ولا عمل إلا به وبضده تفسد الأقوال والأعمال.

وأما قول الجهمية والمعتزلة فهو إلحاد في أسماء الله وصفاته، فاختلفوا في القدَر نفياً وإثباتاً، وأهل السنة كفروا كل داعية إلى هذه البدع ونحوها. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى قول أهل السنة فيهم فقال:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان

إلى أن قال:

أهل العناد فأهل كفر ظاهر ... والجاهلون فإنهم نوعان
متمكنون من الهدى والعلم بـ ... ـالأسباب ذات اليسر والأمكان
لكن إلى أرض الجهالة أخلدوا ... واستسهلوا التقليد كالعميان

لم يبذلوا المقدور في إدراكهم للحق تهوينا بهذا الشان
وهم الأولى لا شك في تفسيقهم والكفر فيه عندنا قـولان

وأما قوله: إن أهل الكرامات حالهم في الممات كحالهم في الحياة.

فهذا يبطله ما ذكره الله تعالى بقوله ﴿ ٣٥:٢٢ وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور﴾ فلم يجعلهم الله سواء، بل فرق بين الأحياء والأموات، وشبه بهم من لم ينتفع بسماع الهدى. وقال تعالى ﴿ ١٦ : ٢٠ ، ٢١ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون. أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾ وليست هذه الآية في الأصنام كما يزعمه من لم يتدبر، لأن (الذين) لا يخبر به إلا عن العقلاء، ولأن الأصنام من الأخشاب والأحجار لا يحلها الموت فإنها لم تحلها الحياة حتى يحلها الموت ولأنها لاتبعث يوم القيامة بعث الإنسان ليجزي بما كسبت يداه، ولا يعقل منها شعور بهذا البعث حتى ينفيه الله عنها. وقد قال تعالى ﴿ وما يشعرون ايان يبعثون﴾ فهذه الآية فيمن يموت ويبعث، كما لا يخفى على من تدبرها وتأمل قوله تعالى ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون﴾ وهذا إنما يستعمل فيمن يعقل كما لا يخفى على من له معرفة باللغة العربية. فالحمدلله على ظهور الحجة وبيان المحجة.

وحقيقة أمر هذا العراقي: مصادمة ما في القرآن من النهي عن دعوة غير الله. والقرآن ينهي أشد النهي عن دعوة كل ماسوى الله. وهذا يقول: يجوز أو يستحب أن يدعى مع الله غيره. ولا يخفى أن شرك المشركين في حق من عبدوه مع الله إنما هو بدعائه وسؤاله قضاء حاجاتهم وتفرج كرباتهم. فإن أردت أيها الموحد ـ وفقك الله للتمسك بدين الإسلام ـ معرفة حقيقية ما

اشتملت عليه أوراق هذا العراقي إذ طول فيها ماطول وبهرج بالكذب والبهتان ما بهرج فاعلم أن حقيقة ما فيها: الخروج عن الصراط المستقيم إلى سبيل الشيطان الرجيم، واتباع غير سبيل المرسلين والمؤمنين، وأنه إنما يؤمن بالجبت والطاغوت، والجهل بالتوحيد وجحوده والكفر به والإيمان بالشرك بالله، ونصرته والدعوة إليه، ومسبة أهل التوحيد وتحريف الكلم عن مواضعه، ومصادمة أدلة الكتاب والسنة، وقلب الحقائق بجعله الحق باطلاً والباطل حقاً، وتكثيراً لكذب على العلماء ونسبتهم إلى ما هم بريئون منه، منكرون له. فقد ملأ أوراقه بالمخرقة والبهرجة، والتخليط والتخبيط؛ والسفسطة والمغالطات، والتمويه على الجهال وغير ذلك.

وحقيقة أمرهم: أنهم شبهوا الأنبياء والصالحين بالأصنام من حيث اتخاذهم لهم شركاء لله في العبادة. وذلك غاية المسبة لهم، فكفروا بالأنبياء وسبوهم وحقروهم هم والصالحين من عباد الله المؤمنين من حيث زعموا أنهم يعظونهم وفعلوا معهم من الشرك بهم مادعوا الأمم إلى تركه وهذا ظاهر لمن تدبر أدلة القرآن الذي أنزله الله تعالى نوراً وشفاء لما في الصدور. ولا يمكن أن يعارض بالبهرجة والمغالطات ولا يفعل ذلك إلا من أعمى الله قلبه، وأذهب عقله. فإن العاقل من يفعل الخير ويترك الشر وهذا الرجل صار معكوس العقل. يقبل الشر ويرضاه؛ ويترك الخير ويأباه؛ كما هو حال الكثير من هذه الأمة وممن قبلها. كما قال تعالى ﴿٧: ١٤٧ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق؛ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها. وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً. وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً. ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ وقال تعالى ﴿٦: ١١ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

وأنت ترى هذا العراقي ينصب العداوة لكل من آمن بالله ودعا إلى توحيده وهو عدو كل موحد ونصير كل ملحد. وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان كما قال تعالى ﴿ ٦ : ١١٢ ، ١١٣ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾.

والبصير إذا نظر في أوراق هذا العراقي علم أن ما ذكره الله تعالى في هذه الآيات لا يعدوه: وذلك أنه يحاول بشبهاته وترهاته أن يجعل الميت أو الغائب شفيعاً يسأله ويقصده، ويرغب إليه بالدعاء والتذلل والخضوع له بما لا يصلح إلا لله تعالى؛ وأخبر أن اتخاذ الشفعاء من دين المشركين كما قال تعالى ﴿ ٣٩ : ٤٣ ، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شفعاء إلى قوله ـ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ﴾ والشفاعة كذلك لا يملكها غيره ولا تحصل إلا بشروط إذن الله للشافع وللمشفوع له، وكرامته للشافع. ولا يقع الإذن إلا في حق من رضي الله دينه، وهم أهل التوحيد والإخلاص الذين لم يتخذوا من دونه شفيعاً كما قال تعالى ﴿ ٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾.

فسبحان الله أين ذهبت عقول هؤلاء الغلاة المشركين عن هذه الآيات المحكمات البينات؟ وقد أخبر الله تعالى أن اتخاذ الشفعاء هو دين أهل الشرك بالله من عبدة الأوثان كما قال تعالى ﴿ ١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ـ إلى قوله سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ فأخبر أنه شرك ونزه نفسه عنه، وأخبر أن قولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) يمنع حصول الشفاعة لهم بطلبها من غير من يملكها. وقال

تعالى ﴿ ٣٩ : ٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فأخبر تعالى أنهم تولوهم من دون الله بالعبادة؛ وأنهم إنما أرادوا بذلك أن يقربوهم إلى الله بشفاعتهم لهم، فأخبر تعالى أن هذا هو الكفر بالله، بقوله ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ وكفار صيغة مبالغة أبلغ من كافر.

وهذا الذي ذكره الله تعالى عن المشركين هو الواقع من كثير من هذه الأمة في حق أرباب القبور، جهلاً منهم بحقيقة الشرك؛ حتى إن ذلك قد وقع من كثير ممن ينتسب إلى العلم. وذلك ينافي الإخلاص في العبادة الذي هو دين الله الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه كما قال تعالى ﴿ ٣٩ : ٢ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبدالله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ فالاخلاص هو دينه الذي لا يقبل ديناً سواه، وهو الذي أمر الله به نبيه ﷺ كما قال تعالى ﴿ قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ والدين هو العبادة، لا اختلاف بين علماء التفسير وغيرهم في ذلك وقال تعالى ﴿ ٤٠ : ٦٥ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين، الحمدلله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ٩٨ : ٥ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء الآية ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿ ٦ : ١٦٢، ١٦٣ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾.

وقد تقرر في كلام العلماء، بل في الآيات والأحاديث أن الدعاء صلاة، وهو كذلك لغة وعرفا، والصلاة الشرعية قد اشتملت على نوعي الدعاء؛ دعاء المسألة ودعاء العبادة. وقد تقدم في كلام شيخ الإسلام وابن القيم رحمهم الله تعالى إن دعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة، ودعاء العبادة

يستلزم دعاء المسألة. وقد اشتملت الصلاة الشرعية على النوعين فلا تصح إلا بهما، وكلاهما عبادة لا يصلح منها شيء لغير الله. فلا يجوز أن يدعي غير الله، كما لا يجوز أن يتقرب بالنسك إلى غيره فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد خرج من دين الله الذي شرعه وأمر به، وبلغه عنه رسوله ﷺ؛ وجاهد من تركه. وقد قال النبي ﷺ لابن عباس «وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» فلو كان سؤال غير الله جائزاً لما قصر ابن عمه عبدالله بن عباس على سؤال الله وحده دون غيره، بل أمره بتوحيد السؤال والاستعانة، وقصر ذلك على الله. وذلك في فاتحة الكتاب (إياك نعبد وإياك نستعين)أي إياك نعبد لا غيرك، وإياك نستعين لا بغيرك. ولا يخفى أن تقديم المعمول يفيد الحصر، فاشتملت هاتان الكلمتان على نوعي التوحيد؛ توحيد الإلهية، وهو الغاية وهو فعل العبد وإياك نستعين هو الوسيلة والمعين هو الله وحده.

فالاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا هو شرك في الإلهية والربوبية وقوله (ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له) أي في ذلك كله. قال العماد ابن كثير في تفسيره: أي قصدي ونيتي وعزمي.

قلت: فتناولت هذه الآية أعمال العبد باطنها وظاهرها، وإن ذلك كله لله وحده لا يستحق غيره منه قليلاً ولا كثيراً. قال الله تعالى ﴿ وضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً؟ الحمدلله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسير: متشاكسون، أي متنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ورجلاً سلما لرجل: خالصاً لرجل لا يملكه أحد غيره، هل يستويان مثلاً؟ أي لا يستوي هذا وهذا؛ كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي

لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص. ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال «الحمدلله» أي على إقامة الحجة عليهم «بل أكثرهم لا يعلمون» أي فلهذا يشركون بالله.

فصـــل

وقد أنكر الله في محكم كتابه على من دعا الأنبياء والصالحين والملائكة. فقال ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ نزلت هذه الآيات فيمن يدعو المسيح وأمه والعزير والملائكة. وأئمة التفسير ذكروا ذلك في معنى هذه الآية الكريمة.

فانظر إلى هذا التهديد والوعيد في حق من دعا الملائكة والأنبياء والصالحين؛ وأخبر تعالى أنهم لا يملكون كشف الضر عمن دعاهم ولا تحويله، وأخبر تعالى أن أولئك الذين يدعونهم من الأنبياء والصالحين يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب وأعظم الوسائل إخلاص العبادة لله تعالى وتجريد التوحيد، ومخالفة ما كان يفعله المشركون من دعوة غير الله.

ومما يتوسل به إلى الله تعالى أسماؤه وصفاته كما قال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ وقد علم النبي ﷺ أصحابه أن يتوسلوا إلى الله في دعائهم بحمده والإخلاص له، كما في الحديث الصحيح «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام» وحديث «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد

الصمد، الذي لم يدل ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» وأمثال هذا في الأحاديث كثير.

وأما ما ادعاه المنحرفون عن الإيمان من أن الوسيلة هو التوسل إلى الله تعالى بالأنبياء والصالحين فهذا باطل يناقض ماذكره الله تعالى في أول الآية: من تهديد من دعاهم وإنكاره عليهم دعوتهم. وقد تقدم مايدل أن هذا المدعى هو بعينه دين المشركين المتخذين الشفعاء يسألونهم أن يشفعوا لهم عند الله ويقربوهم إليه زلفى. والقرآن كله من أوله إلى آخره يبطل هذه الوسيلة ويبين أنها شرك وكفر. كما قال تعالى ﴿٢٣: ١١٧ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ وقوله ﴿٤٦: ٥، ٦ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ الآيتين. وقوله ﴿٣٥: ١٣، ١٤ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إلى قوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ فتظاهرت الآيات والأحاديث على أن هذه الوسيلة التي يدعيها أولئك الضلال؛ من التعلق بالأموات والغائبين برغبة أو رهبة هي الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، كما تقدم ذلك صريحاً في كلام العلماء والاستدلال على ذلك بهذه الآيات ونظائرها.

وهؤلاء الجهلة الضلال قلبوا الحقائق ودعوا الخلق إلى أن يجعلوا لله أنداداً يصرفون لهم من العبادة ما لا يستحقه إلا الله تعالى. فخالفوا الرسل والكتب. فأنكروا التوحيد الذي تضمنته دعوة الرسل والكتب، وأجازوا الشرك الذي هو أعظم المنكرات، واتفقت الرسل والكتب على إنكاره والنهي عنه، والتحذير منه ومن عقوباته. وهذا بين واضح لمن ألهمه الله رشده، ووقاه شر نفسه، وأحيا الله قلبه.

وليس عند هذا العراقي وأمثاله ما يدفع حجج الله وبيناته. حاشى وكلا. وغاية ما يستدل به: إما حديث مختلق مفترى. والأحاديث لا يقبل منها إلا ما رواه العلماء من أهل الحديث بالأسانيد المتصلة التي ليس فيها من يتهم بالكذب أو النسيان أو غير ذلك من العلل التي ذكرها المحدثون.

وقد صنف بعضهم في الموضوعات وأفردها بالتصنيف لئلا يغتر بها جاهل.

ومما بهرج به ما ينسبه إلى بعض العلماء، وهو إما أن يكون كذباً عليه أو أنه أخطأ فيه والخطأ جائز عليه. ولهذا ورد في كلام بعض الصحابة التحذير من زلة الحكيم فإن كُلا يؤخذ من قوله ويترك حتى في أبواب العلم إلا الرسول ﷺ؛ فإن الله تعالى عصمه وأخبر أنه ﴿٥٣: ٣، ٤ ما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾ وأيضاً فكل هذه الحكايات منقطعة لا يجوز الاحتجاج بها. ولو لم تعارض نصوص الكتاب والسنة فكيف إذا عارضت أصل دين الإسلام الذي أكمله الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ. فلا تجد حكاية من هذه الحكايات إلا وهي منقطعة، والناقل مجهول الحال. وبكل وجه اعتبرته يفسد بها الاستدلال. فلا يروج ما لبس به هذا العراقي إلا على جاهل لا بصيرة له في معرفة الحق من الباطل.

ولا خلاف بين العلماء رحمهم الله تعالى أن أدلة الشرع المتفق عليها ثلاثة: آية محكمة أو حديث عن النبي ﷺ يرريه العلماء بالأسانيد المتصلة، ويحتجون به على محل النزاع. والثالث: الإجماع وهو إجماع الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين من المجتهدين. وأما القياس ففي الاستدلال به نزاع بين العلماء ومن قال منهم أنه دليل فلقبوله سروط مذكورة في كتب العلماء

من الأصوليين وغيرهم (1).

فإذا كانت هذه الحكايات التي يذكرها هذا العراقي لا يدل عليها نص كتاب ولا سنة ولا قياس، ولا أجمع عليها من يعتد بإجماعه ممن ذكرنا، ومع

---

(1) قال الشيخ حامد الفقي:
وعلى تسليم أنه دليل. فليس له محل في هذا الباب، لأنه باب العبادة؛ والعبادة لا يدخلها القياس لأنها توقيفية، لا يدخلها قياس العقول، وما كان منها بالقياس فهو شرع دين لم يأذن به الله. وقول على الله بلا علم.

والعبادة: إنما هي التقرب إلى الله والسعي في الطريق المستقيم إلى مرضاته. ولا دخل للعقل في هذا بتاتاً، لأن عمل العقل إنما يكون نتيجة ما يصل إليه من طريق الحواس من المعلوم. ومحال أن تدرك حاسة من الحواس ذات الله أو صفة من صفاته. وما تدرك الحواس إلا آثار صفاته (٦:١٠٣ لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار. وهو اللطيف الخبير) (٤٢:١١ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) فكيف يمكن للعقل معرفة الطريق الموصل إليه سبحانه وإلى ما يحب ويرضى وإنما تعرف العبادة من طريق الرسل المبلغين عن الله، والدالين العباد على طريق مرضاة ربهم. كذلك كان الإسلام: أن يسلم العبد وجهه لله وحده وأن يحسن عمله بالاقتداء برسول الله وحده؛ وأن يعرف العبد ربه وحقه من طريق الكتاب المبين والرسول الصادق الأمين، لأنه لا يعلم الله وحقه إلا الله وحده. فهو الذي يرحم عباده باصطفاء الرسل فيوحي إليهم من العلم به وبحقوقه ما هم بحاجة إليه في سعادة دنياهم وآخرتهم؛ وحذرهم أشد التحذير أن يتبعوا أهواءهم ويقولوا على الله وفي الله ما ليس لهم به علم؛ وقرن ذلك بالفواحش والمنكرات والاثم والبغي والشرك. فقال (٧:٣٣ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وهذا التحذير مكرر في القرآن الحكيم مراراً. وما قرنه بالشرك إلا لأنه سبيله المؤدي إليه ولا بد، والذي يمهد به الشيطان إلى اتخاذ الأنداد والآلهة مع الله تعالى وإلى تغيير خلق الله والكفر به وتكذيب آياته والاستكبار عنها وعن الإسلام لرب العالمين. ليتخذ من عباد الله نصيباً مفروضاً يكون لهم ولياً من دون الله فيضلهم ضلالاً بعيداً ليكونوا من أصحاب السعير.

فاعلم ـ وفقني الله وإياك وثبتنا على الهدى ودين الحق أنه ما ضل من ضل في القديم والحديث عن سنن المرسلين. وما كفر من كفر بالله رب العالمين، وما حدث ما حدث من البدع الضالة التي أفسدت العقائد والأعمال، وفرق الناس بها دينهم شيعاً: إلا بالقياس في العبادات؛ والأمور الغيبية من شئون الله وأسمائه وصفاته، فإنه قد فتح عليهم الشيطان بذلك باباً من الشر والفساد عريضاً أدخلهم منه إلى غضب الله ولعنته في الدنيا والآخرة. ومن ثم كان السلف الصالح رضي الله عنهم يمقتون القياس والقياسيين ـ بهذا المعنى ـ أشد المقت ويحذرون منهم أشد التحذير. وما كانوا يقيسون إلا في الأمور الدنيوية من الخصومات والقضايا في الدماء والأموال، التي يعرفون كل ملابساتها وحوادثها ويعلمونها بحواسهم ومشاهداتهم، فيقيسونها بأمثالها من أقضية رسول الله ﷺ وحكوماته وهذا هو القياس الصحيح الذي لا ينبغي غيره ولا يصح في الإسلام خلافه. والله الموفق.

هذا فقد صادمت الأدلة كلها. فإذا كان الأمر كذلك ـ كما لا يخفى ـ علم يقيناً أنها من وحي الشيطان، وتلبيس الجاهلين المنحرفين عن الحق المبين.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى حكايات اغتر بها عباد القبور. وأجاب عن ذلك بما يكفي ويشفي.

وسنذكر إن شاء تعالى في هذا الجواب بعض ذلك.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: والمقصود أن الشيطان يلطف كيده يحسن الدعاء عند القبور، وأنه أرجح منه في المسجد، ثم يدعوه إلى درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به والإقسام به على الله تعالى. ثم ينقله إلى دعاء الميت نفسه من دون الله، ثم ينقله إلى أن يتخذ قبره معتكفاً، ويوقد عليه القناديل، ويضع عليه الستور ويعبده بالسجود له والطواف، والتقبيل والاستلام، والحج إليه، والذبح له. ثم ينقله إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه معبوداً. ثم إلى الإنكار على من أنكر شيئاً من هذه المفاسد، والحكم عليه بالضلال البيعد.

وأعظم الفتنة بالأنصاب فتنة أصحاب القبور، وهي أصل فتنة عباد الأصنام، كما ذكره السلف من الصحابة والتابعين.

فمن أعظم من كيد الشيطان: أنه ينصب لأهل الشرك قبراً معظماً معبوداً ثم يوحي إلى أوليائه أن من نهى عن عبادته واتخاذه وثنا فقد تنقصه وهضمه، فيسعى الجاهلون والمشركون في قتله وعقوبته ويكفرونه، وماذنبه إلا أنه يأمر بما أمر الله به ورسوله من توحيد العبادة وينهي عما نهى الله عنه ورسوله من اتخاذ القبور أوثاناً وأعياداً وإيقاد السرج عليها وبناء القباب عليها، وغير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه من فنون الشرك الذي كان يفعله المشركون مع أرباب القبور.

فقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسله من تجريد التوحيد. فإذا نهى الموحد المشركين عن الشرك بالأموات اشمأزت قلوبهم؛ وقالوا: قد تنقص أهل الرتب العالية؛ وزعم أنهم لا حرمة لهم ولا قدر، ويسري ذلك في نفوس الجهال والطغام وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم؛ ونفروا الناس عنهم ووالوا أهل الشرك وعظموهم وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ويأبى الله ورسوله ذلك ﴿٨: ٣٤ إن أولياؤه إلا المتقون﴾ الداعون إلى توحيده على بصيرة، لا لابسوا ثياب الزور الذين يصدون الناس عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم أن النهي عن اتخاذ القبور مساجد وأعياداً وإيقاد السرج عليها والسفر إليها ودعائها، والنذر لها واستلامها وتقبيلها، وتعفير الجباه في عرصاتها ونحو ذلك: غض من قدر أصحابها كما يحسبه أهل الاشراك والضلال. بل ذلك من إكرامهم ومتابعتهم فيما يحبونه وتجنب ما يكرهونه بل أنت والله وليهم ومحبهم، وناصر طريقهم وسنتهم؛ وعلى هديهم ومنهاجهم. وهؤلاء المشركون من أعصى الناس لهم، وأبعدهم من هديهم، كالنصارى مع المسيح والروافض مع علي. فأهل الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل. والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض.

فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن. فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها وسنته، مشتغلين بقبره عما دعا إليه وأمر به، فتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما يكون باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم وسلوك

طريقهم، دون عبادة قبورهم والعكوف عليها. وقد أرسلوا إلى أممهم بالنهي عن ذلك. فنهوا عنه أشد النهى. فكيف يتقرب إليهم بما قد حرموه ونهوا عنه، ونصبوا العداوة لمن فعله، وتبرأوا منه؟ وإنما اشتغل كثير من الناس بكثير من أنواع العبادة المبتدعة التي حرمها الله ورسوله لإعراضهم عن المشروع؛ وإن قاموا بالصورة الظاهرة. فقد حرموا المقصود منها. ومن أصغى إلى كلام الله ورسوله بقلبه وتدبره بكليته، وأخذت نفسه باقتباس الهدى والعلم منه أغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها. انتهى.

ومما يقرر ما قدمناه ـ من أن مدلول الدعاء هو السؤال والطلب رغبة أو رهبة أو مجموعها ـ ماذكره البخاري رحمه الله تعالى وغيره من المحدثين والمفسرين فإنه قال في صحيحه: كتاب الدعوات، باب قول الله تعالى ﴿٤٠ : ٦٠ ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ ولكل نبي دعوة مستجابة. حدثنا اسماعيل قال حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لكل نبي دعوة يدعو بها؛ وأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» زاد مسلم «وهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً» وذكر رحمه الله أحاديث في هذا المعنى كغيره من المحدثين والمصنفين في الاذكار والدعوات؛ مما لا يقدر مبطل على دفعه ومنعه. وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فصـــل

في بيان أمور من الشرك الأكبر الذي وقع فيه من وقع من هذه الأمة كما وقع ممن قبلهم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن أنواعه ـ أي الشرك طلب الحوايج من الموتى والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أن يملك لمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده.

قلت: وهذا الجهل قد عمت به البلوى كما قال في الكافية الشافية:

ولقد رأينا من فريق يدّعى الا سلام شركا ظاهر التبيان

جعلوا له شركاء والوهم وسا ووهم به في الحب لا السلطان

إلى آخر الأبيات.

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي الحنبلي في رده على السبكي.

في قوله: إن المبالغة في تعظيمه أي الرسول ﷺ واجبة:

إن أريد بها المبالغة بحسب مايراه كل أحد تعظيماً، حتى الحج إلى قبره والسجود له، والطواف به؛ واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين وانه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء: فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين.

وفي الفتاوي البزازية من كتب الحنفية: من قال: إن أرواح المشايخ حاضرة تعلم: يكفر.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتابه الرد على من ادعى أنَّ للأولياء تصرفاً في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر

الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم ويستغاث بهم في الشدائد والبليات ؛ وبهممهم تكشف المهمات ؛ فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات ، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات وقالوا : منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة والقطب هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس : وجوزوا لهم الذبائح والنذور وأثبتوا لهم فيها الأجور.

قال : وهذا كلام فيه تفريط وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة ، وفي التنزيل (٤ : ١١٥ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً).

ثم قال : فأما قولهم : إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد المات فيرده قوله تعالى ﴿٢٧ : ٦٠ ٦٤ أإلـه مع الله) (٧ : ٥٤ ألا له الخلق والأمر ﴾ ﴿ ٤٢ : ٤٩ لله ملك السموات والأرض ﴾ ونحوه من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره في شيء بوجه من الوجوه. فالكل تحت ملكه وقهره وتصرفا وملكاً وإحياء وإماتة وخلقا ، وتمدح الرب تعالى بملكه في آيات من كتابه كقوله ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ وذكر آيات في هذا المعنى ـ ثم قال : فقوله في الآيات كلها «من دونه» أي من غيره فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده ؛ فإنه من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره؟ إلى أن قال : إن هذا القول وخيم ؛ وشرك عظيم إلى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد المات فهو أشنع وأبدع من القول

بالتصرف في الحياة، قال جل ذكره ﴿ ٣٩ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ وقوله ﴿ ٣٩ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت الآية ﴾ ﴿كل نفس بما كسبت رهينه ﴾ وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ـ الحديث» وجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان. فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح منطلقة متصرفة (قل أأنتم أعلم أم الله؟).

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات من الكرامات فهو من أعظم المغالطة لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدي، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد. فهذا أقبح مما بعده وأبدع، لمصادمته قوله ﴿ ٢٧ : أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله؟ ﴾ ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾ وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال:

فانه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المنفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر القادر على إيصال الخير فهو المنفرد بذلك. فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولى.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية. من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقولهم: يا لزيد؛ يا للمسلمين بحسب

الأفعال الظاهرة بالفعل. وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض؛ وخوف الغرق، والضيق والفقر، وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله، لا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال وينادونهم، ويستنجدون بهم، فهذا من المنكرات. فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيراً فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير.

وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات. فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة. فهذا ظن أهل الأوثان. كذا أخبر الرحمن ﴿ ١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ﴿ ٣ : ٣ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ﴿ ٣٦ : ٢٣، ٢٤ أأتخذ من دونه الهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيرهم على وجه الإمداد منه إشراك مع الله إذ لا قادر على الدفع غيره ولا خير إلا خيره.

قال: وأما ماقالوه إن منهم أبدالاً ونقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس. فهذا من موضوعات إفكهم، كما ذكره القاضي المحدث في سراج المريدين وابن الجوزي وابن تيمية انتهى باختصار.

فرحم الله علماء السنة فلقد كفونا مؤنة كشف ما أورده المشركون في شبهات المبطلين؛ وإلحاد الملحدين. فلله الحمد والمنة على عظيم النعمة.

فيتبين بهذا لمن له عقل بطلان ما بهرج به هذا العراقي من كرامات الأولياء مستدلاً بذلك على جواز جعلهم لله أنداداً.

ومما يبين ذلك: أنه وقع لعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه في غزوة خيبر من الكرامات ما لا يقع لغيره، ولما بلغه عن أناس من أهل الكوفة وغيرها انهم اعتقدوا فيه الآلهية خدلهم الأخاديد، وجعل فيها الحطب، وأوقدها بالنار وقذفهم فيها، إعظاماً لهذا الأمر، وهو بالنسبة إلى ماوقع من عباد القبور في هذه الأزمنة وقبلها قليل من كثير. والكرامة أمر يجعله الله للعبد لا صنع للبشر فيه فالذي أوجد الكرامة لمن شاء من عباده هو الذي (يستحق أن يعبد وحده لا شريك له فإن الكرامة إنما تقع لبعض الموحدين المخلصين، بسبب توحيدهم وإخلاصهم لله تعالى. كما قال تعالى في حق المسيح ابن مريم وأمه والعزير والملائكة بعد التهديد والوعيد لمن دعاهم ﴿ ١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ ولهم المعجزات العظيمة.

ومن العجب استدلال هؤلاء المشركين بما ظهر من آثار تحقيق التوحيد فيمن ظهر فيه شيء من ذلك على أن يجعله لله شريكاً في عبادته. وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ ١٨ : ١١٠ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ وهو صاحب المعجزات ﷺ وقد قال لمن قال له «ماشاء الله وشئت: أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده» وقد قال تعالى ﴿ ٤١ : ٦، ٧. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد. فاستقيموا إليه واستغفروه. وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ وما أعطى أحد من هذه الأمة بعد نبيها ما أعطى عيسى ابن مريم

عليه السلام كما قال تعالى ﴿ ٥ : ١١٠ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذا أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾ فما أوجب ذلك لعيسى أن يعبد بشيء من أنواع العبادة؛ بل أنكر تعالى على النصارى إتخاذهم له آلهاً بالعبادة. كما قال الله تعالى ﴿ ٥ : ١١٦ ؛ ١١٧ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك. ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قلته فقد علمته؛ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ـ الآية ﴾ والكرامة قد تقع للمفضول دون الفاضل. ولهذا قال النبي ﷺ (إنه كان من الأمم «قبلكم» محدثون، فإن يكن أحد في أمتي فعمر).

قال العلامة ابن القيم: فجزم بوجود المحدثين في الأمم وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط. فليس هذا بنقصان لأمته عمن قبلهم، بل هذا من كمال أمته على من قبلها. فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى محدث؛ بل إن وجد فهو صالح للاستشهاد والمتابعة، لا أنه عمدة لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها ﷺ عن كل مقام أو مكاشفة او إلهام أو تحديث. وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون.

قلت: فعلى هذا لا مزية لمن ظهر له شيء من هذه الكرامات، ولو صحت وقد يجريها الله لبعض الناس ابتلاء وفتنة واختباراً فارجع إلى التمسك بأدلة الكتاب والسنة وتمسك بالوحيين، وخذ بهما تسلم من الشبهات الفاسدة، التي لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً.

ولا يخفى أن أكثر ما يقع لبعض المتأخرين مما يظن الجاهلون أنها من كرامات أكثرها أحوال شيطانية، وإن ذكرت عن بعض من له زهد وعبادة، وكثير منها لا يعلم له صحة للجهالة بالناقل لذلك، وللجهالة بمن ينقل عنه فإنها نقل مجهول عن مجهول. وعلى كل حال فلا تفيد شيئاً، فضلاً عن أن تعارض بها أدلة الكتاب والسنة[1].

---

(١) يقول الشيخ حامد الفقي :
الكرامة بمعناها اللغوي والشرعي - هي ما يتفضل الله به على عبده المؤمن مما هو خير له في دينه ودنياه وآخرته. ولقد كان الصحابة والمؤمنون الأولون يعرفون الكرامة كذلك. فإذا خرجوا إلى غزوة سألوا الله أن يكرمهم بالشهادة، وإذا عادوا من غزوة فسئلوا عمن استشهد قالوا أكرمه الله بالشهادة. والله تعالى يقول (٤٩ :١٣ إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فأحب شيء إلى المؤمن أن يكرمه الله بالعلم والهدى والإيمان والتقوى وأن يثبته على ذلك حتى يلقاه .ويقول الله أيضاً (٢٢ :١٨ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض إلى قوله - ومن يهن الله فما له من مكرم) يعني بذلك جل ثناؤه: أن من يوفقه الله للإيمان به وإخلاص العبادة والخضوع والإسلام والذل والضراعة له وحده هو الذي أكرمه الله بالعلم به والإيمان والخضوع الذي جعله به من عباد الله المخلصين. ومن حرم من ذلك فهو الذي أهانه الله وحقره. فلن يجد له مكرماً من دون الله ولا سبيل إلى هذه الكرامة إلا باتباع رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ لم تكن الرسالة من عمله إنما كانت باصطفاء الله له والله أعلم حيث يجعل رسالته (وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ورسول الله وإخوانه المرسلون صلى الله عليهم أجمعين لم تكن معجزاتهم طوع إرادتهم ومشيئتهم في أي وقت، فعيسى ما كان يصنع الطين طيراً في كل وقت كما يشاء بل كان ذلك بإذن الله. وموسى لم تكن عصاه تحت مشيئته واختياره يصنع بها ما يشاء وإلا ما خالف وولى حين أفزعه سحرة فرعون بحبالهم وعصيهم التي خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، حتى أوحى إليه الله (ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا) وكذلك شأنها حين أدركه فرعون بجنده والبحر أمامهم، وكذلك حين عطش بنو إسرائيل وألحوا في طلب السقيا؛ كل ذلك كان يقف موسى حائراً حتى يوحي الله إليه (اضرب بعصاك) ومحمد ﷺ ما كان يأتيه جبريل متى شاء؛ بل ما كان جبريل نفسه يتنزل إلا بأمر ربه كما قال في سورة مريم، وقد طال انتظار النبي ﷺ لجبريل ليسأل عن جواب ما سأله عنه المشركون المتعنتون؛ فضرب لهم موعداً، ولم يقل إن شاء الله، فحبس الله عنه جبريل حتى اشتد على رسول الله ﷺ فلما جاءه سأله عن سر هذا التأخير. فقال (وما نتنزل إلا بأمر ربك. له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً) فإذا كانت معجزات الأنبياء بأمر الله وحده ومشيئته وحده مع شدة حاجة الأنبياء إلى هذه المعجزات لتبليغ رسالات ربهم. فكيف تكون الكرامة كما يدعيها الصوفية الضالون - تحت أمر ومشيئة واختيار وليهم يصنعها في أي وقت، بل يفتخر بها ويتظاهر أمام الناس - كما يروون ذلك في كتب مناقبهم، التي هي أولى أن تسمى مثالب ومعايب لو كانوا يعقلون - إن دعوى أولئك الصوفية - قبحهم الله وأخزاهم - أوضح دليل على الجرأة والتهجم على الرب العليم الحكيم القوي العزيز، وإن ذلك لأوضح برهان على أن اولياءهم أولياء الشيطان الذي يستمتعون بخدمته لهم بهذه الشعوذات والمخرقات

← ليموهوا على العامة والطغام؛ ويستمتع بهم الشيطان في نشر الكفر والزندقة والشرك والفسوق والعصيان ومشاقة الله ورسوله وتغيير خلق الله والتكذيب بآياته والكفر بسنته الحكيمة، وإنك حين تقرأ طبقات اوليائهم كطبقات الشعراني - مثلاً - تجد فيها - إذا استثنيت المؤمنين الذين حشرهم في كتابه القذر وهم يبرؤن إلى الله منه ومن كتابه - تجد فيها أنواع الفجور والشرك والتمرد على الله بأقذر أنواع الفسوق والعصيان؛ من دعوى التصرف في الكون بالقبض والبسط والرفع والخفض والقهر والتحكم في الله. والزنا والقيادة للبغايا والعاهرات، وفعل الفاحشة في الحمير وغير ذلك مما تقشعر منه الجلود. فهؤلاء هم أولياؤهم الذين دعوا الناس إلى عبادتهم وعبادة غيرهم من دون الله واختلقوا الأكاذيب والفرى الوقحة وزعموها لهم كرامات، مثل دعوى الشعراني أن ولياً من أوليائه الحشاشين سلب علم الشيخ سراج الدين البلقيني) لأنه اعترض عليه، ومثل دعواه لوليه الحنفي أنه كان يمشي كل يوم من الفسطاط إلى الجيزة ويعبر النيل ومن ورائه تلاميذه مشاة على الماء. وهو يقول قولوا: يا حنفي وامشوا خلفي. فغلط واحد منهم وقال: يا الله. فغاص في الماء. فادركه ولي الشيطان الحنفي، وانتهره وأخذ بيده فأخرجه وقال: لا تقل يا ألله، وقل يا حنفي، وهذه الحوادث المفتراة وأشباهها كثير جداً في كتب الشعراني وشيعته من الصوفية حزب الشيطان. لا نشك ولا يشك من عنده ذرة من عقل أنها مكذوبة لم يقع منها شيء البتة؛ ولكنهم يفترونها ليروجوا بها شركهم واستكبارهم على الله رب العالمين.

فالقاعدة عندنا وعند كل مؤمن بالله وكتابه ورسوله: أن الله الكريم سبحانه يكرم عبده المؤمن الذي عرفه بالتفكر والتدبر في آياته الكونية والتفقه في آياته القرآنية فآمن به على علم ونور وهدى؛ واستقام على مقتضى سنن الله الكونية وآياته القرآنية في كل شئونه؛ وعرف رسوله ﷺ من سيرته وحديثه يلازم ذلك ويفهمه ويعمل به ويستقيم على هدى رسول الله علماً وعملاً واعتقاداً وخلقاً وحالاً بعد أن فك الله عن قلبه حجب التقليد الأعمى وخلص نفسه من آصار الآراء والأهواء وتقاليد الشيوخ والسادة والآباء. فإذا أكرم الله عبده هذا بالفقه في كتابه والتوفيق لاتباع رسوله على نور من ربه؛ وبارك له في وقته وماله وأهله وولده وأكرمه باستعماله في الدعوة إليه، وأكرمه بالتأسي برسوله ﷺ في الصبر على ما يلقى من الأذى. وغير ذلك من أنواع الكرامات التي يرى أن الدهماء والسواد الأعظم من التابعين والمتبوعين قد حرموا منها، يتصاغر في نفسه ويزداد ذلاً وخضوعاً لربه وفقراً واحتياجاً إليه وإلى توفيقه وتثبيته، والله يتولاه فكلما حاول الشيطان أن يقذفه بظلمة من الرياء أو حب التحدث عنه، أو الرغبة في ثناء الناس عليه، أو الإدلال على ربه بجهاده أو عبادته، تداركه ربه بولايته وكرامته فأخرجه من هذه الظلمات إلى نور العلم الذي يعرف به فضل ربه عليه فيزداد لربه ضراعة ويزداد من تقليب قلبه خوفاً؛ فيؤكد ما بينه وبين ربه من صلات العبودية وهكذا كان شأن الصحابة والأئمة المهتدين والسلف الصالحين، على عكس ونقيض ما عليه هؤلاء الفجار من الصوفية الذين يحاولون الاتحاد برب العالمين ليقولوا للشيء كن فيكون. سبحان ربنا عما يقول هؤلاء الظالمون علواً كبيراً.

فكل مدعي الكرامة وأنه يقدر أن يعمل منها ما يشاء في أي وقت شاء، نأخذ من دعواه هذه أوضح دليل على أنه من أولياء الشيطان وأعداء الرحمن الذين قال الله فيهم (٦: ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس. وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك عليم حكيم. وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) ولا يغتر بظواهر زهدهم وورعهم إلا مغرور.

فأين هؤلاء الذين تذكر عنهم هذه الأحوال من السابقين الأولين كأهل بيعة العقبة، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وأكثرهم قد شاهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ وهم أفضل الأمة على الإطلاق. ولم يذكر لهم من هذه الأمور شيء إلا نادراً، وما عد أحد منهم ذلك فضيلة لمن وقعت له. وقد بين النبي ﷺ أنها قد تقع لعمر خاصة بقوله «فإن يكن أحد في أمتي فعمر» ولا ريب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أفضل من عمر رضي الله عنه. فلم يقع له شيء من ذلك كغيره من السابقين الأولين فلا حجة لأحد فيما يدعي أنه كرامة من كل وجه من الوجوه كما تقدم.

وقد تقدم إن المعجزات التي وقعت للرسل أعظم وأعظم، فصارت إعلاماً على صدقهم فيما دعوا إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، فلم تكن دليلاً على أنه يجوز أن يستغاث بهم أو يعتقد فيهم بما لا يجوز اعتقاده في أحد سوى الله من نفع أو ضر أو رغبة أو رهبة. والقرآن ينادي بهذا في كل سورة.

ونذكر هنا ما ذكره العماد ابن كثير في هذا المعنى في أول تفسير سورة البقرة فإنه رحمه الله تعالى قال: وذكر القرطبي ها هنا مسألة فقال:

قال علماؤنا رحمهم الله: من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة.

وهذا لفظه؛ ثم استدل على ما قال بأنا لا نقطع لهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان؛ وهو ليقطع لنفسه بذلك. والولي هو الذي يقطع له بذلك في نفس الأمر.

قلت. وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدي غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضاً بما ثبت عن ابن صياد أنه قال «هو الدخ» حين خبأ له رسول الله ﷺ (يوم تأت السماء بدخان مبين) وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب، حتى ضربه عبدالله بن عمر، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض مثل العياسيب وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه، إلى غير ذلك من الأمور المهولة.

وقد قال يونس بن عبد الأعلى: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتـم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. فقال الشافعي: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغتروا به، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة انتهى.

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في اقتضاء الصراط المستقيم[1] كلاماً نافعاً لمن شرح الله صدره للإسلام وصار الحق ضالته يطلبها إلى أن يجدها.

فقال رحمه الله تعالى: ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب أو في كنيسة يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة لكان هذا من العظائم بل لو قصد بيتاً أو حانوتاً في السوق أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة بالدعاء عندها لكان هذا من المنكرات المحرمة إذ ليس للدعاء عندها فضل. فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب، بل هو أشد لأن النبي

(١) طبعة الخانكي صفحة ١٦٢ ـ ١٨٧.

ﷺ نهى عن اتخاذها مساجد، واتخاذها عيداً؛ وعن الصلاة عندها. وما يرويه بعض الناس أنه قال «إذا تحيرتم بالأمور فاستغيثوا بأهل القبور» ونحو هذا. فهو كلام موضوع مكذوب باتفاق العلماء يبين ذلك أمور.

أحدها: أنه قد تبين أن العلة التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة عندها من أجلها إنما هو لئلا تتخذ ذريعة إلى نوع من الشرك، بالعكوف عليها، وتعلق القلوب بها؛ رغبة ورهبة. ومن المعلوم أن المضطر في الدعاء الذي قد نزلت به نازلة فيدعو باستجلاب خير كالاستسقاء أو لدفع شر كالاستنصار فحاله بافتتانه بالقبور إذا رجا الإجابة عندها أعظم من حال من يؤدي الفرض عندها في حال العافية. فإن أكثر المصلين في حال العافية لا تكاد تفتن قلوبهم بذلك إلا قليلاً. أما الداعون المضطرون ففتنتهم بذلك عظيمة جداً. فإذا كانت المفسدة والفتنة التي لأجلها نهى النبي ﷺ عن الصلاة عندها متحققة في حال وعمل هؤلاء كان نهيهم عن ذلك أوكد وأوكد. وهذا واضح لمن فقه في دين الله، وتبين له ما جاءت به الحنيفية من الدين الخالص لله، وعلم كمال سنة إمام المتقين في تجريد التوحيد ونفي الشرك بكل طريق.

الثاني: أن قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة هنالك رجاءاً أكثر من رجائها بالدعاء في غير هذا الموطن أمر لم يشرعه الله ولا رسوله، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا أئمة المسلمين ولا ذكره أحد من العلماء ولا الصالحين المتقدمين، بل أكثر ما ينقل ذلك عن بعض المتأخرين بعد المائة الثانية. وأصحاب رسول الله ﷺ قد أجدبوا مرات ودهمتهم نوائب غير ذلك؛ فهلا جاءوا فاستسقوا واستغاثوا عند قبر النبي ﷺ؟ بل خرج عمر بالعباس فاستسقى به، ولم يستسق بقبر النبي ﷺ ولا عنده وقد روينا

في مغازي محمد بن اسحق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال «لما افتتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف له. فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر رضي الله عنه، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية؛ وأنا أول رجل من العرب قرأه مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم ولحون كلامكم وأموركم وما هو كائن. بعد قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة. فلما كان بالليل دفناه، وسوينا القبور كلها. لنعميه على الناس لا ينبشونه. قلت: فما كانوا يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من قفاه. إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع» في هذه القصة مافعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به الناس، وهو إنكار منهم لذلك. وقد كان من قبور أصحاب النبي ﷺ بالأمصار عدد كثير وعندهم التابعون ومن بعدهم من الأئمة، وما استغاثوا عند قبر صحابي قط ولا استسقوا عنده ولا به، ولا استنصروا عنده ولا به.

ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، بل على ما هو دونه ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف تيقن قطعاً أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلاً. بل كانوا ينهون عن ذلك من يفعله من جهالهم كما قد ذكرنا بعضه . فلا يخلو أما أن يكون الدعاء عندها أفضل منه في غير تلك البقعة أو لا يكون، فإن كان أفضل لم يجز أن يخفى علم هذا على الصحابة، والتابعين وتابعيهم، فتكون القرون

الثلاثة الفاضلة جاهلة بهذا الفضل العظيم ويعلمه من بعدهم، ولم يجز أن يعلموا ما فيه من الفضل ويزهدوا فيه، مع حرصهم على كل خير، لا سيما الدعاء. فإن المضطر يتشبث بكل سبب؛ وإن كان فيه نوع كراهة. فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء ـ وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور ـ ثم لا يقصدونه؟ هذا محال طبعاً وشرعاً. وإن لم يكن الدعاء عندها أفضل كان قصد الدعاء عندها ضلالة ومعصية، كما لو تحرى الدعاء وقصده عند أي بقعة من البقاع التي لا فضيلة الدعاء عندها كشطوط البحار ومغارس الأشجار وحوانيت الأسواق وجوانب الطرق وما لا يحصى عدده إلا الله، وهذا قد دل عليه كتاب الله في غير موضع كقوله تعالى ﴿٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ فإذا لم يشرع الله سبحانه الدعاء عند المقابر، فمن شرعه فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله. وقد قال تعالى ﴿٧ : ٣٢ قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ وهذه العبادة عند المقابر نوع من شرع ما لم ينزل به الله سلطاناً ونوع من شرك ما لم ينزل الله به سلطاناً لأن الله لم ينزل حجة تتضمن استحباب قصد الدعاء عند القبور. ومن جعل ذلك من دين الله فقد قال على الله ما لا يعلم وما أحسن قول الله تعالى ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ لئلا يحتج بالمقاييس والحكايات.

فإن قيل: قد نقل عن بعضهم أنه قال: قبر معروف الترياق المجرب. وروى عن معروف أنه أوصى ابن أخيه أن يدعو عند قبره. وذكر أبو علي الخرقي في قصص من هجره أحمد رضي الله عنه: أن بعض المهجورين كان يجيء إلى قبر أحمد ويتوخى الدعاء عنده ونقل عن جماعات أنهم دعوا عند

قبور جماعات من الأنبياء والصالحين من أهل البيت وغيرهم. فاستجيب لهم الدعاء وعلى هذا عمل كثير من الناس. وقد ذكر المصنفون في مناسك الحج: إذا زار قبر النبي ﷺ فإنه يدعو عنده. وذكر بعضهم أن من صلى عليه سبعين مرة عند قبره ودعا استجيب له. وذكر بعض الفقهاء في حجة من يجوّز القراءة على القبر أنها بقعة يجوز السلام والدعاء والذكر عندها. فجاز القراءة عندها كغيرها. وذكر بعضهم منامات في الدعاء عند قبر بعض الأشياخ. وجرب قوم استجابة الدعاء عند قبور معروفة؛ كقبر الشيخ أبي الفرج الشيرازي المقدسي وغيره. وقد أدركنا في أزماننا وما قاربها من ذوي الفضل علماً وعملاً من كان يتحرى الدعاء عندها؛ والعكوف عليها وفيهم من كان بارعاً في العلم وفيهم من كان له كرامات. فكيف يخالف هؤلاء؟

وإنما ذكرت هذا السؤال مع بعده عن طريق العلم والدين لأنه غالباً ما يتمسك به القبوريون.

قلت: الله أكبر كيف يؤخذ هذا بدلاً عن نصوص الكتاب والسنة ﴿٢: ١٦ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ وقد أحسن من قال:

تخالف الناس فيما قد رأوا ورووا وكلهم يدعون الفوز بالظفر
فخذ بقول يكون النص ينصره إما عن الله أو عن سيد البشر

ثم قال رحمه الله تعالى: قلنا الذي ذكرناكراهته لا ينقل في استحبابه فيما علمناه شيء ثابت عن القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ حيث قال «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم؛ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»

مع شدة المقتضى فيهم لذلك. فلو كان فيه فضيلة. فعدم أمرهم وفعلهم لذلك مع قوة المقتضى لو كان فيه فضل يوجب القطع بأنه لا فضل فيه ـ إلى أن قال ـ وإذا اختلف المتأخرون فالفاصل بينهم هو الكتاب والسنة وإجماع المتقدمين نصاً واستنباطاً. فكيف والحمدلله لا ينقل هذا عن إمام معروف ولا عالم متبع، بل المنقول في ذلك إما أن يكون كذباً على صاحبه، مثل ما حكى بعضهم عن الشافعي أنه قال: إذا نزلت بي شدة أجيء فادعو عند قبر أبي حنيفة فأجاب، أو كلاماً هذا معناه. وهذا كذب معلوم كذبه بالاضطرار عند من له معرفة بالنقل. فإن الشافعي لما قدم بغداد لم يكن ببغداد قبر ينتاب للدعاء عنده البتة، بل ولم يكن هذا على عهد الشافعي معروفاً. وقد رأى الشافعي بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر من قبور الأنبياء والصحابة والتابعين من كان أصحابها عنده وعند المسلمين أفضل من أبي حنيفة وأمثاله من العلماء. فما له لم يتوخ الدعاء إلا عنده، ثم أصحاب أبي حنيفة الذين أدركوه مثل أبي يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد وطبقتهم لم يكونوا يتحرون الدعاء لا عند قبر أبي حنيفة ولا غيره، ثم قد تقدم عن الشافعي ما هو ثابت في كتابه من كراهة تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة بها. وإنما يضع مثل هذه الحكايات من يقل علمه ودينه.

وأما أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يعرف. ونحن لو روى ناقل لنا مثل هذه الحكايات المسيبة أحاديث عمن لا ينطق عن الهوى لما جاز التمسك بها حتى تثبت بنقل غيره من العدول. فكيف بالمنقول عن غيره ﷺ؟.

ومنها ما قد يكون صاحبه قاله أو فعله باجتهاد أخطأ فيه؛ أو قاله بقيود أو شروط كثيرة على وجه لا محذور فيه. فحرف النقل عنه. كما أن النبي لما

اذن في زيارة القبور بعد النهي فهم المبطلون أن ذلك هو الزيارة الشركية التي يفعلونها من حجها للصلاة عندها والاستغاثة بها.

ثم سائر هذه الحجج دائرة بين نقل لا يجوز إثبات الشرع به أو قياس لا يجوز استحباب العبادات بمثله، مع العلم بأن الرسول لم يشرعها. وتركه فعل ذلك مع قيام المقتضى للفعل بمنزلة فعله. ولا يثبت العبادات بمثل هذه الحكايات والمقاييس من غير نقل عن الأنبياء إلا النصارى وأمثالهم، وإنما المتبع في إثبات الأحكام: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسبيل السابقين الأولين، لا يجوز إثبات حكم شرعي بدون هذه الأصول الثلاثة نصاً واستنباطاً بحال.

والجواب من وجهين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فالنقض. فإن اليهود والنصارى عندهم من الحكايات والقياسات من هذا النمط كثير، بل المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كانوا يدعون عند أوثانهم فيستجاب لهم أحياناً كما قد يستجاب لهؤلاء أحياناً وفي وقتنا هذا عند النصارى من هذا طائفة . فان كان هذا وحده دليلا على أن الله يرضى ذلك ويحبه فليطرد الدليل . وذلك كفر متناقض .

ثم إنك تجد كثيراً من هؤلاء يستغيثون عند قبر أو غيره، كل منهم قد اتخذ له وثناً أحسن به الظن وأساء الظن بغيره. وكل منهم يزعم أن وثنه يستجاب عنده ولا يستجاب عند غيره. فمن المحال إصابتهم جميعاً، وموافقة بعضهم دون بعض تحكم، وترجيح بلا مرجح. والتدين بدينهم جميعاً جمع بين الأضداد. فإن أكثر هؤلاء إنما يكون تأثيرهم فيما يزعمون بقدر إقبالهم على وثنهم وإنصرافهم عن غيره. وموافقتهم جميعاً فيما يثبتونه دون ما ينفونه

يضعف التأثير على زعمهم فإن الواحد إذا أحسن الظن بالإجابة عند هذا وهذا وهذا لم يكن تأثيره مثل تأثير الحسن الظن بواحد دون واحد آخر. وهذه كلها من خصائص الأوثان.

ثم قد استجيب لبلعم بن باعورا في قوم موسى وسلبه الله الإيمان، والمشركون قد يستسقون فيسقون ويستنصرون فينصرون.

قلت: وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله إنما يقع لهم استدراجاً كما قال تعالى ﴿ ٧: ١٨٢، ١٨٣ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين﴾ وقال تعالى ﴿ ٦: ٤٤ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بماأوتواأخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى: وأما الجواب المفصل فنقول:

مدار هذه الشبه على أصلين: منقول، وهو ما يحكى عن بعض الأعيان ممن فعل هذا الدعاء. ومعقول، وهو ما يعتقد من منفعته بالتجارب والأقيسة بزعمهم.

فأما النقل في ذلك فأما كذب أو غلط، أو ليس بحجة، بل قد ذكرنا النقل عمن يقتدي به بخلاف ذلك.

وأما المعقول فنقول: عامة المذكور من المنافع كذب. فإن هؤلاء الذين يتحرون الدعاء عند القبور وأمثالها إنما يستجاب لهم في النادر؛ بل يدعو الرجل منهم ما شاء الله من دعوات فيستجاب له في واحدة ويدعو خلق كثير منهم فيستجاب للواحد بعد الواحد. وأين هذا من الذين يتحرون الدعاء في أوقات الإسحار، ويدعون الله في سجودهم وأدبار صلواتهم، وفي بيوت

الله؟ فإن هؤلاء إذا ابتهلوا لربهم من جنس ابتهال المقابريين لم تكد تسقط لهم دعوةٌ إلا لمانع؛ بل الواقع أن الابتهال الذي يفعله المقابرون إذا فعله المخلصون لم يرد دعاء المخلصين إلا نادراً. ولم يستجب للمقابريين إلا نادراً. والمخلصون كما قال النبي ﷺ «ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله فيها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل الله له دعوته، أو يؤخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا يا رسول الله إذن نكثر قال: الله أكثر» فهم في دعائهم لا يزالون بخير، وجميع الأمور التي يظن أن لها تأثيراً في العالم. وهي محرمة في الشرع، كالتمريجات الفلكية؛ والتوجيهات النفسانية، كالعين والدعاء المحرم؛ والرقي المحرمة والتمريجات الطبيعية ونحو ذلك. فإن مضرتها أكثر من منفعتها. حتى في نفس ذلك المطلوب. فإن هذه الأمور لا يطلب بها غالباً إلا أموراً دنيوية فقل إن حصل لأحد بسببها أمر دنيوي إلا كانت عاقبته فيه في الدنيا عاقبة خبيثة، دع الآخرة. ثم إن فيها من النكد والضرر ما الله به عليم فهي نفسها مضرة؛ ولا يكاد يحصل الغرض بها إلا نادراً. وإذا حصل فضرره أكثر من منفعته. والأسباب المشروعة في حصول هذه المطالب المباحة أو المستحبة؛ سواء كانت طبيعية كالتجارة والحراثة، أو كانت دينية كالتوكل على الله والثقة به. وكدعاء الله سبحانه على الوجه المشروع في الأمكنة والأزمنة التي فضلها الله ورسوله بالكلمات المأثورة عن إمام المتقين ﷺ، والصدقة وفعل المعروف يحصل به الخير المحض أو الغالب. وهذا الأمر كما أنه قد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع فهو أيضاً معقول بالتجارب المشهورة والأقيسة الصحيحة. فان الصلاة والزكاة يحصل بهما خير الدنيا والآخرة، ويجلبان كل خير ويدفعان كل شر فهذا الكلام في بيان أنه لا يحصل بتلك الأسباب المحرمة لا خير

محض ولا غالب. ومن كان له خبره بأحوال العالم وعقل تيقن ذلك يقيناً لا شك فيه. إذا ثبت ذلك فليس علينا من سبب التأثير أحياناً فإن الأسباب التي يخلق الله بها الحوادث في الأرض والسماء لا يحصيها على الحقيقة إلا هو. أما أعيانها فبلا ريب. وكذلك أنواعها أيضاً لا يضبطها المخلوق؛ لسعة ملكوت الله سبحانه وتعالى. ولهذا كانت طريقة الأنبياء عليهم السلام أنهم يأمرون الخلق بما فيه صلاحهم، وينهونهم عما فيه فسادهم ولا يشغلونهم بأسباب الكائنات كما تفعل الفلاسفة. فإن ذلك كثير التعب قليل الفائدة أو موجب للضرر ومثل النبي مثل طبيب دخل على مريض فرأى مرضه فعرفه فقال له: اشرب كذا واجتنب كذا فإذا فعل المريض ذلك حصل له غرضه من الشفاء. أما المتفلسف فيطول معه الكلام في سبب ذلك المرض وصفته وذمة وذم ما أوجبه. ولو قال له المريض: ما الذي يشفيني لم يكن له بذلك علم تام.

والكلام في بيان تأثير بعض هذه الأسباب قد يكون فيه فتنة لمن ضعف عقله ودينه، بحيث يختطف عقله فيتأله إذا لم يرزق من العلم والإيمان ما يوجب له الهدى واليقين. ويكفي العاقل أن يعلم أن ما سوى المشروع لا يؤثر بحال. فلا منفعة فيه أو إنه إن أثر فضرره أكثر من نفعه ثم سبب إجابة دعاء بعض هؤلاء المعتدين ليس هو القبر أو الاستغاثة بالمقبور، إنما هو شدة اضطرار الداعي ولو دعا الله وحده على الوجه الذي يرضيه سبحانه بهذا الدعاء لاستجاب له، لصدق توجهه إلى الله وشدة فاقته، فاستجابة دعاء هذا المشرك لا تمنع من عقوبة الله له وغضبه عليه لشركه واستغاثته ووثنيته ويهوى به ذلك في النار وتحرم عليه الجنة. كما لو طلب من الله ما يكون فتنة له. كما أن ثعلبة لما سأل النبي ﷺ أن يدعو له بكثرة المال ونهاه ﷺ عن

ذلك مرة بعد مرة، فلم ينته حتى دعا له، فكان ذلك سبب شقائه في الدنيا والآخرة[1] وكم من عبد دعا دعاء غير مباح فقضيت حاجته في ذلك الدعاء، فكان سبب هلاكه في الدنيا والآخرة. كأقوام ناجوا الله في دعواتهم بمناجاة فيها جرأة على الله واعتداء لحدوده، وأعطوا طلبتهم فتنة؛ ولما يشاء الله سبحانه. بل أشد من ذلك. ألست ترى السحر والطلمسات والعين، وغير ذلك من المؤثرات في العالم بإذن الله؟ قد يقضي بها كثير من أغراض النفوس. ومع هذا فقد قال تعالى ﴿ ٢: ١٠٢ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ـ إلى قوله ـ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ ـ إلى أن قال رحمه الله:

ومن هنا يغلط كثير من الناس: يبلغهم أن بعض الأعيان عبدوا عبادة أو دعوا دعاء وجدوا أثر تلك العبادة والدعاء، فيجعلون ذلك دليلاً على استحباب ذلك فيجعلونه سنة كأنه قد فعله نبي. وهذا غلط. وقد علمت جماعة ممن سأل حاجته من بعض المقبورين من الأنبياء والصالحين. ـ إلى أن قال:

---

(١) هو ثعلبة بن حاطب الأنصاري. روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة قال لرسول الله ﷺ «ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. ثم سأل مرة أخرى فقال رسول الله: أما ترضى أن تكون مثل رسول الله؟ فوالله الذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت. قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني ما لا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ اللهم أرزق ثعلبة مالاً. قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود. فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها حتى ترك الصلوات، ثم نمت حتى ترك الجمعة، ومازال يزداد فتنة حتى منع الزكاة فأنزل الله ﴿ ٩: ٧٨ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ فبلغ ذلك ثعلبة. فبعث بصدقته إلى رسول الله فقال ﷺ: أن الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال له رسول الله: هذا عملك. قد أمرتك فلم تطعني فمات رسول الله ولم يقبض صدقته ثم أتى بها أبا بكر، فأبى أن يقبلها وأبى عمر وعثمان أن يقبلاها» وقد ذكر ابن كثير حديثه في تفسير قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله ـ الآيات من سورة التوبة.

وليس ذلك بشرع يتبع ولا سنة، وإنما يثبت استحباب الأفعال واتخاذها ديناً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وما كان عليه السابقون الأولون. وما سوى ذلك من الأمور المحدثة فلا يستحب. وإن اشتملت أحياناً على فوائد، لأنا نعلم أن مفاسدها راجحة على فوائدها - إلى أن قال:

ثم من غرور هؤلاء وأشباههم: أن يحسبوا أن استجابة مثل هذا الدعاء كرامة من الله تعالى. وليس هو في الحقيقة كرامه. وإنما الكرامة في الحقيقة: ما نفعت في الآخرة أو نفعت في الدنيا ولم تضر في الآخرة، وهذه الاستجابة إنما هي بمنزلة ما ينعم به الكفار والفساق من الرياسات والأموال. ولهذا اختلف أصحابنا وغيرهم من العلماء: هل ما ينعم به الكافر نعمة، أم ليس بنعمة؟ وإن كان الخلاف لفظياً.

قال تعالى ﴿٢٣: ٥٥، ٥٦ أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات؟ بل لا يشعرون﴾ وقال ﴿٦: ٤٤ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ وفي الحديث «إذا رأيت الله ينعم على العبد مع إقامته على معصيته فإنما هو استدراج يستدر جه به» إلى أن قال:

ومن رحمه الله تعالى أن الدعاء المتضمن شركا، كدعاء الميت أن يفعل أو دعائه أن يدعو الله ونحو ذلك. لا يحصّل غرض صاحبه ولا يورث حصول الغرض إلا في الأمور الحقيرة. فأما الأمور العظيمة كأنزال الغيث عند القحوط أو كشف العذاب النازل. فلا ينفع فيه هذا الشرك. كما قال تعالى ﴿٦: ٤٠، ٤١ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله

تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون. فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ ١٧ : ٦٧ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ وقال تعالى ﴿ ٢٧ : ٦٢ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ وقال تعالى ﴿ ١٧ : ٥٦، ٥٧ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ـ إلى قوله ـ محذوراً ﴾ وقال تعالى ﴿ ٣٩ : ٤٣، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ فكون هذه المطالب العظيمة لا يستجيب فيها إلا هو سبحانه دل على توحيده، وقطع شبهة من أشرك به. وعُلم بذلك أن مادون هذا أيضاً من الإجابات إنما فعله هو وحده لا شريك له. وإن كانت تجري بأسباب محرمة أو مباحة كما أن خلقه السموات والأرض والرياح والسحاب وغير ذلك من الأجسام العظيمة، دال على وحدانيته سبحانه وأنه خالق كل شيء وأن مادون هذا بأن يكون خلقاً له أولى إذ هو منفعل عن مخلوقاته العظيمة. فخالق السبب التام خالق للمسبب لا محالة.

وجماع الأمر: أن الشرك نوعان: شرك في ربوبيته، بأن يجعل لغيره معه تدبيراً ما، كما قال سبحانه ﴿ ٣٤ : ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ﴾ فبين أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالاً، ولا شركة لهم معه في شيء من ذلك، ولا يعينونه على ملكه. ومن لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً فقد انقطعت علاقته.

وشرك في الآلهية: بأن يدعي غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة؛ كما قال

تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فكما أن إثبات المخلوقات أسباباً لا يقدح في توحيد الربوبية ولا يمنع أن يكون الله خالق كل شيء، ولا يوجب أن يدعي المخلوق دعاء عبادة أو دعاء استغاثة، كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أو غيره، أسباباً لا تقدح في توحيد الإلهية؛ ولا يمنع أن يكون الله هو الذي يستحق الدين الخالص. ولا يوجب أن يستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك، إذا كان الله يسخط ذلك ويعاقب العبد عليه. ويكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعته إذ قد جعل الخير كله في أن لا نعبد إلا إياه ولا نستعين إلا إياه. وعامة آيات القرآن تثبت هذا الأصل، حتى إنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه كقوله سبحانه (٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وكقوله سبحانه ﴿ ٦ : ٥١ وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ وقوله تعالى ﴿ ٦ : ٧٠ وذكر به إن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ﴾ وقوله تعالى ﴿ ٦ : ٧١ قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله؟ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ ٦ : ٩٤ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ـ إلى قوله ـ وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وقوله ﴿ ٣٢ : ٤ ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ وسورة الأنعام سورة عظيمة مشتملة على أصول الإيمان وهدم كل ما أقام الشيطان من حجج واهية للشرك. وكذلك قوله ﴿ ٣٩ : ٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقوله ﴿ ٣٩ : ٤٣، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ وسورة الزمر أصل عظيم في هذا. ومن هذا قوله تعالى ﴿ ٢٢ : ١١ ومن الناس من يعبد الله على حرف إلى قوله

ـ ولبئس العشير﴾ وكذلك قوله ﴿ ٢٩ : ٤١ مثل الذين اتخذوا من دونه أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً إلى قوله لو كانوا يعلمون ﴾ والقرآن عامته إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم الذي هو أصل الأصول.

وهذا الذي ذكرناه كله في تحريم هذا الدعاء ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة إلا غبي فإن هذا من التشبه بأهل الكتاب الذي أخبرنا النبي ﷺ أنه كائن في هذه الأمة.

وأصل ذلك: إنما هو اعتقاد فضل الدعاء عندها، وإلا فلو لم يقم هذا الاعتقاد بالقلوب لا إنمحى ذلك كله فإذا كان قصدها للدعاء قد جر هذه المفاسد التي قوضت أركان الإيمان وهدمت التوحيد فهو أولى بالنهي والتحريم من الصلاة التي ثبت النهي عنها وتحريمها في الأحاديث المتواترة فإن إقامة المساجد عليها وبناء القباب قد جر الناس إلى أعظم فتنة وقد فتح باب الشرك على مصراعيه وأغلق باب الإيمان.

فصـــل

وقال شيخ الإسلام أيضاً: ومن المحرمات العكوف عند قبره، والمجاورة عنده، وسدانته، وتعليق الستور عليه. كأنه بيت الله الكعبة. وقد بينا أن نفس بناء المسجد عليه منهى عنه باتفاق الأمة. محرم بدلالة السنة. فكيف إذا ضم إلى ذلك المجاورة في ذلك المسجد. والعكوف فيه كأنه المسجد الحرام؟ بل عند بعضهم العكوف فيه أحب من العكوف في المسجد الحرام. إذ من الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله. والذين آمنوا أشد حباً لله، بل حرمة ذلك المسجد المبني على القبر الذي حرمه الله ورسوله، أعظم عند المقابريين من بيوت الله التي أذن الله أن ترفع ويذكر

فيها اسمه. وقد أسست على تقوى من الله ورضوان. وقد بلغ الشيطان بهذه البدع إلى الشرك العظيم من كثير من الناس حتى إن منهم من يعتقد أن زيارة المشاهد التي على القبور إما لنبي أو شيخ أو بعض أهل البيت: أفضل من حج البيت الحرام. ويسمى زيارتها الحج الأكبر. ومنهم من يرى أن السفر لزيارة قبر النبي ﷺ أفضل من حج البيت؛ وبعضهم إذا وصل إلى المدينة رجع، وظن أنه حصل له المقصود. وهذا لأنهم ظنوا أن زيارة القبور لأجل الدعاء عندها والتوسل بها، وسؤال الميت ودعائه. ولهذا كثير من هؤلاء يسأل الميت والغائب كما يسأل ربه فيقول: اغفر لي وارحمني وتب علي ونحو ذلك. وكثير من الناس تمثل له صورة الشيخ المستغاث به، ويكون ذلك شيطاناً قد خاطبه، كما تفعل الشياطين بعبدة الأصنام والأوثان.

وأعظمُ من قصد الصلاة عنده النذر له أو للسدنة المجاورين عنده من أقاربه أو غيرهم، واعتقاد أنه بالنذر له تقضي الحاجة ويكشف البلاء

واعلم أن أهل القبور المدفونين من الأنبياء والصالحين يكرهون مايفعل عندهم كل الكراهة، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعل النصارى به، وكما كان أنبياء بني إسرائيل يكرهون ما يفعله الاتباع. فلا يحسب المرء المسلم أن النهي عن اتخاذ القبور أعياداً وأوثاناً فيه غض من قدر أصحابها، بل هو من باب إكرامهم. وذلك أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن ولا بد؛ فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن سنة ذلك المقبور وطريقته، مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا اليه ومن كرامة الأنبياء والصالحين أن يتبع ما دعوا إليه من العمل الصالح، ليكثر أجرهم بكثرة أجور من تبعهم، كما قال ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء» وإنما اشتغلت طوائف

من الناس بنوع من العبادات المبتدعة لأعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه؛ عاقلاً لما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح؛ فاهتم بها كل الاهتمام أغنته عن كل ما يتوهم فيه خير من جنسها من البدع المحدثة. ومن أصغى إلى كلام الله ورسوله بعقله وتدبره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة والخير في دينه ودنياه ما لا يجده في شيء غيره من الكلام. ومن اعتاد الدعاء المشروع في أوقاته كالاسحار وأدبار الصلوات والسجود أغناه عن كل دعاء مبتدع. فعلى العاقل أن يجتهد في إتباع السنة في كل شيء فإنه «من يتحرى الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه».

فصـــل

ثم ذكر رحمه الله تتبع آثار الأنبياء وما ذهب إليه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من النهي عن ذلك. وذكر أنه قطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ بيعة الرضوان، وذكر عن محمد بن وضاح قال: كان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار التي بالمدينة، ما عدا قباء وأحداً ـ إلى أن قال: لأن ذلك يشبه الصلاة عند المقابر، إذ هو ذريعة إلى اتخاذها أعياداً أو إلى التشبه بأهل الكتاب. وما فعله ابن عمر لم يوافقه عليه أحد من الصحابة، فلم ينقل عن أحد من الخلفاء الراشدين ولا غيرهم من المهاجرين والأنصار، أنه كان يتحرى قصد الأمكنة التي نزلها النبي ﷺ. والصواب مع جمهور الصحابة. لأن متابعة النبي ﷺ تكون بطاعة أمره وتكون في فعله بأن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعله. فإذا قصد العبادة في مكان كان قصد العبادة فيه متابعة

له، كقصد المشاعر والمساجد وأما إذا نزل في مكان بحكم الاتفاق، لكونه صادف وقت النزول أو غير ذلك ـ مما نعلم يقيناً أنه ﷺ لم يكن يتحرى هذا المكان أو الزمان ويقصد إليه ـ فهذا لم ينقل عن غير ابن عمر من الصحابة، بل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ الذين كانوا أفقه من ابن عمر وأحرص منه على اتباع النبي ﷺ ـ سائر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا يذهبون من المدينة وغيرها إلى مكة حجاجاً أو عماراً أو مسافرين ولم ينقل عن أحد منهم أنه تحرى الصلاة في مصليات النبي ﷺ في الطريق ولا في غيره. ومعلوم أن هذا لو كان عندهم مستحباً لكانوا إليه أسبق. فإنهم أعلم الناس بسنته وأتبع لها من غيرهم. وقد قال النبي ﷺ «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وتحرى هذا ليس من سنة الخلفاء الراشدين، بل هو مما ابتدع. وقول الصحابي ـ إذا خالفه نظيره ـ ليس بحجة. فكيف إذا انفرد به عن جماهير الصحابة ومنهم من هو أعلم منه وأتقى، وقد نص على اتباع سنته والاقتداء به كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟ وأيضاً فإن تحري الصلاة فيها ذريعة إلى اتخاذها مساجد وإلى التشبه بأهل الكتاب مما نهينا عن التشبه بهم فيه. وذلك ذريعة إلى الشرك بالله. والشارع قد حسم هذه المادة بالنهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وبالنهي عن اتخاذ القبور مساجد.

ثم ذلك يفضي إلى ما أفضت إليه مفاسد القبور. فإنه يقال: إن هذا مقام نبي أو ولي بخبر لا يعرف قائله أو بمنام لا تعرف حقيقته. ثم يترتب على ذلك اتخاذه مساجد فيصير وثناً يعبد من دون الله تعالى: شرك مبني على

إفك. وقد قرن الله تعالى في آي الذكر الحكيم بين الشرك والكذب، كما قرن بين الصدق والإخلاص. فقال على لسان إبراهيم ﴿ ٢٩ : ١٧ انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ﴾ وقال: ﴿ ٣٧ : ٨٦ أئفكاً آلهة دون الله تريدون؟ ﴾ انتهى ما نقلته الصراط المستقيم[1].

وفي هذا القدر المنقول عن شيخ الإسلام كفاية، لأنه واف في المقصود، يكشف ما يلبس به كل مصدود. ولا يرده إلا من استحوذ عليه الشيطان وأنساه ذكر الرحمن وصد عن معرفة الإسلام والإيمان كما قال تعالى ﴿ ٧ : ١٤٦ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً. ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾.

فلله الحمد على بيان الحق وإزاحة الكذب عن الصدق، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا.

وأما العلامة ابن القيم رحمه الله فله في بيان التوحيد وتحقيقه، وكشف ما ينافيه أو يضعفه فصول كثيرة في مصنفاته.

فنذكر من كلامه البعض على نحو ما ذكرنا من كلام شيخه ابن تيمية.

قال رحمه الله تعالى في كتابه الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

فصــــل

عظيم النفع جليل القدر، ينتفع به من عرف نوعي: التوحيد القولي

(١) قد اختصر الشيخ رحمه الله النقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عليه وإلا فقد طول ابن تيمية القول في هذا الموضوع ووفاه حقه وهو جدير بالطول. وقد بدأ شيخ الإسلام القول فيه من صفحة ١٦٢ إلى صفحة ٢٢٢ اي إلى آخر اقتضاء الصراط المستقيم. وهو من أنفس كتب الشيخ وأعظمها نفعاً.

العلمي الخبري، والتوحيد القصدي الإرادي العملي. كما دل على الأول سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ وعلى الثاني سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وكذلك دل على الأول وقوله ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا الآية﴾ وعلى الثاني ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ـ الآية﴾ ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في سنة الفجر وسنة المغرب، فيقرأ بهما في ركعتي الطواف، ويقرأ بالآيتين في سنة الفجر. لتضمنهما التوحيد العلمي والعملي.

والتوحيد العلمي أساسه: إثبات الكمال للرب تعالى؛ ومباينته لخلقه وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل. والتوحيد العملي أساسه: تجريد القصد بالحب والخوف والرجاء؛ والتوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والعبودية بالقلب واللسان والجوارح لله وحده.

فمدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على هذين التوحيدين. وأقرب الخلق إلى الله أقومهم بهما علماً وعملاً. ولهذا كانت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أقرب الخلق إلى الله، وأقربهم إليه وسيلة أولو العزم، وأقربهم الخليلان، وخاتمهم سيد ولد آدم وأكرمهم على الله، لكمال عبوديته وتوحيده لله.

فهذان الأصلان هما قطب رحى القرآن، وعليهما مداره، وبيانهما من أهم الأمور والله سبحانه بينهما غاية البيان بالطرق العقلية والنقلية، والفطرية والنظرية، والامثال المضروبة، ونوّع سبحانه الطرق بإثباتهما أكمل التنويع، بحيث صارت معرفة القلوب الصحيحة والفطر السليمة لهما بمنزلة رؤية الأعين المبصرة التي لا آفة بها للشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء.

فذلك للبصيرة بمنزلة هذه للبصر. فإن راج وقبل تسليط التأويل على التوحيد الخبري العلمي كان تسليطه على التوحيد العملي القصدي أسهل، وانمحت حينئذ رسوم التوحيد، وقامت معالم التعطيل والشرك.

ولهذا كان الشرك والتعطيل متلازمين لا ينفك أحدهما عن صاحبه. وإمام المعطلين المشركين فرعون، فهو إمام كل معطل ومشرك يوم القيامة كما أن إمام الموحدين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام إلى يوم القيامة انتهى.

فأعجب لهذين الإمامين رحمهما الله: كيف تشابهت قلوبهما في العلم والإيمان، وألسنتهما في بيان الحق وإيضاحه، وكشف ما لبس به الملبسون، واعتمده المشركون من المنامات والحكايات التي اغتر بها الجاهلون، وضل بها الأكثرون.

وبما بيناه رحمهما الله وأوضحاه تبين الفرقان بين أهل الشرك وأهل الإيمان، وبه يبطل كل ما زعمه هذا العراقي الماحل الفتان من أكاذيبه التي صادم بها الإيمان والقرآن وحاول طمس نور ما بعث الله به المرسلين من توحيد رب العالمين، وما أنزله في كتابه المبين من قواطع الحجج والبراهين، التي دحضت حجج المشركين والمبطلين كما قال تعالى ﴿ ٢٥ : ٣٣ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ فلقد ترامى بهذا العراقي ما خامره من داء الشرك العضال، حتى هام في كل واد من البهرج والمحال، وأطنب في المماحلة وسيء المقال؛ حتى زعم أن عنده كثير من الأدلة على جواز أنواع الشرك والضلال. وهيهات هيهات. إذ لا صواب ولا هدى إلا فيما نطقت به السنة والكتاب، الذي أنزله الله هدى لأولى الأبصار والألباب؛ (تنزيل من حكيم حميد).

فالدعاء الذي ينازع فيه المبطلون وفيه يلحدون، وبه يشركون: هو من أشرف أنواع العبادة إذا قصر على الله الذي لا يستحقه أحد سواه. وقد قال تعالى ﴿ ١٣ : ١٤ له دعوة الحق ﴾ فهي له وحده ليس لغيره منها ولا مثقال ذرة. ومدلولها الطلب والسؤال كما دل عليه بقية الآية قوله ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ فانكر تعالى على من صرف شيئاً من الدعاء لغيره، وأنه يكون بذلك كافراً. وهو نص في دعاء المسألة بدليل قوله ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ وقد قال تعالى ﴿ ٦ : ٧١ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران إلى قوله ـ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ فتبين بهذه الآية ونظائرها أن كل مدعو من دون الله لا ينفع داعيه ولا يضره، وأن دعوة من يدعي من دونه تنافى الإسلام. لأن أساس الإسلام هو التوحيد والإخلاص. وهذا الشرك ينافيه أشد منافاة، بل يهدمه ويأتي على كل قواعده.

وقد وقع في هذه الأمة من هذا الشرك الذي بينه الله تعالى وبين ضلال من فعله ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة ومعرفة بالإسلام والإيمان. والناصح لنفسه لا يغتر بما زخرفه المشركون ولبس به الملحدون. قال تعالى ﴿ ٦ : ٥٦، ٥٧ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله. قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ﴾ فما أوضحها من آية في بيان أن جل المشركين إنما هو بدعاء من أشركوا مع الله في العبادة.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً: فالخطاب من الله تعالى في كتابه هو حجة بل هو أجلى وجوه الحجاج وأسبقها إلى القلوب، وأعظمها

ملاءمة للعقول، وأبعدها من الشكوك والشبه في أوجز لفظ وأبينه وأعذبه وأحسنه وأشرفه، وأدله على المراد؛ كقوله تعالى فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد وبطلان الشرك، وقطع أسبابه، وحسم مواده كلها ﴿ ٣٤: ٢١، ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾.

فتأمل كيف أخذت هاتان الآيتان على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسد بها عليهم أحكم سد، وأبلغه. فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق به قلبه. وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عباده، أو شريكاً لمالكها، أو ظهيراً أو وزيراً معاوناً، أو وجيهاً ذا حرمة وقدر ينتفع به عند المالك، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه، وبطلت أوضح بطلان انتفت أسباب الشرك؛ وانقطعت مواده. فنفى الله عن آلهتهم ملك مثقال ذرة في السموات أو في الأرض. وقد يقول المشرك: هي شريكة المالك الحق فنفى مشاركتها له. فيقول المشرك: قد يكون ظهيراً. ووزيراً ومعاوناً، فقال (وماله منهم من ظهير) فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها عن آلهتهم وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، وليست الشفاعة عنده سبحانه كشفاعة المقرب أو الوجيه عند الخلق فالمشفوع عنده من ملوك الخلق ورؤسائها يحتاج إلى الشافع ومعونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما الله الذي كل ماسواه فقير إليه بذاته؛ وهو الغني بذاته عن كل ما سواه. فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه سبحانه كانوا يعترفون أنها عبيد له ومماليكه

ومحتاجة إليه. فلو كانوا آلهة كما يقولون لما تقربوا إليه وحده دون غيره. فكيف يعبدونهم دونه وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه بقوله ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ أى هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبيدي، كما أنتم عبيدي يرجون رحمتي كما أنتم ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون أنتم عذابي فلماذا تعبدونهم من دوني؟.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ ٣١ : ١١ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ فلله ما أحلى هذا الكلام وأوجزه وأدله على بطلان الشرك. فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله طولبوا بأن يروه إياه؛ وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً. وقال تعالى ﴿ ١٣ : ١٣ قل من رب السموات والأرض قل الله. قل أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ـ الآية ﴾.

فاحتج لتفرده بالإلهية بتفرده بالخلق وعلى بطلان إلهية ماسواه بعجزهم عن الخلق. وعلى أنه واحد باق قهار. والقهز التام يستلزم الوحدة. فإن الشركة تنافي تمام القهر.

قال تعالى ﴿ ٢٢ : ٧٣ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴾.

فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يسمعه فقد عصى أمره كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان، في أوجز عبارة

وأحسنها وأجلاها وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد، وساعد بعضهم بعضاً وعاونه بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، بل إنهم أضعف وأعجز من الذباب فبين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبه الذباب منهم. فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب؟ فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها؟ فأقام سبحانه حجة التوحيد؛ وبين إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب الألفاظ وأحسنها، لم يستكرهها غموض ولم يشبها تطويل. ولم يعبها تعقيد، ولم يزدرها زيادة ولا تنقيص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها. وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشريف البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ. انتهى من الصواعق المرسلة.

وقال رحمه الله تعالى: والشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله تعالى وحده. فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتا ولا حياة ولا نشورا شبيها بمن له الخلق كله، وبيده الخير كله. وإليه يرجع الأمر كله فأزمّة الأمور كلها بيده سبحانه، ومرجعها إليه. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا مانع لما أعطى؛ ولا معطى لما منع. الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء

والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار. وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده. ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره. فمن فعل ذلك بغيره فقد شبه الغير بمن لا شبيه له. ولا مثل له ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله فلهذه الأمور وغيرها أخبر الله سبحانه أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

هذا معنى كلام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى.

وأما ما يزعمه هذا العراقي من أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد وفاته مجمع عليه.

فالجواب أن أقول: الله أكبر وما أعظمها من فرية على الله، وعلى كتابه وعلى رسوله ﷺ وعلى السلف وأئمة الدين. فانظر إلى هذه الجرأة العظيمة جعل ما أجمع عليه الرسل والكتب والسلف والمسلمون من تحريم دعاء غير الله وتشديد النهي عنه وعن اتخاذ الشفعاء، جعل ذلك المحرم أشد التحريم مجمعاً على جوازه. فعكس الإجماع على عادته في قلب الحقائق، وحمل كل لفظ على عكس مدلوله كما ترى كثيراً في كلامه وبهرجه. قال تعالى ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم، إن ٦ : ١٤٤

---

(١) قال الشيخ حامد الفقي :
تعليق ذلك أن لآية تخبر عن الذين يحرمون من الحرث والأنعام ما لم يحرم الله . فيقولون : هذه الشاة وهذا الطعام، وهذه النقود نذر للولي الفلاني فلا تذبح الشاة إلا في وقت معين؛ ومكان خاص سمي باسم هذا الولي؛ واتخذ هذا الزمان والمكان عيداً لهذا الولي باسم «المولد» ولا يأكل الطعام إلا سدنة هذا الولي والعاكفون عند الصنم المقام على قبره، ولا تنفق النقود ويتصرف فيها الأسدنة هذا الصنم بعد أن تنال البركة الشيطانية بوضعها في صندوق النذور، وكل ذلك وغيره من هذا الباب الشركي كثير يروجه سدنة هذه الأصنام ويؤلفون له الرسائل والكتب لتتسع دنياهم الخبيثة ويملؤا بطونهم من هذا السحت الذي يبغضه الله ويمقته أشد المقت، ويفترون الأكاذيب على الله وعلى رسوله وعلى أولئك ←

الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فما أشبهه بمن قال الله هذه الآية ونحوها فيهم [1].

وما ذكره من هذا الاجماع باطل من وجوه.

الوجه الأول: أن الله نهى نبيه ﷺ أن يدعو أحداً من دونه. ووجّه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الأمر في مواضع من كتابه، تعظيماً لهذا المنهى عنه. وأمر نبيه ﷺ أن يبلغه أمته. فقال (٤٠ : ٦٦ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين) وهذا عام يتناول كل مدعو، حتى الأنبياء والملائكة والصالحين، كما قال تعالى ﴿١٧ : ٥٦ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ اتفق المفسرون والأئمة أن هذه الآية نزلت فيما يدعو الأنبياء والصالحين والملائكة فانظر إلى هذا التهديد والوعيد الشديد فيمن يدعو مع الله غيره من الأنبياء والملائكة والصالحين. فمن المحال أن يرضى رسول الله ﷺ بفعل مانهاه الله تعالى عنه: من دعوة غير الله. ومن ادعى ذلك فقد افترى على الله وعلى رسوله بما لم ينزل الله به سلطاناً.

← الموتى الذين اتخذوهم متجراً خاسراً؛ واستغلوهم لهذا السحت الخبيث فتخصيص ذبح الشاة بوقت أو مكان معين وتخصيص الطعام منها أو من غيرها الحرث، كل ذلك شرح دين لم يأذن به الله. وقد اتخذه العوام والطغام ديناً يدينون به ويحرصون عليه أشد من حرصهم على ما جاء به رسول الله ﷺ فترى مساجد الله معطلة لا يقيم فيها الجماعة إلا النفر القليل، أما المعابد المقامة عند هذه الطواغيث فما أكثر من يؤمها؛ ويكعف فيها اليوم كله وبالأخص أيام أعياد هذه الطواعيث يزدحم بأولئك الأنعام حتى تكون كمرابض الابل والغنم؛ وهم أحرص على هذه الموالد أشد من حرصهم على الحج إلى بيت الله، بل أشد من حرصهم على الصلاة والزكاة. وكل ذلك من رواج هذا الإفك الذي أفكه شيوخ السوء من شياطين الإنس بوحي من شياطين الجن. فضل العامة والجماهير الغفيرة بغير علم ولا هدى وعادوا إلى شر من وثنية الجاهلية الأولى. فلن يهديهم الله إلى خير ولا سعادة ولا نجاة من عدوهم من شياطين الجن والإنس وعدوهم من الأوروبيين والنصارى واليهود. ولن تعود إليهم العزة التي كانت للمسلمين الاولين مهما سلكوا الطرق وأخذوا كل السبل. لأنهم غيروا دينهم وبدلوا نعمة الله كفراً، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً حتى يتوبوا إلى الله من هذه الوثنية ويعودوا إلى الإسلام.

ومن المحال أيضاً في حق من بلغه القرآن من سلف الأمة وأئمتها أن يرضى أن تقلب حقيقة الدين التي أحقها الله في كتابه: من تحريم الشرك بدعوة الأموات والغائبين، وتعلق القلوب في خصائص الإلهية بغير رب العالمين وهذا هو الباطل المحض، والاجتراء على الله وعلى كتابه وعلى رسوله ﷺ.

سبحان الله كيف يخفي هذا على من سمعه وكيف تخفى حال من وضعه على هذا الوضع وبدل دين الله، وأقام الشرك مقام التوحيد، والتوحيد مقام الشرك.

وهذا القول ينبيك عن فساد ما سوّد به ابن جرجيس القرطاس من وسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس.

وما قاله هذا العراقي المفتري من قلبه الحقائق يشبه ما ذكره المفسرون عن اليهود في معنى قول الله تعالى ﴿ ٢: ٥٧ ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ يجعلون الحلال حراماً والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً.

ومما أشبه اليهود فيه أيضاً استحلال ماحرمه الله تعالى في كتابه من دعوة غير الله والاستغاثة بمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. كما قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ٧٢: ٢١، ٢٢ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً. قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ الآية وكان النبي ﷺ إذا اجتهد في اليمين قال «والذي نفسي بيده» وهو صلوات الله وسلامه عليه أكمل الخلق عبودية لربه وتذللاً وخضوعاً، يحب ما يحبه الله ويكره ما يكره مولاه، وقد أرشد ابن عمه عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن يقصر سؤاله على الله تعالى فقال «وإذا سألت فاسأل الله» وذلك لكونه من أفضل العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله. وما قال ﷺ يوماً

لأحد: إسألني وإستغث بي بل قال «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله».

الوجه الثاني: أن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، من الصحابة حتى من هو أفضل منه من الخلفاء الراشدين، ومن في طبقته كابن عمر وغيره؛ ومن دونهم: لم يعهد عن أحد منهم أنه أتى إلى قبر النبي ﷺ وقال: يا رسول الله اشفع لي أو أسألك الشفاعة. ولو كان خيراً لسبقوا إليه. ولما أجدبوا خرج عمر فاستسقى بالعباس عم النبي ﷺ وجعله إماماً يدعو ويؤمنون فقال «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فأسقنا فيسقون» فسبحان الله كيف يجوز على أفضل الصحابة بعد أبي بكر أن يعدل عن النبي ﷺ في التوسل في حال الحاجة والضرورة إلى عمه العباس ـ وهو يعلم تمام العلم أن الرسول ﷺ لم تنقص درجته عند ربه بموته ـ إذا كان يعلم أن ذلك جائزاً في حق الرسول بعد موته، وأنه مشروع للمسلمين التوسل بجاهه بعد موته، كما كان مشروعاً التوسل بدعائه ﷺ في حياته. هل يمكن أن يكون ذلك جائزاً ويتركه عمر، ويعدل عنه إلى الاستسقاء بالعباس؟ هذا محال من أشد المحال.

هذا والسابقون الأولون متوافرون، لم ينكر ذلك أحد منهم على عمر. ولو كان التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته عندهم جائز لما جاز على عمر والسابقين الأولين أن يعدلوا عنه إلى العباس.

والميت قد غاب عن الدنيا وأهلها وأفضى إلى الذي بيده ملكوت السموات والأرض، وفي سؤال الميت تنزيل له منزلة علام الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. وفيه تشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الآلهية وهي تجريد القصد والإرادة والطلب والنية لله وحده كما قال

تعالى ﴿ ٣١ : ٢٢ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ وهي «لا إله إلا الله» وقال تعالى ﴿ ٤ : ١٢٥ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وإتبع ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ «والحنيف»[١] هو المقبل على الله المعرض عن كل ماسواه.

والمقصود أن من أقبل على غير الله بقلبه ووجهه ولسانه وسائر جوارحه، رغبة ورهبة إليه. فقد أعرض عن الله لذلك القصد والإرادة. وقد قال تعالى ﴿ ٦ : ١٦٢ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ﴾ فإن كانت الصلاة الشرعية هي مدلول الآية فقد تضمنت نوعي الدعاء: دعاء المسألة، ودعاء العبادة. فالصلاة لا تصلح إلا باجتماعهما فيها، ومعلوم أن ما إشتملت عليه الصلاة الشرعية فهو عبادة، تعبد الله به العباد. وكذلك قوله «ومحياي ومماتي» فما أبقت هذه الآية في العبد نصيباً لغير الله في كل ما يحبه ويرضاه.

وقد تقرر هذا التبيان من محكم القرآن فيما أسلفته في أول هذا الجواب ولله الحمد والمنة وبه الحول والقوة.

ولا ريب أن اتخاذ الشفعاء والتوجه إليهم بالقلب واللسان ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده. وقد قال تعالى ﴿ ٦ : ٥١ وأنذر الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ أخبر تعالى أن النذارة بالقرآن لا ينتفع بها إلا من تخلى عن الشفعاء في دار العمل، وعلق رغبته ورهبته وسؤاله وطلبه بمن له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله؛

---

(١) قال الراغب في مفرداته: الحنف: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة والجنف: ميل عن الاستقامة إلى الضلال. والحنيف هو المائل إلى ذلك. والأحنف من في رجله ميل. قيل سمي بذلك على التفاؤل وقيل بل أستعير لامجرد الميل.

وإليه يرجع الامر كله. وهذا هو الذي دعا إليه رسول الله ﷺ وفي تحقيقه وتقريرة من الآيات ما لا يحصى.

فمن تدبر القرآن والسنة عرف أن النبي ﷺ حَمي حِمى التوحيد وأبطل وسائل الشرك، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي رواه الطبراني أنهم لما قال بعض الصحابة لبعض «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق قال النبي ﷺ: إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله» فهذا في حال حياته ﷺ نهاهم عن الاستغاثة به سداً للذريعة، وأن لا يجعلوا استغاثتهم بأحد دون الله عز وجل وقال «لا تطروني كما أطرت النصارى إبن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله» وقال «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد».

ويأتي من زيادة البيان في هذا المقام من كلام السلف والعلماء ما يكفي طالب الحق ﴿٢٤: ٤٠ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾

الوجه الثالث: إن النبي ﷺ في حال نزول الموت به قال «اللهم الرفيق الأعلى» ومن كان في الرفيق الأعلى فقد غاب عن الدنيا، كما قال تعالى في حق المسيح ابن مريم ﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ فأخبر عليه السلام أنه لما كان بين أظهرهم كان شهيداً عليهم؛ فلما غاب عنهم كان الشهيد عليهم هو الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض فكيف ينزّل الغائب منزلة من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ علم أمته كل خير يعلمه لهم، وحذرهم عن كل شر يعلمه لهم، كما في حديث سلمان «علمكم نبيكم كل شيء حتى

الخراءة؟ قال أجل. لقد علمنا أن لا نستقبل القبلة لبول أو غائط الحديث» والخراءة آداب التخلي. علمهم نبيهم كيفية الصلاة والسلام عليه لما فيه من أداء حقه عليهم ونفعه لهم. ولو كان الاستشفاع به بعد وفاته ينفعهم ويجوز منهم لما ترك تعليمهم ذلك وإرشادهم إليه، فلما لم يفعل ذلك علم أنه مما لا يجوز منهم؛ كما دل عليه ما تقدمت الإشارة إليه من آيات الشفاعة وأن الله تعالى أنكر على المشركين اتخاذهم الشفعاء بسؤال الشفاعة وطلبها منهم وأخبر أنها منتفية في حق من طلبها من غير الله، وبيَّن أن ذلك شرك نزه الله تعالى نفسه عنه سبحان الله عما يشركون. وهذا الحكم عام لا تخصيص فيه لأحد أصلاً.

فتأمل هذه الأوجه يتبين لك خطأ هذا العراقي المغرور، وأنه عكس الإجماع كما قد تبين من حاله، فالإجماع الصحيح هو ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى وتلقاه عنه الفقهاء في كتبهم. فإنه قال: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم كفر إجماعاً. وقد تقدم.

فمن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم والتابعين والآية عرف أن هذا هو الإجماع الصحيح المستند إلى ما لا يحصى من أدلة الكتاب والسنة. ولو ذكرنا مستند هذا الإجماع من الكتاب والسنة لطال الجواب. وقد تقدم الكثير من ذلك ﴿٢: ٢١٣ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ والحق عليه نور وله ظهور. والباطل عليه ظلمة ودثور.

فتدبر قوله تعالى ﴿٧٢: ١٨ وإن المساجد لله، فلا تدعو مع الله أحداً﴾ وقوله ﴿١٣: ١٤ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا

يستجيبون لهم بشيء ﴾ فإن قوله «له دعوة الحق» يفيد الحصر؛ أي فدعوة الحق له لا لغيره. فدعوة غيره ليست من الحق في شيء وقوله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ فهذا الاسم لا يستعمل إلا في حق من يعقل كما هو معروف عند النحاة وقوله ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ فيه دليل على أن المراد دعاء المسألة، فأخبر سبحانه أنهم لو دعوهم فأجابتهم لهم فيما سألوهم ممتنعة منتفية بالكلية. وقوله ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ لأنهم لم يجدوا مما طلبوه وأملوه منهم شيئاً. وبين تعالى أن دعوة غيره كفر وضلال.

وهذه الآية وأمثالها تقطع شبهة كل من دعا غير الله. من ميت أو غائب ولهذا أعدت الاستدلال بها. فإن أصل دين الإسلام أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد إلا بما شرع، لا بالاهواء والبدع. وليس في الصحابة والتابعين وأتباعهم والأئمة من أجاز أن يسأل ميت أو غائب من دون الله؛ لأنه لا قدرة له على شيء من أمر الدنيا ولا من أمر الآخرة، مع غفلتهم وعدم استجابتهم لمن دعاهم؛ وكراهتهم لذلك. وقد تقدم التصريح بذلك في الآيات المحكمات ولم ينقل عن أحد من علماء الصحابة والتابعين والأئمة أنه استغاث بنبي أو غيره أو استشفع به بعد وفاته، ولما إعتقد أناس في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الآلهية كاعتقاد كثير من هؤلاء في أرباب القبور خد الأخاديد وأضرمها بالنار وقال :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ، ودعوت قنبرا

وهذا هو الشرك الأكبر، وهو أعظم ذنب عصى الله به، وهو الذي بعث الله به رسله بإنكاره كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن

اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

وقد تقدم قول الإمام مالك وغيره «إن الطاغوت ما عبد من دون الله».

وقد حده العلامة ابن القيم بحد جامع مانع. فقال «الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده: من معبود، أو متبوع، أو مطاع».

فلا ذنب أعظم من أن يعتقد أحد أنه إذا دعا ميتاً أو غائباً أو استشفع به أنه يشفع له. وقد أبطل الله هذا الزعم الكاذب في الآيات المحكمات وفي الآيات التي ذكر فيها الشفاعة، وبين تعالى الشفاعة المثبتة. ونفى كل شفاعة فيها شرك تطلب من غيره، كما تقدم من أنه شرك ينافي الإخلاص. والإخلاص هو دينه الذي لا يرضى من أحد ديناً سواه. كما قال تعالى ﴿ ٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ .

ولا ريب أن الاستشفاع بالأموات يتضمن أنواعاً من العبادة سؤال غير الله، وإنزال الحوائج به من دون الله، ورجائه والرغبة إليه والإقبال عليه بالقلب والوجه والجوارح واللسان. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مسألة الوسائط: وقد سئل عن رجل قال: لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله تعالى.

فأجاب: الحمدلله رب العالمين: إنه إن أراد أنه لا بد لنا من واسطة تبلغنا أمر الله فهذا حق. فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه، وما أمر به ونهى عنه ولا يعرفون ما يستحقه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى وأمثال ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده ـ إلى أن قال ـ:

وإن أراد بالواسطة: أنه لا بد من واسطة تتخذه العباد بينهم وبين الله

في جلب المنافع ودفع المضار يسالونهم ويرجونهم. فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع، ويستدفعون بهم المضار لكن الشفاعة لمن أذن الله له فيها. قال الله تعالى ﴿ ٣٢ : ٤ الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ وذكر قوله تعالى ﴿ ١٧ : ٥٦، ٥٧ قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وقد تقدم. فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويله. وإنهم كانوا يتقربون إليه بما يحبه ويرضاه ويرجون رحمته ويخافونه عذابه وقال تعالى ﴿ ٣ : ٧٩ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله. ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر. فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويسألهم جلب المنافع وسد الفاقات وتفريج الكربات. فهو كافر بإجماع المسلمين. انتهى.

قلت فتفطن لقوله رحمه الله تعالى: يدعوهم ويسألهم.

وقال ابن اسحق: حدثني محمد بن أبي محمد قال حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده. فقالت الأحبار: ما كان ابراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً. فانزل الله فيهم

﴿٣: ٦٥ ـ ٦٧ يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده؟ أفلا تعقلون ـ إلى قوله ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ فقال رجل من الأحبار: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل من نصارى نجران: وذلك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ولا أمرني. فانزل الله في ذلك ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة إلى قوله ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ انتهى ماروا ابن اسحق.

وذكر شيخ الإسلام أيضاً ـ بعد كلامه الذي سبق ـ في مشايخ العلم والدين الذي جعلهم الله وسائط بين الرسول وأمته يبلغون عنه، ويقتدون به فمن جعلهم وسائط بين الرسول وأمته في البلاغ عنه فقد أصاب؛ وهم إذا اجتمعوا فاجتماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة. وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وقد قال النبي ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر» وأما جعل الوسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين بين الملك ورعيته، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، بمعنى أن الخلق يسألونهم، وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون حوائج الناس ليقربوهم منهم والناس يسألونهم أدباً منهم ليباشروا سؤال الملك، أو أن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك، لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب. فمن أثبتهم وسائط على هذا

الوجه فهو كافر مشرك، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا لله أنداداً. وفي القرآن من الرد على هؤلاء ما لا تتسع له هذه الفتوى ـ إلى أن قال رحمه الله تعالى:

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة عند المخلوقين. قال الله تعالى ﴿ ١٠ :١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى عن صاحب يس ﴿ ٣٦ :٢٣ ؛ ٢٤ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون؟ أءتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون؟ إني إذا لفي ضلال مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ٤٦ :٢٨ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة؟ بل ضلوا عنهم. وذلك إفكم وما كانوا يفترون ﴾ ـ إلى أن قال:

وقد قال تعالى ﴿ ٣ :٧٩، ٨٠ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً. أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر. فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار وسد الفاقات، وتفريج الكربات. فهو كافر بإجماع المسلمين. ومن ذلك اتخاذهم شفعاء.

وقد تقدم ما يدل على ذلك صريحاً ويأتي هذا الكلام عنه رحمه الله مبسوطاً.

وذكر قول الله تعالى ﴿ ٣٤: ٢٢، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ـ الآية ﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى نفى الله عما سواه كل ما يتعلق المشركون . فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب. كما قال (ولا يشفعون إلا لمن إرتضى) فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده» لا يبدأ بالشفاعة أولا ثم يقال له «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع» وقال له أبو هريرة «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقتها: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه، وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن هي: ما كان فيها شرك. ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.

انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث، كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء، وعباداتهم وموالاتهم. فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد. فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع. ومن جهل

المشرك: اعتقاده أن من اتخذ ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم. ولم يعلموا أنه لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه، ولا يأذن الله في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وفي الفصل الثاني ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وبقي فصل ثالث. وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد واتباع رسوله ﴿ فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها. انتهى.

قلت: وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى هو الذي أجمع عليه أهل الحق سلفاً وخلفاً كما قال تعالى ﴿٤٦: ٢٨ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ وتقدم لشيخ الإسلام أن هذا مجمع عليه.

فلا يلتفت إلى ما أحدثه المشركون. وزخرفوه من الأكاذيب والأباطيل وإن اعتمدها من زاغ قلبه عن الهدى. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدا» وصح عنه ﷺ أنه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه. قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن» وقد ذكر تعالى ما وقع من اليهود والنصارى من التغيير للحق والتبديل؛ كما قال تعالى ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون الآية﴾ وقال تعالى ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من

دون الله والمسيح ابن مريم. وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقد جرى في طوائف من هذه الأمة ماجرى من أهل الكتاب من الشرك بالأحبار والرهبان. وغيرهم من الأموات والغائبين ما لا يخفى على من له بصيرة يعقل بها ما ذكره الله تعالى في كتابه. وما حدث في الأمة من مشابهة اليهود والنصارى من الشرك والتبديل والتحريف. وقد صح عن النبي ﷺ في عدة أحاديث أنه قال «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا».

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالي طرفاً مما شابه فيه أهل الكتاب كثيراً من هذه الأمة وما شابهوا فيه أعداء الرسل من الأمم فانه قال:

ومازال المشركون يسفهون الأنبياء ويصفونهم بالجنون والضلال. كقوم نوح وعاد وثمود، وهكذا تجد من فيه شبه بهم، إذا رأى من يدعو إلى توحيد الله وإخلاص الدين له؛ وأن لا يعبد الإنسان إلا الله ولا يتوكل إلا عليه: استهزؤا بذلك لما عندهم من الشرك. وكثير من هؤلاء يخربون المسجد. فتجد المسجد الذي بني للصلوات الخمس معطلاً مخرباً، والمسجد الذي بني على الميت عليه الستور والزينة والرخام، والنذور تغدو وتروح إليه. فهل هذا الا استخفاف منهم بالله وبآياته ورسوله وتعظيم للشرك؟ فإنهم اعتقدوا أن دعاء الميت الذي بني له المشهد أنفع لهم من دعاء الله والاستغاثة به في البيت الذي بني لله عز وجل. وإذا كان لهذا وقف، ولهذا وقف، كان وقف الشرك أعظم عندهم منه؛ مضاهاة لمشركي العرب الذين ذكر الله حالهم في قوله ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً. فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله. وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ يجعلون لله زرعاً وماشية ولآلهتهم زرعاً وماشية.

فإذا أصيب نصيب آلهتهم أخذوا من نصيب الله فوضعوه فيه. وقالوا: الله غني وآلهتنا فقراء. وهكذا هذه الوقوف والنذور التي تبذل عندهم للمشاهد هي عندهم أعظم مما يبذل عندهم للمساجد ولعمار المساجد. وهؤلاء إذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه بكى عنده، وخضع ويدعو ويتضرع؛ ويحصل له من الرقة والعبودية وحضور القلب ما لا يحصل مثله في الصلوات الخمس والجمع وقراءة القرآن. فهل هذا إلا من حال المشركين المبتدعين، لا من حال الموحدين المخلصين المتبعين لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن هؤلاء: من إذا كانوا في السماع فأذن المؤذن قالوا: نحن في شيء أفضل مما دعانا إليه. والذين يجعلون دعاء الموتى من الأنبياء والأئمة والشيوخ أفضل من دعاء الله أنواعاً متعددة.

ومنهم من يحكي أنواعاً من الحكايات كحكاية أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يغثه، واستغاث بشيخه فأغاثه، وحكاية أن بعض المأسورين في بلاد العدو دعا الله فلم يخرجه ودعا بعض المشايخ الموتى فجاء فأخرجه إلى بلاد الإسلام، وحكاية أن بعض الشيوخ قال لمريده: إذا كانت لك حاجة إلى الله؛ فتعال فقف إلى قبري وتوسل إلى الله بي. وآخر قال: قبر فلان هو الترياق المجرب. فهؤلاء وأشباههم يرجحون هذه الأدعية الوثنية والعبادات والقربات الشركية على الأدعية والعبادات التي أحبها الله وشرعها لأحب عباده إليه. ويكرهها هؤلاء مضاهاة لسائر المشركين.

قلت: وهذا مما شابهت فيه هذه الأمة من قبلهم من أهل الكتاب والمشركين. ويأتي في كلام شيخ الإسلام كثير من هذا الضرب، مما اختلقه المشركون من هذه الأمة أسوة بأمثالهم ممن ألحد في الدين، وأتبع غير سبيل

المؤمنين. ومن كذب على الله وافترى ونبذ الكتاب وراء ظهره واجترا. وقد قال الله عز وجل ﴿ ٣٥ : ١٩ ـ ٢٦ وما يستوي الأعمى ولا البصير ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور. إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً، وإن من أمة إلا خلافيها نذير. وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾.

وقد بين الله تعالى في كتابه هذا الشرك الذي انتحله هؤلاء المشركون بياناً شافياً كافياً. وقد تقدم في الآيات المحكمات ما يبينه ويوضحه وما يترتب على فعله من التهديد، والوعيد الشديد وكفر من فعله. فأخذ هؤلاء ما زخرفوه من الترهات والخبالات والشبهات؛ بدلاً عن الآيات المحكمات وصريح السنة وصحيحها. فلا محال أبين من هذا المحال؛ ولا ضلال أبعد من هذا الضلال. ألم يسمعوا إلى قول الله تعالى (٤٦ : ٥، ٦ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ وقوله تعالى ﴿ ٣٥ : ١٣، ١٤ ذلكم الله ربكم له الملك. والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم. ولا ينبئك مثل خبير﴾ وقال تعالى ﴿ ٢٣ : ١١٧ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح الكافرون﴾ وقد تقدمت هذه الآيات وبعض نظائرها من الآيات المحكمات.

وقد عرفت أن كل داع قد أقبل قلبه على المدعو ووجه وجهه إليه.

ورغب إليه ورجاه وأحبه مع الله وتوكل عليه وخضع له وأناب إليه؛ وغير ذلك. وكل هذا عبادة لا تصلح إلا للحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. له ما في السموات وما في الأرض. لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وسبحان الله! أين ذهبت عقول المشركين عن عبادة الذي خلقهم ورزقهم؛ ويحييهم ويميتهم ويتصرف فيهم بمشيئته وإرادته؟ ولا نفع ولا ضر إلا بمشيئته وقدرته وحكمته؟ وقد قال الله تعالى (١٦ : ١٧ ـ ٢٢ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ـ إلى قوله: والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون. أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون. إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ ثم أخبر تعالى أن العلة التي صرفتهم عن قبول الحق إنما هي إنكار الحق بعدما تبين والاستكبار عليه ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ؟ ﴾ فأخذوا الضلال عوضاً عن الهدى، وقد أنذرهم نبيهم ﷺ غاية الإنذار. كما قال تعالى: ﴿٣٨:٦٥ ـ ٦٨ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار. قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ وقال تعالى ﴿ ٣ : ٢٠ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن. وقل للذين أتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ وقال (٧٢ : ٢٠ ـ ٢٣ قل إنما ادعو ربي ولا أشرك به أحدا. قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشدا. قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا. إلا بلاغاً من الله ورسالاته. ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها ابداً ﴾.

فسبحان الله كيف جاز في عقول هؤلاء أن يتقربوا إلى رسول الله ﷺ بالشرك الذي كان أبغض شيء إلى قلبه من طفولته حتى بعثه الله بإنكاره وللأنذار عنه وعداوة من دان به وأصر عليه وقتاله، وإباحة دمه وماله. كما دلت عليه هذه الآيات المحكمات ونظائرها.

قال الله تعالى ﴿ ٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ والفتنة: الشرك بالله في العبادة، كما قال تعالى ﴿ ١٨ : ١١٠ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾.

والعجب إن كثيراً من هؤلاء لم يفهموا من هذه الآية إلا الشرك الأصغر، كيسير الرياء وهذا من فساد العقول، والجهل بمضمون الدال والمدلول.

وتأمل قوله ﴿ يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد ﴾ فلا تصلح الإلهية إلا له وحده.

و«الإله» هو الذي تألهه القلوب بأي نوع كان من أنواع العبادة التي حقيقتها: كمال الذل وكمال المحبة كما تقدم. فمن صرف من العبادة شيئاً لغير الله، كالدعاء ونحوه فقد ألهه بالعبادة، واتخذه إلهاً من دون الله. ولا يختلف كلام أهل اللغة وأهل السنة سلفاً وخلفاً عن هذا المعنى.

وقد تقدم في هذا الجواب مما ذكرناه هنا. ولو ذهبنا نذكر جميع الأدلة على هذا الأصل العظيم لاحتمل عدة أجزاء. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً.

ومن أعظم أسباب الوقوع في الشرك: إستصحاب العوائد وإلفها.

وكثرة من ضل عن الحق إما جهلاً وإما عناداً. وبهذه الأسباب ونحوها كثر اللبس الذي نهى الله تعالى عنه اليهود في قوله ﴿٢ : ٤٢ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ ذكره تعالى في أول سورة البقرة تحذيراً لهذه الأمة أن يشابهوا أهل الكتاب فيما ذمهم الله تعالى به، ونهاهم عنه.

وقد عمت البلوى بذلك، ولم يستندوا فيه إلا إلى خيالات شيطانية كما قال الله تعالى ﴿٢٧ : ٢٤ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: لما ذكر سبب عبادة الأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين قال ومازال الشيطان يوحي إلى عباد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها عن محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء به، والأقسام على الله به، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه. فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه، ويذبح عنده. فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً. ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم. وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ، من تجريد التوحيد لله، وأن لا يعبد إلا الله. فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية؛ وحطهم عن منزلتهم؛ وزعم أنه لا حرمه لهم ولا قدر.

وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم كما قال تعالى ﴿ ٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة. وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام. وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم. وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله: ويأبى الله ذلك ﴿ ٨ : ٣٤ وما كانوا أولياؤه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وليتأمل ما ذكره العلماء رحمهم الله تعالى في قوله تعالى ﴿ ٣٤ : ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ـ إلى قوله ـ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا؟ قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾.

قال ابن عطية في هذه الآية: في الكلام حذف دل عليه الظاهر؛ كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل عبدة مسلمون أبدا، يعني منقادون.

وقال أبو حيان: وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى. ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله ﴿ الذين زعمتم ﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها.

وقال مقاتل بن حيان في قول الله تعالى ﴿ ٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر، هل هن كاشفات ضره؟ أو أرادني برحمة، هل هن ممسكات رحمته؟ ﴾ قال: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا أي لأنهم لا

يعتقدون ذلك فيها، وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا لأنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر. فهم يعلمون أن ذلك لله وحده؛ كما قال تعالى ﴿١٦: ٥٣، ٥٤ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ انتهى.

ولا عجب من وقوع الكثير من الناس في الجهل بالتوحيد، ووقوعهم في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله مع انتسابهم إلى الإسلام وقراءتهم القرآن وانتسابهم إلى شريعة الإسلام. فقد روى الإمام أحمد وغيره من أهل السنة عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار» فمن قصد غير الله بمسألته رجاء له ورغبة إليه. فقد جعله نداً لله ويلزم من ذلك أن يكون محباً له لزوماً لا محيد له عنه. ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بمعناه.

قال الله تعالى ﴿٢: ١٦٥ ـ ١٦٧ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ـ إلى قوله ـ وتقطعت بهم الأسباب﴾ أي المودة والوصل. ثم قال تعالى ﴿وقال الذين اتبعوا للذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة حيث جعلوا لله أنداداً أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه. وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه، وفي الصحيحين عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قال «قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك» وقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) ولحبهم لله وتمام معرفتهم

وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون في جميع أمورهم إليه ثم توعد تعالى المشركين الظالمين لأنفسهم بذلك. فقال تعالى. ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ كما قال ﴿ ٨٩: ٢٥، ٢٦ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك وما سيحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين فقال تعالى ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ تبرأ منهم أولياؤهم وطواغيتهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويعدلونهم بالله. فتقول الملائكة ﴿ ٢٨: ٦٣ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ ويقولون ﴿ ٣٤: ٤١ سبحانك أنت ولينامن دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ والصالحون يتبرأون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى ﴿ ٤٦: ٥، ٦ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من من لا يستجيب له إلا يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ ١٩: ٨١، ٨٢ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقال الخليل لقومه ﴿ ٢٩: ٢٥ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ وقال تعالى ﴿ ٣٤: ٣١ ـ ٣٣ إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم

إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب. وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟ ﴾ وقال تعالى ﴿ ١٤ : ٢٢ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي. إني كفرت بما أشركتموني من قبل. إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾.

وقوله ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفا قال عطاء عن ابن عباس وتقطعت بهم الأسباب قال «المودة» وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح: وقوله ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا. بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. كما أخبر الله عنهم بذلك ولهذا قال ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى ﴿ ٢٥ : ٢١ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وقال تعالى ﴿ ١٤ : ١٨ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ وقال: تعالى ﴿ ٢٤ : ٣٩ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة. يحسبه الظمآن ماء

حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه الآية ﴾ ولهذا قال ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾.

فرحم الله أهل السنة. فإنهم تمسكوا بالوحيين، فلم يدعوا لأهل الشرك شبهة بل أدحضوا حججهم، وأبطلوا زخرفهم.

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى: فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع، ودفع المضار. فهو كافر بإجماع المسلمين فإن الله جعل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وسائط في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فليس لأحد طريق إلى الله إلا بمتابعة الرسول: بفعل ما أمر وترك ما حذر. وأما إجابة الدعوات وتفرج الكربات فهذا لله وحده لا يشركه فيه أحد، ولهذا فرق الله سبحانه وتعالى في كتابه بين ما فيه حق للرسول وبين ما هو حق لله وحده، كما في قوله تعالى ﴿ ٢٤: ٥٢ ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ فبين سبحانه ما يستحقه الرسول من الطاعة فإنه ﴿ ٤: ٨٠ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وأما الخشية والتقوى فجعل ذلك لله وحده. وكذلك قوله ﴿ ٩: ٥٩ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله. إنا إلى الله راغبون ﴾ فجعل الإيتاء لله وللرسول. وأما التوكل والرغبة فلله وحده. كما في قوله: ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ ولم يقل ورسوله. وقالوا ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ ولم يقل وإلى رسوله وذلك موافق لقوله تعالى في سورة ألم نشرح ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ فالعبادة والخشية والتوكل والدعاء والرجاء والخوف لله وحده لا يشركه فيه أحد. وأما الطاعة والمحبة ااوالإرضاء فعلينا أن نطيع الله ورسوله ونحب الله ورسوله، ونرضى الله ورسوله لأن طاعته طاعة لله

وإرضاءه إرضاء لله، وحبه من حب الله، والله سبحانه لم يجعل احدا من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والإلهية. قال تعالى ﴿ ٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال ﴿ ٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال (٥٣ : ٢٦ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال تعالى ﴿ ٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً هو الكفر.

وقال رحمه الله: والأعمال الدينية لا يجوز أن تتخذ سبباً إلا أن تكون مشروعة فإن العبادات مبناها على التوقيف. فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره وإن ظن أن ذلك سبباً لحصول بعض أغراضه. وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة وإن ظن ذلك. فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك. فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة.

والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك؛ بل هذا دين المشركين عباد الأوثان وهو من الشرك الذي أنكره الله تعالى على النصارى، حيث قال ﴿ ٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾.

ثم ذكر رحمه الله تعالى نحواً مما تقدم من قوله: فإن الله تعالى جعل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وسائط في تبليغ أمره ونهيه، ووعده، ووعيده فليس لأحد طريق إلى الله إلا بمتابعة الرسول، بفعل ما أمر وترك ما حذر. ومن جعل إلى الله طريقاً غير متابعة الرسول للخاصة أو العامة فهو كافر

بالله ورسوله، مثل من زعم أن خواص الأولياء والعلماء والفلاسفة وأهل الكلام أو الملوك لهم طريق إلى الله غير متابعة الرسول. ويذكرون أدلة على ذلك من الأحاديث المفتريات ما هو من أعظم الكفر والكذب. كقول بعضهم أن الرسول ﷺ استأذن على أهل الصفة فقالوا: اذهب إلى من أنت رسول إليه. وقال بعضهم: إنهم أصبحوا ليلة المعراج فأخبروه بالسر الذي ناجاه الله به. وأن الله أعلمهم بذلك مع أمره الرسول بكتمانه. وقال بعضهم: إنهم قاتلوا في بعض الغزوات مع الكفار وقالوا من كان الله معه كنا معه. ومثل هذه الأمور التي هي من أعظم الكفر والكذب.

ومثال احتجاج بعضهم بقصة الخضر وموسى عليهما السلام على أن من الأولياء من يستغني عن محمد ﷺ كما استغنى الخضر عن موسى.

ومثل قول بعضهم: إن خاتم الأولياء له إلى الله طريق يستغني به عن خاتم الأنبياء وأمثال هذه الأمور التي كثرت في كثير من المنتسبين إلى الزهد والفقه والتصوف والكلام. وكفر هؤلاء قد يكون من جنس كفر اليهود والنصارى. وقد يكون أعظم وقد يكون أخف بحسب أحوالهم.

قلت: والمقصود بما ذكرناه عن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بيان ما وقع في الأمة مما يناقض ما جاءت به الرسل من توحيد العبادة الذي أرسلوا به ودعوا الناس إليه.

وقال رحمه الله تعالى في كتاب الاستغاثة في الرد على ابن البكري قال: وسؤال الله بالميت والأقسام على الله به أو استحباب الدعاء عند تلك البقعة لم يكن من فعل أحد من سلف الأمة، لا الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان.

وإنما حدث بعد ذلك[1] وقد استفاض عنه ﷺ أنه قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً» وفي الصحيح «أنه ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر له حسنها وتصاوير فيها. فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً. ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» وفي السنن عنه ﷺ أنه قال «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا عليّ حيث ما كنتم. فإن صلاتكم تبلغني» وفي الموطأ وغيره عنه ﷺ أنه قال «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفي المسند وصحيح أبي حاتم عن ابن مسعود انه ﷺ أنه قال «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد» ومعنى هذه الأحاديث متواتر عنه ﷺ بأبي هو وأمي. وكذلك عن الصحابة.

---

(١) أول من أحدث بناء القباب والمشاهد والهياكل على القبور وسماها زوراً مساجد: هم العبيديون أبناء اليهودي عبيد الله القداح الذين كانوا يموهون على الطغام والعوام بأنهم فاطميون، وفاطمة وأبوها وزوجها ومؤمنو أبنائها براء منهم ومن شركهم وإلحادهم فقد كان أولئك العبيديون باتفاق كلمة علماء المسلمين أشد كفراً وعداوة لله وكتابه ورسوله من اليهود والنصارى. وقد بقيت دولتهم بمصر والشام والحجاز مدة استطاع الشيطان فيها أن يغرس في القلوب والمؤلفات شجرة الشرك والوثنية والإلحاد، وفي مدتهم وبعدها ارتفع صوت الوثنية. وهم إلى اليوم قدوة كل وثني من أعداء الله ورسوله.

وهذا الذي نهى عنه من اتخاذ القبور مساجد مفارق لما أمر به وشرعه من السلام على الموتى والدعاء لهم فالزيارة المشروعة من جنس الصلاة على الجنازة. والزيارة المبتدعة من جنس الأول.

فإن نهيه عن اتخاذ القبور مساجد يتضمن النهي عن بناء المساجد عليها وعن قصد الصلاة عندها. وكلاهما منهي عنه باتفاق العلماء. فإنهم قد نهوا عن بناء ذلك، كما دل عليه النص المساجد على القبور. بل صرحوا بتحريم.

واتفقوا أيضاً على أنه لا يشرع قصد الصلاة والدعاء عند القبور، ولم يقل أحد من أئمة المسلمين: أن الصلاة عندها والدعاء أفضل منه في المساجد الخالية عن القبور بل الصلاة والدعاء عندها منهي عنه باتفاقهم. وقد صرح كثير منهم بتحريم ذلك بل بإبطال الصلاة فيها. والمقصود هنا أن هذا ليس بواجب ولا مستحب باتفاقه، بل هو مكروه باتفاقهم[1].

---

(١) وقصدهم من قولهم: مكروه، أي يكرهه الله ورسوله، ويمقته الله ويبغضه، لأن هذه المساجد ملعونة وملعون من يقيمها ومن يرضى بها بقول رسول الله ﷺ في آخر حياته «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وهي شر البقاع والذي يبنيها ويحبها ويرضى عنها شر خلق الله بما ثبت عن النبي ﷺ. وذلك لأنها شبكة الشرك ومصيدته التي صاد الشيطان الجاهلين إلى تقديس الموتى والرجوم والأنصاب وعبادتها من دون الله وفي قول الله ﴿٩ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ نص صريح في أن حقيقة المساجد ليست الصورة من الطوب والحجارة التي يقيمها المشركون وينفقون فيها ألوف الجنيهات بل عشرات الألوف. لأنهم لا يقيمونها باسم الله ولا لتعظيم شعائره وإنما يقيمونها باسم أوليائهم ومعبوديهم من دون الله، فهم بشهادتهم على أنفسهم بهذا الكفر وعبادة هؤلاء وتقديسهم من دون الله؛ محرمون ومحرم عليهم قدراً أن يعظموا شعائر الله. لأن قلوبهم النجسة بهذا الشرك لا يصدر عنها عمل ولا حال طيب في مرضاة الله. فإنه لا يصدر عن الخبيث إلا الخبيث. وقول الله تعالى ﴿١٨:٧٢ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ نص صريح في أن عبادة غير الله ودعاءه من دون الله مرتبط أشد الارتباط باتخاذ المساجد على القبور وآثار المعظمين من دون الله. ومن ثم تجد المشركين يعمرون هياكل الوثنية ويخربون مساجد الله. فتراهم يسعون من الأمكنة البعيدة إلى هذه الهياكل التي يسمونها زوراً وكذباً: مساجد، للأولياء؛ وهي معابد لعبادة الموتى؛ ويتركون المسجد المجاور لدورهم لأنه ليس فيه ذكر لأوليائهم. فالقرآن والسنة ينصان صريحاً على أن واجب الإسلام حيال هذه الهياكل أن تهدم وتحرق لأنها رجس. لا أن يختلف في الصلاة فيها: هل هي مكروهة أو غير مكروهة؟ كشأن الخمر؟ بل هي أشد ←

والفقهاء قد ذكروا في تعليل كراهة الصلاة في المقبرة علتين:

إحداهما: نجاسة التراب لاختلاطه بصديد الموتى[1] وقد ثبت في الصحيح أن مسجد النبي ﷺ كان حائطاً لبني النجار، وكان فيه قبور من قبور المشركين، ونخل وخرب. فأمر النبي ﷺ بالنخيل فقطعت، وبالخرب فسويت، وبالقبور فنبشت، وجعل النخل في صف القبلة. فلو كان تراب قبور المشركين نجساً لأمر بنقل ذلك التراب. فإنه لا بد أن يختلط بغيره.

والعلة الثانية: ما في ذلك من مشابهة الكفار بالصلاة عند قبورهم لما يفضي إليه من الشرك. وهذه العلة صحيحة باتفاقهم.

والمعللون بالأولى ـ كالشافعي ـ وغيره عللوا بهذه أيضاً. وكرهوا ذلك لما فيه من الفتنة. وكذلك الأئمة من أصحاب أحمد ومالك، كأبي بكر الأثرم وغيره عللوا بهذه الثانية أيضاً.

وقد قال تعالى (٧١: ٢٣ وقالوا لا تذرن آلهتكم: ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا. وقد أضلوا كثيراً﴾ ذكر ابن عباس وغيره من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم. وقد ذكر هذا البخاري في صحيحه وأهل التفسير، كابن جرير وغيره من المفسرين.

ويبين صحة هذه العلة أنه ﷺ «لعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد» ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنبش، ولا يكون ترابها نجساً. وقال ﷺ عن نفسه «اللهم لا تجعل قبري عيداً» فمعلوم أن نهيه عن ذلك من جنس نهيه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها. لأن الكفار يسجدون للشمس حينئذ. فسد الذريعة وحسم المادة بالنهي عن الصلاة في هذه الساعة، وإن

كان المصلى لا يصلي إلا لله تعالى، ولا يدعو إلا الله، وكذلك نهى عن اتخاذ القبور مساجد. وإن كان المصلي عندها لا يصلي إلا لله ولا يدعو إلا الله لأجل أن لا يفضي ذلك إلى دعائها والصلاة لها. وكلا الأمرين وقع فإن من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب ويدعو هذه الأدعية والتسبيحات ويلبس لها من اللباس والخواتم ما يظن مناسبتها لها في زعمه. وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضل به كثير من الأولين والآخرين. وصنف فيه بعض المشهورين[1] كتاباً سماه السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم على مذهب المشركين من الهند والصائبين والمشركين من العرب وغيرهم، مثل طمطم الهندي، وملك شاه البابلي، وبنو وحشية وأبي معشر البلخي، وثابت بن قرة، وأمثالهم ممن دخل في الشرك، وآمن بالجبت والطاغوت. كما قال الله تعالى ﴿ ٤ : ٥١ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ وقد قال غير واحد من السلف: الجبت السحر. والطاغوت الأوثان. وبعضهم قال: الشيطان. وكلاهما حق.

وهؤلاء يجمعون بين الجبت الذي هو السحر، والشرك الذي هو عبادة الطاغوت كما يجمعون بين السحر ودعوة الكواكب. وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ـ بل ودين جميع الرسل ـ أنه شرك محرم، بل هذا من أعظم أنواع الشرك الذي بعثت الرسل بالنهي عنه، ومخاطبة إبراهيم الخليل لقومه كانت في نحو هذا الشرك قال تعالى ﴿ ٦ : ٧٥ ـ ٨٣ وكذلك

---

(١) هو الفخر الرازي صاحب التفسير المشهور وغيره من كتب الفلسفة. ويفيدنا هذا أن لا نغتر بالمؤلفات في التفسير والحديث وغيرهما التي يؤلفها أمثال الفخر الرازي والغزالي والشعراني والهيتمي وابن عربي ←

نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجة قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ فإن ابراهيم عليه السلام سلك السبيل: إن قومه كانوا يتخذون الكواكب أرباباً يدعونها ويسألونها ولم يكونوا هم ولا أحد من العقلاء يعتقد أن كوكباً من الكواكب خلق السموات والأرض، وإنما كانوا يدعونها من دون الله على مذهب هؤلاء المشركين. ولهذا قال الخليل عليه السلام ﴿ ٢٦ : ٧٥ ـ ٧٧ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ وقال ﴿ ٤٣ : ٢٦، ٢٧ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ والخليل صلوات الله وسلامه عليه أنكر شركهم بالكواكب العلوية،

← وأضرابهم. فإنهم لا بد أن ينفثوا فيها من سموم قلوبهم الموغورة بعداوة الله ورسوله وأنهم مهما زينوا القول وزخرفوه فإنهم من أعداء الأنبياء الذين قال الله فيهم ﴿ ٦ : ١١٢ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ١١٣ ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه ﴾ فلا ينظر في كتب هؤلاء إلا للنقد والاعتبار. ومن أعظم الجهل والضلال ظن أن فيها فائدة وبعض حق فما جاءوا بصورة الحق إلا ليلبسوه بالباطل فليحذر كل مسلم وليسمع وصية الله (فذرهم وما يفترون).

وشركهم بالأوثان التي هي تماثل وطلاسم لتلك، أو هي تماثيل لمن مات من الأنبياء والصالحين وغيرهم، وكسر الأصنام كما قال تعالى ﴿ ٢١: ٥٨ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾.

والمقصود هنا أن الشرك بعبادة الكواكب في كل زمان واقع كثيراً. وكذلك الشرك بأهل القبور من دعائهم والتضرع إليهم، والرغبة إليهم، ونحو ذلك.

فإذا كان النبي ﷺ نهى عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصاً عند القبور لئلا يفضي ذلك إلى نوع من الشرك بهم، فكيف إذا وجد ما هو نوع شرك من الرغبة: سواء طلب منهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات أو طلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله؟ بل لو أقسم على الله ببعض خلقه من الأنبياء والملائكة وغيرهم لنهي عن ذلك ولو لم يكن عند قبره، كما لا ينبغي أن يقسم بمخلوق مطلقاً وهذا القسم منهي عنه غير منعقد باتفاق الأئمة. وهل هو نهى تحريم أو تنزيه؟ أصحها أنه تحريم، ولم يتنازع العلماء إلا في الحلف بالنبي ﷺ خاصة. فان فيه قولين في مذهب أحمد لكن القول الذي عليه جمهور الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم أنه لا تنعقد اليمين بمخلوق البتة ولا يقسم بمخلوق البتة وهذا هو الصواب. واتفقوا على أن الله يسأل ويقسم عليه بأسمائه وصفاته كالأدعية المعروفة في السنن «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، أنت الله المنان بديع السموات والأرض. ياذا الجلال والإكرام» وفي الحديث الآخر «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» ونحو ذلك. فهذه الأدعية ونحوها مشروعة باتفاق العلماء. وفي الحديث الذي رواه أهل السنن « الدعاء هو العبادة « ثم قرأ قوله

﴿ ٤٠ : ٦٠ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ٢ : ١٨٦ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ وقد روى أن بعض الصحابة قال «يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله هذه الآية» فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه حصل مقصوده من الدعاء وأجيب دعاؤه.

والمقصود هنا أن دعاء الله قد يكون دعاء عبادة لله يثاب العبد عليه في الآخرة مع ما يحصل له في الدنيا. وقد يكون دعاء مسألة تقضي به حاجته وقد يثاب عليه إذا كان مما يحبه الله وقد لا يحصل . له إلا تلك الحاجة. فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها تعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته. وقول عمر رضي الله عنه «إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا» معناه نتوسل بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته كما كنا نتوسل بدعائه ﷺ حين كان بيننا حيا يقدر على الدعاء والسؤال. ليس المراد به نقسم عليك به، أو ما يجري هذا المجرى، مما يفعل به بعد موته، وفي مغيبه. كما يقوله جهلة الناس: أسألك بجاه فلان عندك، ويقولون: إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه، ويروون حديثاً موضوعاً «إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عريض» فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه، كما ذكر عمر رضي الله عنه ـ لفعلوا ذلك بالنبي ﷺ بعد موته ولم يعدلوا عنه إلى العباس. فعلم أن ذلك التوسل الذي فعله عمر والصحابة هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم. فإن الحي يطلب منه ذلك. والميت لا يطلب منه شيء لادعاء ولا غيره.

وكذلك الأعمى فإنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له. فعلمه النبي ﷺ دعاء أمره فيه أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه. فهذا يدل على أن النبي

ﷺ شفع فيه. وأن قوله «أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة» أي بدعائه وشفاعته. كما قال عمر «إنا كنا نتوسل إليك بنبينا» فلفظ التوجه والتوسل في الحديث بمعنى واحد. ثم قال «يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي بحاجتي ليقضيها. اللهم شفعه في» فطلب من الله أن يشفع فيه نبيه. وقوله «يا محمد» هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب، كما يقول المصلى «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» والإنسان يفعل مثل هذا يخاطب من يتصوره في نفسه. وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب.

فلفظ التوسل بالشخص. فيه إجمال واشتراك، غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة: يراد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً مثلاً، أو لكون الداعي محباً له، مطيعاً لأمره مقتدياً به. فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ويراد به الأقسام به والتوسل بذاته. فلا يكون التوسل بلا شيء منه ولا شيء من السائل بل بذاته أو مجرد الأقسام به على الله.

فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

ومن الأول حديث الثلاثة الذين ـ آووا إلى الغار. وهو في الصحيحين وغيرهما فإن الصخرة انطبقت عليهم. فقالوا «ليدع كل رجل منكم بأفضل عمله» وذكر الحديث. فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال. لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله تعالى ويتوجه به إليه ويسأله به لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ وهؤلاء دعوه بعبادته وفعل ما أمر به من العمل الصالح. وهذا كما قال المؤمنون ﴿ ٣: ١٩٣، ١٩٤ ربنا إننا سمعنا

منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنافاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعتدنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) فسؤال الله والتوسل إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه وفعل ما يحبه من العبودية والطاعة من جنس فعل ذلك، رجاء لرحمة الله، وخوفاً من عذابه، وسؤال الله بأسمائه وصفاته ونحو ذلك يكون من باب التسبب.

والمقصود هنا أنه إذا كان السلف والأئمة قالوا في سؤاله بالمخلوق ما قد ذكر، فكيف بسؤال المخلوق الميت، سواء سئل أن يسأل الله أو يسأل قضاء الحاجات. ونحو ذلك؟ مِما يفعله جهلة الناس إما عند قبر الميت وإما عند غيبته. وصاحب الشريعة ﷺ حسم المادة وسد الذريعة بلعنه من يتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وأن لا يصلى عندها، ولا يسأل إلا الله وحذر أمته ذلك. فكيف إذا وقع نفس المحذور من الشرك وأسباب الشرك.

وقد تبين أن أحداً من السلف لم يكن يفعل ذلك أصلاً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: لما ذكر سبب عبادة الأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين. قال: ومازال الشيطان يوحي إلى عباد القبور ويلقى إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء به والأقسام على الله به. فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه. فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه، ويذبح عنده فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً وأراهم أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم. وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه

مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد لله وأن لا يعبد إلا الله، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم كما قال تعالى ﴿ ٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم، ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء لله، وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك. وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون إنتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وليتأمل ما ذكره العلماء رحمهم الله في قوله تعالى ﴿ ٣٤ : ٢٢، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾.

قال ابن عطية: في هذه الآية: حذف دل عليه الظاهر، كأنه قال: ولاهم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل عبدة مسلمون أبداً، يعني منقادون.

وقال أبو حيان: وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى. ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله (الذين) إذا لم تتصل هذه الآية بما قبلها.

وقال مقاتل بن حيان في قول الله تعالى ﴿ ٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ما تدعون

من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره؟﴾ قال: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا، أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها. وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائل، وشفعاء عند الله، لا لأنها تكشف الضر وتجيب دعاء المضطر. فهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قال تعالى ﴿١٦: ٥٣، ٥٤ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾.

ولا عجب من وقوع الكثير من الناس في الجهل بالتوحيد، ووقوعهم في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، مع انتسابهم إلى الإسلام وقراءتهم القرآن، وانتسابهم إلى شريعة الإسلام. فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد رضي الله عنه قال «ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: ذلك عند أوان ذهاب العلم. قلت: يا رسول الله كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، ويقرؤه أبناءنا، أبناءهم؟، قال: ثكلتك أمك يازياد. إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والانجيل لا يعلمون بشيء مما فيهما» وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة، وهي خراب من الهدى والعلم. وعلمائهم شر من تحت أديم السماء من عندهم تخرج الفتنة، وفيهم تعود» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

قلت: وقد ظهر الشرك والبدع في هذه الأمة بعد القرون المفضلة، بظهور الدول بالمشرق والمغرب، كالأزارقه وبني بويه والقرامطة وبني عبيد القداح، والإسماعيلية ونحوهم، فاشتدت غربة الإسلام وصار أهل السنة غرباء كما قال النبي ﷺ «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى

للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ويصلحون ما أفسد الناس» وتقدم هذا، وأعيد لئلا ينسى كنظائره. فإن الحق يحلو مع التكرار. والبيان.

وقد أشار إلى ما وقع في هذه الأمة من مصداق هذا الحديث كثير من العلماء، قديماً وحديثاً. فمن ذلك ما ذكره يحيي بن يوسف الصرصري قال:

نُح وابكِ، والمعروف أقفر رسمه ... والمنكر استعلى وآثر وسمه
لم يبق إلا بدعة فتانة ... بهوى مضل مستطير سمه
هذا الذي وعد النبي المصطفى ... بظهوره وعدا توثق حتمه
هذا لعمر إلٓهك الزمن الذي ... تبدو جهالته ويرفع علمه
ذهب النصيح لربه ونبيه ... وإمامه نصحاً تحقق عزمه
لم يبق إلا حاكم هو مرتش ... أو عالم تخشى الرعية ظلمه
والصالحون على الذهاب تتابعوا ... فكأنهم عقد تناثر نظمه
لم يبق الا راغب، هو مظهر ... للزهد، والدنيا الدنية همه
لولا بقايا سنة ورجالها ... لم يبق نهج واضح نأتمه

وقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله:

وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... بها أضحت الأعداء فينا تحكم

وقال شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله تعالى في الاقتضاء أيضاً:

ولم يكن أحد من السلف يأتي إلى قبر نبي ولا غير نبي لأجل الدعاء به، ولا كان الصحابة يقصدون الدعاء عند قبر النبي ﷺ، ولا عند قبر غيره من الأنبياء، وإنما كانوا يصلون عليهم ويسلمون على النبي ﷺ وعلى صاحبيه. فاتفق الأئمة على أنه إذا دعى في مسجد النبي ﷺ أنه لا يستقبل قبره، وتنازعوا عند السلام عليه. فقال مالك وأحمد وغيرهما: يستقبل قبره ويسلم

عليه، وهو الذي ذكره أصحاب الشافعي، وقال مالك ـ فيما ذكره إسماعيل بن إسحاق في المبسوط والقاضي عياض وغيرهما: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي. وقال في المبسوط: لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج أن يقف على النبي ﷺ، ويدعو له ولأبي بكر وعمر. فقيل: له إن ناساً من أهل المدينة يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر فيسلمون ويدعون ساعة. فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، إلا لمن جاء من سفر أو أراده.

قال وقد تقدم من الآثار عن السلف ما يوافق هذا من أنهم إنما كانوا يستحبون عند قبره ﷺ ما هو من جنس الدعاء له، كالصلاة والسلام، ويكرهون قصده للدعاء والوقوف عنده، وليس في أئمة المسلمين من استحب للمرء أن يستقبل قبره ويدعو.

وهذا الذي ذكرناه عن مالك والسلف يبين ضعف ما ينقله المحرفون عن مالك وغيره، مما يخالف ذلك مما هو خلاف مذهبه المعروف بنقل الثقات من أصحابه. وهو نص على أنه لا يقف عند قبره للدعاء مطلقاً. ولم يذكر أحد من الأئمة أن أحداً منهم استحب أن يسأل أحداً بعد الموت، وإنما يعرف ذلك في حكاية ذكرها طائفة من متأخري الفقهاء عن أعرابي أنه أتى قبر النبي ﷺ قال:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

فاحتجوا بهذا الحكاية التي لا ينبغي أن يثبت بها حكم شرعي، لا سيما

في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعاً لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل له.

وذكر أن معاوية استسقى بيزيدبن الأسود، قال: ولم يذكر عن أحد من الصحابة أنه أتى إلى قبر نبي ولا غيره يستسقى عنده ولا به. وفي سنن أبي داوود عن أبي هريرة أنه قال «ما من رجل يسلم عليّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام» وفي سنن النسائي وغيره عنه ﷺ أنه قال «إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام والصلاة على» فما أمر الله به ورسوله وشرعه لنا عند زيارة قبور الأنبياء والصالحين هو من جنس المشروع عند جنائزهم، كما أن المقصود بالصلاة على الميت الدعاء له.

فالمقصود بزيارة قبره الدعاء له، كما ثبت في الصحيح والسنن والمسند أنه ﷺ «كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين. نسأل الله لنا ولكم العافية. اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم. واغفر لنا ولهم».

وأما أن يقصد بالزيارة سؤال الميت والأقسام على الله به أو استجابة الدعاء عند تلك البقعة. فهذا لم يكن من فعل أحد من سلف الأمة، لا الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان. ولم يوجد في عصرهم من يستشفع بالأموات ويتوسل بهم، وإنما الثابت عنهم ترك ذلك، كما فعل عمر ومعاوية رضي الله عنهما. فإنهم عدلوا في التوسل إلى دعاء الأحياء لحضورهم وقدرتهم على الدعاء. لأنهم في دار العمل. وأما الأموات فانتقلوا عنها، وقد فارقت أرواحهم أجسادهم، فأجسادهم تحت التراب وأرواحهم في الرفيق الأعلى.

فسبحان الله، والله أكبر. كيف جاز في عقول من جعل الله له عقلاً أن يعدل عن سؤال القريب المستجيب ـ وقد وعد من سأله الإجابة، وهو القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء من أقوال خلقه وأعمالهم وإراداتهم ـ إلى سؤال ميت غافل لا يجيب ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع، في تلك الحال ؟ ولا ريب أن هذا من أبطل الباطل عقلاً ونقلاً وفطرة. وقد قال تعالى محتجاً بصفاته التي دلت على كماله تعالى على أنه تعالى هو المدعو وحده المعبود وحده. فقال تعالى: ﴿ ٤٠ : ٥٦ هو الحي لا إله إلا هو. فادعوه مخلصين له الدين الحمدلله رب العالمين﴾ فأمر تعالى بإخلاص الدعاء له وأنه المستحق له دون كل من سواه.

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

ولم يثبت عن النبي ﷺ حديث واحد في زيارة قبر مخصوص. ولا روى في ذلك لأهل الصحيح ولا السنن والأئمة المصنفين في المسند، وإنما روى ذلك في جمع الموضوع وغيره. وأجل حديث روى في ذلك مارواه الدارقطني ـ وهو ضعيف باتفاق أهل العلم ـ بل الأحاديث المروية في زيارة قبره كقوله «من زارني وزار أبي الخليل في عام واحد ضمنت له على الله الجنة». «ومن زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي» «ومن حج ولم يزرني فقد جفاني» ونحو هذه الأحاديث كلها مكذوبة موضوعة، ولكن النبي ﷺ رخص في زيارة القبور مطلقاً، بعد أن كان قد نهى عنها، وإنما رخص فيها لتذكر الآخرة؛ والدعاء للميت أو للأموات والاستغفار لهم. فهذا هو المشروع؛ وهو سبب الأذن في زيارة القبور، لا لدعائهم والاستشفاع بهم.

فإن هذا لم يشرعه الله ولا رسوله؛ بل نهى عنه وحرمه؛ كما تقدم في الآيات المحكمات. فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم. فإن أهل القبور لا ينفعون ولا يضرون. ولا يسمعون ولا يستجيبون بنص القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فقال ﴿ ٣٩ : ٣٨ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره؛ أو أرادني برحمة هل ممسكات رحمته ؟ قيل حسبي الله عليه يتوكل المتكبون ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم؛ ويتوكل عليهم، ويسألهم جلبُ المنافع ودفع المضار. فهو كافر بإجماع المسلمين. فإن الله جعل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وسائط في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده. فليس لأحد طريق إلى الله إلا بمتابعة الرسول بفعل ما أمر وترك ما حذر. وأما إجابة الدعوات، وتفريج الكربات. فهذا لله وحده لا يشركه فيه أحد. ولهذا فرق الله سبحانه وتعالى في كتابه بين ما فيه حق للرسول وبين ما هو لله وحده. كما في قوله تعالى ﴿ ٢٤ : ٥٢ ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ فبين سبحانه ما يستحقه الرسول من الطاعة. فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله. وأما الخشية والتقوى فجعل ذلك لله وحده. وكذلك قوله ﴿ ٩ : ٥٩ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ فجعل الإيتاء لله وللرسول. وأما التوكل والرغبة فلله وحده. كما في قوله تعالى ﴿ وقال حسبنا الله ﴾ ولم يقل: ورسوله وقال ﴿ وإنا إلى الله راغبون ﴾ ولم يقل: وإلى رسوله. وذلك موافق لقوله تعالى في سورة ألم نشرح ﴿ فإذا فرغت فانصب

وإلى ربك فارغب ﴾ فالعبادة والخشية والتوكل والدعاء والرجاء والخوف لله وحده لا يشركه فيه أحد. وأما الطاعة والمحبة والإرضاء فعلينا أن نطيع الله ورسوله، ونحب الله ورسوله، ونرضى الله ورسوله لأن طاعته طاعة لله؛ وإرضاءه إرضاء لله، وحبه من حب الله. والله سبحانه لم يجعل أحداً من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والإلهية. قال تعالى ﴿ ٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال: ﴿ ٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال ﴿ ٥٣ : ٢٦ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال تعالى ﴿ ٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر.

وقال رحمه الله: والأعمال الدينية لا يجوز أن تتخذ سبباً إلا أن تكون مشروعة فإن العبادات مبناها على التوقيف. فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره: وإن ظن أحد أن ذلك سبب لحصول بعض أغراضه. وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة؛ وإن ظن ذلك موصلاً إلى بعض الأغراض. فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك.

فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة.

والمقصود هنا: أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك. بل هذا دين المشركين عباد الأوثان. وهو من الشرك الذي أنكره الله تعالى على النصارى واليهود حيث قال ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾.

ثم ذكر رحمه الله تعالى نحواً مما تقدم من قوله: فإن الله تعالى جعل الرسل

صلوات الله وسلامه عليهم وسائط في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده، فليس لأحد طريق إلى الله إلا بمتابعة الرسول بفعل ما أمر وترك ما حذر. ومن جعل إلى الله طريقاً غير متابعة الرسول للخاصة أو العامة فهو كافر بالله ورسوله، مثل من زعم أن من خواص الأولياء والعلماء والفلاسفة وأهل الكلام أو الملوك من له طريق إلى الله غير متابعة الرسول، ويذكرون في ذلك من الأحاديث المفتراة ما هو من أعظم الكفر والكذب. كقول بعضهم: أن الرسول ﷺ استأذن على أهل الصفة فقالوا اذهب إلى من أنت رسول إليه. وقال بعضهم: أنهم ليلة المعراج؛ لأخبروه بالسر الذي ناجاه الله به، وأن الله أعلمهم بذلك بدون إعلام الرسول. وقال بعضهم: أنهم قاتلوا في بعض الغزوات مع الكفار، وقالوا من كان الله معه كنا معه. ومثال هذه العقائد التي هي من أعظم الكفر والكذب.

ومثال احتجاج بعضهم في قصة الخضر وموسى عليهما السلام على أن من الأولياء من يستغني عن محمد ﷺ كما استغنى الخضر عن موسى[1]. ومثل قول بعضهم: أن خاتم الأولياء له إلى الله طريق يستغني به عن خاتم الأنبياء. وأمثال هذه الأمور التي كثرت في كثير من المنتسبين إلى الزهد والفقه والتصوف والكلام. وكفر هؤلاء قد يكون من جنس كفر اليهود والنصارى وقد يكون أعظم وقد يكون أخف بحسب أحوالهم.

قلت: والمقصود بما ذكرناه عن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: بيان ما وقع في الأمة مما يناقض ما جاءت به الرسل من توحيد العبادة التي أرسلوا

---

(١) يقول ابن عربي الحاتمي: إن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء. ويقول في غير موضع من كتبه عن نفسه: إنه خاتم الأولياء. ويقولون: أنهم يأخذون علمهم عن ربهم مباشرة فليسوا بحاجة إلى رسول: وهذا مذهب عامة أهل الطرق الصوفية.

به، ودعوا الناس إليه.

وقال رحمه الله تعالى في كتاب الاستغاثة في الرد على ابن البكري قال:

وسؤال الله بالميت والأقسام على الله به أو استحباب الدعاء عند تلك البقعة لم يكن هذا من فعل أحد من سلف الأمة لا الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، وإنما حدث بعد ذلك. وقد استفاض عنه ﷺ أنه قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا. قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً» وفي الصحيح أنه ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر له حسنها وتصاوير فيها فقال «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله، قال سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل. فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلا. ولو كنت متخذا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فاني أنهاكم عن ذلك» وفي السنن عنه ﷺ أنه قال «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني» وفي الموطأ وغيره عنه ﷺ أنه قال «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفي المسند وصحيح أبي حاتم عن ابن مسعود عنه ﷺ أنه قال «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد».

قلت: وقد ظهر مما تقدم من أدلة الكتاب والسنة وما قرره العلماء المحققون أن سؤال الميت والغائب والاستشفاع به والإقسام به على الله: أن

هذا من الشرك الذي حرمه الله، وأرسل الرسل وأنزل الكتب بالنهي عنه والبراءة منه، ومعاداة من فعله.

فتأمل ما ذكره الله تعالى في آيات الشفاعة وغيرها من محكمات القرآن الذي يجب على كل مكلف أن يتبعه فيما أمر به ونهى عنه، كما قال الله تعالى ﴿٧:٣ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكرون﴾ وقال تعالى ﴿٤٢: ٥٢، ٥٣ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان. ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلي صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور﴾ وقد صح عن النبي ﷺ بالإسناد المتصل الصحيح أنه قال «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله»[1].

---

(١) قال الشيخ حامد الفقي تعليقاً عن النصارى:
إن النصارى إنما وقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر بالله وبعيسى ابن مريم وبكل أنبياء الله ورسله وكتبه، كغيرهم من الذين كفروا من قبلهم ـ بسبب غلوهم في تعظيم عيسر حتى خرجوا به عن دائرة البشرية إلى الربوبية بنوته للرب وإنما كان ذلك بما أدخله عليهم الشيطان من عقيدة أن عيسى إذ جعله الله وأمه آية فخلقه من أم بدون أب ـ لا بد أن يكون له خصوصية عن كل البشر في أصل مادته بنوع ما ـ كما سيأتي بيانه ـ فأوحى الشيطان ذلك على السنة اليهود ألد أعداء عيسى، وغيرهم من وثنيين اليونان الذين كانت لهم آلهة ومعبودات أوحى إليهم الشيطان عبادتها وتقديسها، كما قال الله سبحانه ﴿٩: ٣٠ ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ وما كانت هذه الآلهة المقدسة إلا خلقاً من خلق الله، زين لهم الشيطان أنهم ارتفعوا في خلقهم وصفاتهم وأحوالهم عن طبيعة الخلق التي طبع الله أمثالهم الذين هم من جنسهم عليها، وذلك لأنهم حل فيه فيض من نور ربهم أو روح خاص انفصل عن ربهم، فرفعهم عن درجة الخلق إلى درجة قريبة من الرب الذي فاض عليهم نوره أو حل فيهم روحه الخاص بهم، وحين تمكن ذلك من قلوب الناس وعقولهم، أوحى إليهم الشيطان أن يحاولوا التعبير عن هذا المعنى الخاص بأولئك المقدسين، فأخذتهم الحيرة في اختيار اللفظ المؤدي لهذا المعنى: هل يقولون: إنهم خلق مثل غيرهم من الخلق؟ كلا. وكيف يسيغون ذلك، وهم في اعتقادهم قد ارتفعوا عن طبيعة الخلق، إذن فماذا يقولون؟ أوحى إليهم في ظلمة هذه الحيرة التي أوقعهم فيها من طريق جهلهم بالكتب المنزلة والأنبياء المرسلين، ومن طريق تمردهم الجامحة على الله وعلى سننه وعلى حدود ما أوقفهم بسنن الفطرة عنده، وحرصهم على تخطي ←

← هذه الحدود إلى الخوض فيما يعلو عن مدارك عطوهم مما لا سبيل لحواسهم إلى إدراكه. أوحى إليهم في وسط هذه الظلمات أن يسموا هؤلاء المقدسين: أبناء ربهم، لا على معنى البنوة البشرية أو الحيوانية، فإنها تكون خدعة سهل التخلص منها ببعض التفكر فيما يلحق هذه البنوة الحيوانية مما يرونه ويحسونه بحواسهم فيهم من التبدل والتغير والفناء. فحاطها بأوهام وتخييلات تزيدهم حيرة وضلالاً بما أوحى إليهم من أنها سر إرتباط هؤلاء المقدسين بربهم بسبب حلول النور أو الروح الخاصة المنفصلة عن الرب فيهم، على معنى يعجز القفل البشري أن يتصورها أو يحدد حقيقتها؛ فبقيت سراً محظور على أي إنسان أن يفكر في اكتناهه ورمزاً حرام على أي عاقل حله. فهي عقدة العقد التي لا حل لها أبداً ولا سلامة إلا بالبعد عنها وعن مسها بأي تفكير. والويل كل الويل لمن حاول ذلك. ومن هنا كانت بنوة برهما وبوذا عند وثني الهنود، وبنوة آلهة قدماء المصريين والفرس والآشوريين والرومان واليونان، وغيرهم من قدماء الوثنيين، وبنوة يعقوب وعزير وأحبار اليهود وكهانهم وبنوة عيسى ابن مريم ورهبان النصارى وقسيسيهم، بل وبنوة آلهة قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وبنوة الملائكة، واللات والعزى وغيرهم من آلهة العرب، وعلى أساس هذه البنوة الوهمية اتخذوهم وسائط بيهم وبين ربهم، لأنهم وسط بين عامة الخلق وبين الخالق. ويدلك بوضوح على عقيدة البنوة هذه ما حكى الله وقص عن كفر الوثنيين في كل أمة، وردهم على أنبيائهم، فالله يحكي أن قوم نوح غيرهم من الوثنيين استنكروا نبوة أولئك الأنبياء، لأنهم بشر مثلهم، وهذا بعيد فيما يتصورون، لأن الأنبياء يقولون إنهم وسطاء بين الله وبين الناس في تبليغ العلم والهدى، والحق الذي يحبه الله ويرضاه من الدين والعقيدة والعمل والشريعة، وهؤلاء الوثنيون لا يتصورون الوسائط إلا على صورة البنوة التي ارتفع إليها مقدسوهم بتلكالخصائص من النور أو الروح الخاص الذي حل فيهم منفصلاً عن الرب، وهم يرون أولئك الرسل يأكلون ويمشون معهم في الأسواق ويعيشون كما يعيش غيرهم من البشر، فمن هنا جاء استنكارهم وقولهم لكل رسول (مانراك إلا بشراً مثلنا) وقولهم (ومانرى لكم علينا من فضل) فهذا الفضل هو ما توهموه لمقديسهم من الزيادة في النور أو الروح الفائض عليهم من الله سبحانه: وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

وترى ذلك واضحاً في الآيات التي ينزه الله فيها نفسه سبحانه عن هذا النقص والعيب الذي تنقصوه به باعتقادهم وعبادتهم لأولئك الأنداد والآلهة الذي اتخذوهم من دونه، فاسمع إليه سبحانه إذ يقول في السور المكية التي يبطل فيها ويهدم عقيدة الوثنية في العرب ﴿٦: ٩٤ ــ ١٠٣ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء. لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون. إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحر ذلك الله. فأنى تؤفكون ــ إلى قوله ــ وجعلوا الله شركاء الجن ــ وخلقهم ــ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم. سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السموات والأرض، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه. وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ ويقول ﴿١٠: ٢٨ ــ ٧٠ ويوم نحشرهم جميعاً، ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزيلنا بينهم، وقال شركاؤهم: ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ــ إلى قوله قل من يرزقكم من السماء والأرض، أم من يملك السمع والأبصار؟ ومن يخرج الحي من الميت؟ ويخرج الميت من الحي؟ ومن يدبر الأمر؟ ←

← فسيقولون الله. فقل: أفلا تتقون؟ فذلكم الله ربكم الحق. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فأنى تصرفون ـ إلى قوله ـ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا. إن الظن لا يغني من الحق شيئاً. إن الله عليم بما يفعلون ـ إلى قوله ـ قل: يا أيها الناس، قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ـ يعني أن القرآن هو الشفاء لما في صدوركم من الشبهات التي قذفها شياطين الجن والإنس في قلوبكم وأوقعوكم بها في حيرة وظلمات بعضها فوق بعض تهيأ لهم بسببها أن يلقوا في قلوبكم هذه الأوهام والخيالت التي أضلوكم بها، فاتخذتم من الخلق أنداداً للخالق وتنقصتم الله الذي هو ربكم الحق، ولا شفاء ولا هدى ولا رحمة لكم إلا بهذا العلم البين الواضح المنزل من عند الحكيم الخبير ـ ثم قال: ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض. وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ـ يعني مستحيل أن يكون لهؤلاء المقدسين ما زعمتم من هذا النور أو الروح الفائض الذي جعلتموهم به شركاء لله في صفاته والخيال أي برهان لا حسي ولا عقلي ولا علمي، ومن ثم ألبستموه ثوب السرية والرمزية الوهمية ـ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون. هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً. إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. قالوا اتخذ الله ولداً. سبحانه، هو الغني له ما في السموات وما في الأرض. إن عندكم من سلطان بهذا؟ أتقولون على الله ما لا تعلمون؟ قل: إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ ويقول ﴿ ١٧ : ١١١ وقل الحمدلله الذي لم يتخذ ولداً. ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذي وكبره تكبيرا ﴾ يقول سبحانه: أحمد الله الذي هو حقيق بالحمد على كل صفاته العلا وأسمائه الحسنى، وعلى خلقه وتدبيره الحكيم. فإن ذلك دليل بين واضح على أنه مستحيل عليه الولد وانفصال شيء عنه، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ومن ثم فمحال أن يكون له شريك في ملكه من ذلك الولد الذي توهمتموه وتخيلتموه بوحي الشيطان، فجعلتموه شريكاً له في الصفات وشريكاً له في الملك، وشريكاً له في أنفسكم وقلوبكم وأموالكم بعبادته بأنواع العبادة والتقديس، وذلك أعظم تنقيص لرب العزة سبحانه، وهو الذي لا يليق به إلا أن تُكبر أعظم تكبير، ولا يكون ذلك إلا بأن يجعل كل الخلق في منزلتهم الحقيقة من الذل والفقر والحاجة المطاقة والتصغير الذاتي أمام الرب القوي العزيز الواحد القهار، ويقول سبحانه ﴿ ١٨ : ٤، ٥ وينذر الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، ما لهم به من علم، ولا لآبائهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا ﴾ ويقول أيضاً ﴿ ١٩ : ٨١ ـ ٩٥ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً. ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ـ إلى قوله ـ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً. وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إذا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوة للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عداً. وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ فمن هو هذا الولد المقصود في هذه الآيات؟ أهو عيسى والعزير والملائكة فقط؟ كلا بل هو الذين اتخذوهم آلهة وشفعاء ليكونوا لهم عزا. وعجز الآيات في إحصائهم وعدّهم والإتيان بهم يوم القيامة كل فرد وحده دليل على ذلك. وكذلك يقول ﴿ ٢١ : ١٦ ـ ٣٥ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذنا من لدنا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون. وله من في السموات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا ←

→ يفترون. أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا. فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يسأل عما يفعل. وهم يسئلون إلى قوله ـ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى. وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إني آله من دونه فذلك نجزيه جهنم، كذلك نجزي الظالمين ـ إلى قوله ـ كل نفس ذائقة الموا ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾. فليست هذه الولدية خاصة بالملائكة، بل هي عامة في كل عبد أكرمه الله بالنبوة أو الرسالة، أو الإيمان والاستقامة على الدين الحق، بحيث لم يكن أحد من هؤلاء المكرمين يسبق شرع ربه ولا أمره. فلا يقول في الدين عقيدة وعبادة ولا يعمل إلا بأمر الله، ويخضع هواه للحق الذي قاله الله وأمر به، كما جاء في الحديث «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» ولذلك وصفهم بالاشفاق من خشيته سبحانه، كما وصف المتقين بعد آيات بأنهم ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ ووصف أنبيائه في آخر هذه السورة بقوله ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ وفي قوله في وصف الصابرين الشاكرين من سورة المعارج ﴿ والذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ وقد تكرر هذا الوصف في القرآن كثيراً للمؤمنين المتقين الذي يهتدون وكتب الله المنزلة، مما يدل على أن هذه الولدية التي ينزه الله نفسه عنها ليست قاصرة على ولدية الملائكة، بل هي تشمل كل ما اعتقده الوثنيون من ولدية الأنبياء والصالحين بعد موتهم وغيرهم من البشر والجن، بما أوحى إليهم الشيطان كفراً بأولئك الأنبياء وعداوة لهم. ويقول الله سبحانه ﴿ ٢٥: ٢، ٣ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا. واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون. ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ وهذه وآية الإسراء السابقة تدل دلالة تامة على ملازمة الشرك بالأولياء والصالحين لعقيدة الولدية، لا تنفك عنها وتلازم تنقيص رب العزة وتنافي كبرياءه وعظمته. ويدل لذلك أيضاً سورة ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن كفوا أحد ﴾ جمعت كل أنواع التوحيد فالله الأحد. المتوحد في ذاته وصفاته وأسمائه، ومحال عقلاً وعلماً عليه الأثنينية في أي ناحية من النواحي، ثم هو الذي يلزم من أحديته هذه أن يكون الصمد الذي يقصد ويصمد إليه كل عبد وكل مخلوق في جميع شئونه. لأنه المتوحد بخلقه والمتوحد في تدبيره بعلمه وحكمته ورحمته ونعمته وقدرته وإرادته فإذا تحقق هذا بطلت عقيدة الولدية التي أوحاها الشيطان وخيلها للوثنيين في مقدسيهم وآلهتهم الذين زعموا أنهم من جنس الله، أو أن فيهم جزء انفصل من الله، هو النور أو الروح الذي فاض عليهم، وكانوا به الخلق الأول. فإذا بطلت هذه العقيدة الفاسدة وتلاشت زهق الوهم الكاذب والظن الخادع الذي سموه بوحي الشيطان سراً في هؤلاء المقدسين من الخلق؛ وانكشفت حقائقهم التي كانوا عليها بطبيعتهم التي خلقهم الله بها وجبلهم كغيرهم عليها، وأن العلم مهما بلغ والعبادة مهما كانت آناء الليل وأطراف النهار؛ وأن الرياضة والتنسك لن يكون شيء من كل ذلك مستطيعاً أن يغير سنة الله في الخلق البشري أو غيره. فالأنبياء بشر في خلقهم وأجسامهم وحياتهم وموتهم ككل البشر، ومن دونهم أولى فيستحيل عندئذ أن يكون لله كفو أو مثيل أو عدل في الصفات أو العبادة من هؤلاء الأنبياء الذين هم صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده؛ فضلاً عمن هو دونهم من بني آدم؛ فضلاً عن الجن والملائكة والحيوان والشجر والحجر، الذي اتخذ الوثنيون من كل ذلك عدلاً لله ونداً وكفواً؛ سبحانه وتعالى عما يتوهمون ويظنون ←

ويقولون علواً كبيراً.

إذا عرفت هذا جيداً وتدبرت كل آيات الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في هدم العقيدة الوثنية، وعرفت أن النصارى يصرحون في كتبهم بأن الله منزه عن الولادة البشرية، وأن ولادة عيسى ليست إلا على معنى أنه: الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله؛ مولود منبثق غير مخلوق، بمعنى أنه فائض من الله ويقولون في كتبهم إن عبارة الابن لا تشير ـ كما فهم البعض خطأ ـ إلى الولادة البشرية ولكنها نسبة سرية أزلية تفوق الإدراك. وهم يقررون في صراحة أن عيسى ابن مريم هو ابن يوسف النجار؛ فهو في ناسوته ابن بشري ليوسف النجار. فهو عندهم ليس آية في ولادته من مريم بدون أب. كما هو الواقع الذي فعله ولله. ونؤمن به يقيناً. ولكنه مولود ولادة بشرية عادية من أبيه يوسف النجار، وهو مع ذلك في لاهوته أو نورانيته؛ وسريته؛ ابن منبثق عن الله في الأزل قبل الدهور غير مخلوق.

إذا تقرر هذا عرفت مراد النبي ﷺ من نهيه أمته وتحذيرها أن تغلو في الثنء عليه غلو النصارى في عيسى ابن مريم؛ وبيانه ﷺ الواضح أنه «عبدالله ورسوله» ككل عباد الله المرسلين؛ كما أكد الله ذلك في رده على الذين كانوا يستنكرون عليه ويعجبون أن يبعثه الله إليهم لأنه في نظرهم وفي الواقع بشر مثلهم؛ فأخذوا يفترحون عليه ما حكاه الله بقوله ﴿١٧ : ٩٠ ـ ٩٥ وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء ـ كما زعمت ـ علينا كسفا؛ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء ـ ولن نؤمن لرقيك ـ حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل: سبحان ربي! هل كنت إلا بشراً رسولا؟﴾ فرد عليهم مؤكداً أنه لا يملك شيئاً من كل ذلك لأن سنن الكون بيد الله رب الكون العليم الحكيم لا بيده وإنما هو عبد بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ميزه الله عن البشر أمثاله بأن أرسله وأوحى إليه إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه، وأن الويل كل الويل لأولئك المشركين الذين لايزالون أنفسهم من نجاسة هذه الجاهلية التي أوحى بها شياطين الجن إلى شياطين الإنس من سادتهم وشيوخهم ورؤسائهم.

وعرفت أن إطراء النصارى عيسى إنما كان بزيادة صفات له لا وجود لها وليس لها حقيقة في واقع الأمر، وإنما هي خيال ووهم أوحاه الشيطان، من هذه الولادة وانبثاق النور الأزلي والنسبة التي تفوق المدارك، ولا ينبغي البحث عنها، حتى كان عيسى معتقد النصارى ـ في الواقع وهما وخيالاً لا وجود له إلا في أدمغتهم، وأنه بلا شك عند التأمل والتحقيق ليس هو عيسى ابن مريم عبدالله ورسوله الذي جعله الله وأمه آية للعالمين، وأن عقيدتهم هذه الفاسدة أبينَ الفساد هي بعينها عقيدة الوثنيين الذين كفروا من قبلهم، نقلها إليهم الشيطان بكيده ومكره باسم جديد هو ولدية عيسى، وأنه النور الأزلي الذي انبثق أولاً من الله سبحانه وتعالى.

ثم عرفت أيضاً أن الإطراء الذي نهى الرسول ﷺ عنه، كإطراء النصارى عيسى ـ إنما اختراع وابتداع صفات لم تكن لرسول الله في الواقع ونفس الأمر؛ لأن الله لم يذكرها ولم يثن عليه بها، ولو كانت لأثنى الله عليه بها، دفاعاً عنه وإشادة به، ورداً لطعن أعدائه واستنكارهم أن يبعثه الله إليهم بشراً رسولا، وأن الرسول ﷺ إنما نهى هذا النهي بإعلام من الله له بأن أمته ستفعل وتقول وتعتقد فيه عقيدة النصارى في عيسى ابن مريم، وأن الشيطان سيأخذ بها إخذ غيرها من الأمم الوثنية الكافرة السابقة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، وأن أخبث الأمور وأيسرها على الشيطان أن يقودهم بها

إلى هذا الطريق: أن يستخرجهم من حظيرة الإسلام بحبل دقيق. هو حبل الإطراء والغلو في وصف شخصه ﷺ بما هو مخالف للواقع الذي خلقه الله عليه من البشرية المماثلة لكل البشر، فيوحي إليهم بما أوحى إلى الذين كفروا من قبل: بأنه أول خلق الله وأنه النور الفائض من الله، وأنه قبضة النور، وأنه سر الأسرار، وأنه نور عرش الله وأن اسمه مكتوب على ساق العرش من نور، وأنه النور الذي خلق منه كل شيء وأنه الذي انشقت منه الأنوار، وانفلقت عنه الأسرار، وتنزلت فيه علوم آدم فأعجز الخلائق وأنه غير ذلك من الافك والبهتان الذي أوحاه الشيطان إلى أوليائه الصوفية فنشروه وزخرفوه للعامة والطغام بأنه مدح وثناء على الرسول ﷺ، وما هو في الواقع الا كفر به وتكذيب له، وللقرآن الذي جاء به من عندالله، الذي سجل فيه في غير خفاء مراراً ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدلون﴾ ﴿إنك ميت وانهم ميتون﴾ إلى غير ذلك من النصوص الواضحة في القرآن الحكيم وفي السنة المتواترة التي لا تحمل أي تأويل. لمن له قلب يفقه وعين تبصر وأذن تسمع ولكن أكثر الناس لا يفقهون، لأنهم بدلوا نعمة الله عليهم في أنفسهم وسمعهم وبصرهم وعقلهم كفراً بالتقليد الأعمى الذي انسلخوا به من آيات الله كلها، فأتبعهم الشيطان فكانوا من الغاوين، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

فقلدوا رؤساء الزيغ وحزب الشيطان الذين يتبعون من القرآن ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. ليحرفوه عن موضعه، ويتبعون الواهيات من الأقوال التي وضعها شيوخهم على رسول الله، ورواها الذين لا يميزون الصحيح من السقيم. فكانت البلية عظيمة، وكان الشر المستطير الذي تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا.

فلما صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه في هذه العقيدة الوثنية الكافرة أشد الكفر وأقبحه وأخبثه، جرهم إلى أن يعتقدوا هذه العقيدة في علي وفاطمة وأبناء علي وفاطمة، لأنهم بضعة من رسول الله، ثم جرهم إلى اعتقادها غي غير أولاد علي من كل صوفي مشعبذ دجال من أولياء الشيطان، حتى صرحوا بأنهم قد انخلعوا عن البشرية واتحدوا بالله؛ فجاز لهم بزعمهم الفاجر أن يقول شيوخهم: أنا الله وسبحاني سبحاني، مما طفحت به كتبهم عن سادتهم وكبرائهم، كأبي يزيد البسطامي وإبراهيم الدسوقي وأبي سعيد الخراز والحسين الحلاج وابن عربي وابن الفارض، وغيرهم من كل شيوخهم أولياء الشيطان قبحهم الله وأخزاهم في الدنيا والآخرة.

وإذ صدق عليهم إبليس ثنه في هذه العقيدة الوثنية، فما يمنعه بعد ذلك ان يدعوهم أن يتخذوهم أنداداً وآلهة مع الله، يقيمون لهم الهياكل والمعابد الوثنية، التي ما أرسل الله رسله ولا أنزل كتبه ولا بعث رسول الله ﷺ إلا لهدمها. وكان من هادميها بأمر رسول الله علي بن أبي ثالب رضي الله عنه حين بعثه ﷺ إلى اليمن. فها هي قائمة في كل بلد من بلاد المسلمين يهتف فيها بعبادة الشيطان، وينادي باسمه في الليل والنهار ويتقرب له بكل القربات. ويدعي أخلص الدعوات و ﴿إن يدعون إلا شيطانا مريداً، لعنة الله؛ وقال. لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولأضلنهم ولأمنيهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام. ولآمرنهم فليغيرن خلق الله. ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾ وأصبح ذلك الشرك وهذه الوثنية دينهم الذي يزعمونه الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ يعادون من أجله ويحاربون بكل ما أوتوا من قوة الله ورسوله وأولياءه الذين عزروه ونصروه واتبعوه النور الذي أنزل معه. وكل ذلك على أساس عقيدة الولدية والبنوة لله سبحانه بأسماء جديدة ما أنزل الله بها من سلطان.

ودليل ذلك واضح بين في أقوالهم وأعمالهم ـ مهما حاول لهم شيطانهم وجهلهم ـ أن ينكروا أنهم يعتقدونها. ذلك أنهم يقولون: إنهم أحياء، وإنهم يسمعون ويرون من قريب ومن بعيد، لا يقوم أي حجاب دون سمعهم وبصرهم؛ وأنهم قادرون رحماء أغنياء كقدرة الله ورحمته وغناه سواء. فما هي هذه الحياة؛ وقد ماتوا وغسلوهم وكفنوهم ودفنوهم تحت الثرى كشأن كل البشر؟ إنها حياة بزعمهم من جنس حياة الله الحي الذي لا يموت، ومن ثم أعطوهم سمعاً كسمع الله يدعونهم من قريب ومن بعيد، كما يدعو المؤمن ربه السميع، وبصراً لا يحجبه شيء كبصر الله. يقولون لهم: نظرة يا أسيادي؛ أي نظرة عطف ورحمة وعناية؛ كما يطلب المؤمن ذلك من ربه حين يقوم في صلاته فيسوي صفه؛ كما أمره رسول الله، ويوفون بما عاهدوا الله ولايشترون بأيمانهم ثمناً قليلاً، ليحظوا بنظر الرحمة والعطف والعناية من الله، كما وعدهم الله ورسوله ـ ووصفوهم بالقوة والمعية فيطلبون منهم المدد وأن يكونوا معهم بالحفظ والحياطة، كما يطلب المؤمن ذلك من الله القوي العزيز الذي رحمته قريب من المحسنين. وهو مع الذين أتقوا والذين هم محسنون، ويسألونهم كل شيء حسني ومعنوي، وما ذلك إلا لاعتقادهم غناهم الغني المطلق وقدرتهم على العطاء كغنى الله وقدرته سواء، ويطوفون حول رجومهم وأنصابهم ويعظمون شعائرهم ويقدسون آثارهم وأعيادهم؛ كما يطوف المؤمن ببيت الله الحرام ويعظم شعائره ويحتفل بعيدي الفطر والأضحى، ويخافونهم كخيفة الله، بل أشد لأنهم يحرصون على نذورهم وأعيادهم وعبادتهم أشد من حرصهم على أداء حقوق الله. ويعللون ذلك بأنهم إن لم يفعلوا يعجلون الانتقام منهم والتصرف فيهم بأنواع العقوبة ويقولون: لهم ما يشاءون. أي لهم مطلق التصرف في ملك الله بالعزل والتولية والقبض والبسط والخفض والرفع والقهر والتحكم في الله. كما صرح بذلك الشعراني وغيره من هؤلاء الصوفية الوثنيين، ويقولون: فيهم شيء لله؛ وحقيقتها التي يوضحها ويصححها عملهم: فيهم شيء من الله، إذ ترى في كتبهم وتسمع على ألسنتهم: إنهم من نور الله، وفاض عليهم نور الله. وهي بعينها كلمة النصارى: عيسى النور الأزلي المنبثق من الله، ولكنها في ثوب جديد لتروج على الغافلين الذين كذبوا بآيات الله واتخذوها وراءهم ظهرياً، وألقوا بقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم إلى الشيطان مولاهم فصدق عليهم ظنه فاتبعوه. وما أدل قول الله ﴿ ٣٩: ٢، ٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون. إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار. لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء. سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ على عقيدة الولدية عنه هؤلاء المشركين.

ألا يدل كل ذلك مع تدبر آيات الله وفقهها على حقيقتها دلالة واضحة لا خفاء فيها على أن الشيطان قد كاد للناس اليوم كيده للوثنيين الأولين، فأوحى إليهم عقيدة البنوة والوالدية لله بأسماء جديدة، كشأنه في كل ما يوسوس به ويكيد لعدوه الإنسان، وأنه ركب الصوفية إلى غرضه هذا كما ركبها في وثني الهند والفرس واليونان سواء بسواء والباحث المتحري الحقائق يلمس ذلك واضحاً من تاريخ حدوث الصوفية ودخولها بلاد المسلمين ويضع يده على سلسلة الوثنية، فيجد طرفها الأول مع طرف الصوفية، ثم يمشيان متلازمين إلى اليوم؟؟ وإن كان أكثر الناس ـ إن لم أقل كلهم ـ غافلاً عن ذلك أشد الغفلة، بسبب عمي البصيرة بغشاوة التقليد الذي هو مفتاح كل شر.

وإذا تبين ذلك واتضح فقد تبين وعرف الداء الوبيل والمرض القتال الذي نخر في نفوس المسلمين وهد كيانهم حتى صاروا إلى هذه الذلة والصغار والمسكنة والتفرق والخزي. فليبادر مريدو الإصلاح ومحبوه في العمل على إنقاذ المرضى بعلاج الإسلام الصحيح ومداواتهم بالدواء الشافي من كتاب الله

قال ابن الأثير وغيره: هما في معناه أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام. فادعوا فيه الآلهية، إنما أنا عبدالله، فصفوني بذلك كما وصفني ربي «فقولوا عبدالله ورسوله» فأبى المشركون أن يقبلوا ما أمرهم به وأن يتركوا ما نهاهم عنه، وناقضوه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة.

وذلك أن الشيطان أظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعث الله به رسله في قالب التنقص للنبي ﷺ، وأظهر لهم ما نهاهم النبي ﷺ عنه في قالب محبته وتعظيمه.

ومن تأمل ما أمر به النبي ﷺ ومانهى عنه علم يقيناً أن هؤلاء هم المتنقصون الناقصون لأنهم أفرطوا في تعظيمه بارتكاب مانهى الله عنه في كتابه، في مواضع لا يمكن حصرها من دعوة غيره خصوصاً وعموماً. ثم إن هؤلاء فرطوا في متابعته ﷺ فلا أخذوا بقوله ولا اتبعوه في فعله، بل ولا رضوا بحكمه وأمره، ولا سلموا له. وهذا الذي تركوه هو الذي يحصل به تعظيم الرسول ﷺ. فيعظم أمره ويقبل، ويعظم نهيه ويترك. ويكون هو المتبع المطاع. ويدعو إلى دينه الذي دعا إليه من إخلاص العبادة لله وحده، وينصره بنصرة مابعث به من الحق، ويواليه بالمتابعة والاقتداء بهديه ويعادي من خالفه بارتكاب مانهى عنه.

وأنت ترى ما وقع اليوم وقبله من كثير من الجهال من الإفراط والتفريط

← وهدي رسول الله. فلا علاج ولا شفاء إلا بذلك. كلوكل محاولة للإصلاح أو العلاج على غير هذا الأساس، فإنها تكون على جهل بأصل الداء والعلة، وإنها إذن مضحكة للشيطان. بل إنها والله من كيده وتعميته ووساوسه والله يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم ولن يكون هذا الصراط إلا على كتاب الله وسنة رسوله. كما أخبر الناصح الصادق ﷺ «تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

فلذلك قال ﷺ «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بالأسانيد المتصلة عن ابن عباس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا عام في جميع أنواع الغلو بالاعتقادات والأعمال ثم إنه علله بما يقتضي مجانبة هدى من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك انتهى.

قلت: وقد حذر النبي ﷺ الأمة أعظم تحذير من الغلو وأسبابه الموصلة إلى الشرك بالله. فقال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من المحدثين في كتبهم بأسانيد صحيحة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور. فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله» وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور. يحقق ذلك أنه ﷺ «لعن من فعل ذلك».

قال شيخ الإسلام: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور، هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك. فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو بحجر. ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها. وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجون في المساجد. فلأجل

هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته، كما يقصد في صلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها. لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ، وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سداً للذريعة.

وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن الله به.

فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها؛ وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد.

فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك: الصلاة عندها واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها. متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك.

قلت: والأحاديث الصحيحة تدل على ذلك بلا ريب، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه. فإذا اغتم بها كشفها. فقال ـ وهو كذلك ـ لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما فعلوا».

قلت: ومن المعلوم أن اللعنة إنما تقع على من فعل ذلك الاتخاذ لأنه من

فعل اليهود والنصارى[1]. فمن فعل فعلهم وقع به ما وقع بهم، لأنه من أعظم الذرائع الموصلة إلى الشرك. وهذا الذي لعن النبي ﷺ اليهود والنصارى على فعله قد وقع من كثير من هذه الأمة بعد القرون المفضلة.

قال القرطبي في معنى هذا الحديث: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها. كما كان السبب في عبادة الأصنام. قال: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ قبره قبلة، إذا كان مستقبل المصلين. فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة. فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره انتهى.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ـ الآية﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها أنصاباً، وسموها بأسمائهم: ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عبدت.

---

(١) واليهود والنصارى إنما فعلوا ذلك مضاهاة للوثنيين الذين كفروا من قبلهم من قوم نوح فمن بعدهم. والرسول ﷺ لم يلعن اليهود والنصارى لأشخاصهم أو لا سمائهم؛ وإنما لعنهم لعناً معللاً بهذا الفعل، ومعناه الذي لا شك فيه: أنه كلما وجدت هذه العلة وجدت اللعنة. ولم يمنع منها أسماء ولا دعاوى كاذبة. فإن الله سبحانه لا يخدع. والرسول ﷺ لم ينه أمته ويحذرهم هذا التحذير في آخر حياته ﷺ إلا لأنه يعلم يقيناً أنه سيكون منهم هذا العمل، فهو يقيم عليهم الحجة، ويقطع المعاذير ويبلغ الرسالة ويؤدي الأمانة وينصح الأمة ﷺ وجزاه الله خير الجزاء. ولكن أعرض الناس عن سنته وشموا آذانهم عن نصيحته واستجابوا لداعي الشيطان حين دعاهم بالتقليد إلى الكفر بالله فحقت عليهم اللعنة.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومازال الشيطان يوحى إلى عباد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أصحاب القبور من الأنبياء والصالحين وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى ما هو أدخل في الضلال من الدعاء بهم والإقسام على الله بهم فأن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائهم وعبادتهم وسؤالهم الشفاعة من دون الله واتخاذ قبرهم وثنا تعلق عليه الستور والقناديل، ويطاف به، ويستسلم ويقبل، ويحج إليه، ويذبح عنده. فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادة القبر واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم.

وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ: من تجريد التوحيد، وأن لا يعبد إلا الله، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أن لا حرمة لهم ولا قدر، وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم كما قال تعالى ﴿ ٣٩: ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام. وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم، ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك. وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون انتهى .

وقد تقدم وأعيد ليستحضر.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والذي يجري عند المشاهد من جنس ما يجري عند الأصنام. وقد ثبت بالطرق المتعددة أن كل ما يشرك به من دون الله من صنم أو وثن أو قبر قد يكون عنده شياطين تضل من أشرك به، وأن تلك الشياطين قد يقضون بعض أغراضهم، وإنما يقضونها إذا حصل منهم الشرك والمعاصي. ومنهم من يأمر الداعي أن يسجد له؛ وقد ينهاه عما أمره الله به من التوحيد والإخلاص والصلوات الخمس وقراءة القرآن، ونحو ذلك. وقد وقع في هذا النوع كثير من الشيوخ الذين لهم نصيب من ظاهر الدين والزهد والعبادة في نظر الناس، ولعدم علمهم بحقيقة الدين الذي بعث الله به رسله طمعت فيهم الشياطين، حتى أوقعوهم فيما يخالف الكتاب والسنة. وقد جرى لغير واحد من أصحابنا المشايخ أن يستغيث بأحدهم بعض أصحابهم فيرى الشيخ جاء في اليقظة حتى قضى ذلك المطلوب. وإنما هي شياطين تتمثل للذين يدعون غير الله. فالكافر للكافر والفاجر للفاجر والجاهل للجاهل.

قال رحمه الله تعالى: وقد حدثني بعض الثقات عن هذا الشخص - يعني ابن البكري الذي جوز في كتابه الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث بالله - إلى أنه كان يقول: النبي ﷺ علم مفاتيح الغيب التي قال فيها النبي ﷺ «خمس لا يعلمها إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث. ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت» وأظنه ذكر عنه أنه قال: علمها بعد أن أخبره أنه لا يعلمها إلا الله. وآخر من جنسه يباشر التدريس وينسب إلى الفتيا، كان يقول: إن النبي ﷺ يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر الله عليه، وأن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن، ثم انتقل في ذرية الحسن إلى الشيخ

أبي الحسن الشاذلي وقالوا هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع[1] .

قلت: وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام هو مضمون أبيات البردة التي نصرها داود وأمثاله، مما استحسن الشرك بالله، وأجاز أن يدعي مع الله غيره، ويستغاث بغيره. ولا ريب أن المفتتن بهذه الفتن الشركية كثير في هذه الأزمنة وقبلها. فسلكوا سنن من كان قبلهم من المفتونين الذين نقلنا عن شيخ الإسلام رحمه الله بعض ماجرى منهم. نعوذ بالله من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال. فما أكثر من فتن في هذه الأزمنة وقبلها بمثل فتنة المسيح الدجال، بما غرتهم به الشياطين من الإنس والجن الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ ٦: ١١٢، ١١٣ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾.

وقال رحمه الله تعالى: ومازال المشركون يسفهون الأنبياء ويصفونهم بالجنون والضلال والسفاهة، كما قال قوم نوح لنوح وعاد لهود عليهما السلام ﴿ ٧: ٧٠ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ فأعظم ما سفهوهم لأجله وأنكروه عليهم إنما هو التوحيد، وهكذا تجد من عليه شبه من هؤلاء إذا رأى من يدعو إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، وأن لا يعبد الإنسان ولا يتوكل إلا عليه استهزؤا بذلك لما عندهم من الشرك. فإنهم اعتقدوا أن دعاء الميت الذي بنى له المشهد والاستغاثة به أنفع لهم من دعاء الله والاستغاثة به في البيت الذي بنى خالصاً لله عز وجل، ففضلوا البيت الذي بني لدعاء الميت.

---

(١) وهذا بناء على اعتقادهم أن في الرسول وأبنائه وشيوخ الصوفية: من صفات الربوبية، على مثال اعتقاد النصارى في عيسى. كما تقدم بيان ذلك وشرحه فكن على ذكر من ذلك ينكشف لك حال المشركين واعتقادهم جميعاً بنوة الرسول وأبنائه وأوليائهم لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم منه، مضاهاة لمشركي العرب الذين ذكر الله حالهم في قوله تعالى ﴿ ٦: ١٣٦ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً. فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم. ساء ما يحكمون ﴾.

وهكذا هذه النذور والوقوف التي تبذل عندهم للمشاهد أعظم مما تبذل عندهم للمساجد ولعمارة المساجد والجهاد في سبيل الله. وهؤلاء إذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه يبكي عنده ويخضع، ويدعو ويتضرع، ويحصل له من الرقة والتواضع والتذلل والعبودية وحضور القلب ما لا يحصل له مثله في الصلوات الخمس والجمعة وقيام الليل وقراءة القرآن. فهل هذا إلا من حال المشركين والمبتدعين لا الموحدين المخلصين، المتبعين لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟ إلى أن قال رحمه الله:

والذي يجعلون دعاء الموتى من الأنبياء والأئمة والشيوخ أفضل من دعاء الله؛ أنواع متعددة. منهم من تقدم.

ومنهم من يحكي أنواعاً من الحكايات مثل حكاية أن بعض المأسورين في بلاد العدو دعا الله فلم يخرجه؛ ودعا بعض المشايخ الموتى فأخرجه إلى بلاد الإسلام.

ومن هؤلاء من إذا نزلت به شدة لا يدعو إلا شيخه ولا يذكر إلا اسمه يلهج به كما يلهج الصبي بذكر أمه.

فإذا كان دعاء الموتى مثل الأنبياء والصالحين يتضمن هذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، فأي الفريقين أحق بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله: من كان

يأمر بدعاء الموتى والاستغاثة بهم مع ما يترتب على ذلك من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله؛ أو من كان يأمر بدعاء الله وحده لا شريك له. كما أمرت رسله؛ ويوجب طاعة الرسول ومتابعته في كل ما جاء به؟ إلى أن قال:

وأما أولئك الضلال أشباه المشركين النصارى فعمدتهم إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة؛ أو منقولات عمن لا يحتج بقوله؛ إما أن تكون كذباً عليه؛ وإما أن يكون غلطاً منه؛ إذ هي نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم. وإن اعتصموا بشيء مما ثبت عن الرسول حرفوا الكلم عن مواضعه؛ وتمسكوا بمتشابهه، وتركوا محكمه كما يفعله النصارى؛ وكما فعل هذا الضال ابن البكري. أخذ لفظ الاستغاثة؛ وهي تنقسم إلى الاستغاثة بالحي وبالميت. والاستغاثة بالحي تكون فيما يقدر عليه وما لا يقدر عليه. فجعل حكم ذلك كله واحداً. ولم يكفه ذلك حتى جعل السؤال بالشخص من مسمى الاستغاثة أيضاً ولم يكفه من جعل الطالب منه إنما طلب من الله لا منه فالمستغيث به مستغيث بالله ثم جعل الاستغاثة بكل ميت من نبي وصالح جائزة.

فدخل عليه الضلال والخطأ من وجوه:

منها أنه جعل المتوسل به بعد موته في دعاء الله مستغيثاً به. وهذا لا يعرف في لغة أحد من الأمم، لا حقيقة ولا مجازاً، مع دعواه الإجماع على ذلك. فإن المستغاث هو المسئول المطلوب منه لا المسئول به.

الثاني: ظنه أن توسل الصحابة به في حياته كان توسلاً بذاته لا بدعائه وشفاعته فيكون التوسل به بعد موته كذلك. وهذا غلط فاحش.

الثالث: أنه أدرج السؤال أيضاً في الاستغاثة به. وهذا صحيح جائز في

حياته فقط، وهو قد سوى في ذلك بين محياه ومماته. فقد أصاب في لفظ الاستغاثة، لكن أخطأ في التسوية بين المحيا والممات. وهذا ما علمته ينقل عن أحد من العلماء، لكنه موجود في كلام بعض الناس. مثل الشيخ يحيي الصرصري. في شعره قطعة منه، والشيخ محمد بن النعمان له كتاب المستغيث بالنبي ﷺ في اليقظة والمنام وهؤلاء ليسوا من العلماء العالمين بمدارك الأحكام الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام. وليس لهم دليل شرعي ولا نقل عن عالم مرضى، بل عادة جروا عليها. وكان بعض الشيوخ الذين أعرفهم ولهم ظاهر فضل وعلم وزهد إذا نزل به أمر خطا إلى جهة قبر الشيخ عبد القادر خطوات معدودة، واستغاث به. وهذا يفعله كثير من الناس. ولهذا لما نبه من فضلائهم تنبهوا وعلموا أن ما كانوا عليه ليس من دين الإسلام، بل هو مشابهة لعباد الأصنام.

وهذه الطريقة التي سلكها هذا الضال هي طريقة أهل البدع كداود بن جرجيس ـ الذين يجمعون بين الجهل والظلم فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة. ويكفرون من خالفهم في بدعتهم كالخوارج المارقين، لكن الخوارج كفروا الصحابة بالذنوب، وهؤلاء كفروا أهل الإسلام بالإخلاص والتجريد، كما قال العلامة ابن القيم في الخوارج:

ولهم نصوص قصروا في فهمها ... فأُتوا من التقصير في العرفان
وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

إلى أن قال:

وهو قد احتج بحديث الأعمى الذي قال «اللهم أني أتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة» وهذا الحديث لا حجة فيه لوجهين:

أحدهما: أنه ليس استغاثة، بل توجهاً به.

الثاني: أنه إنما توجه بدعائه وشفاعته فانه طلب من النبي ﷺ الدعاء وقال في آخر دعائه «اللهم فشفعه في» فعلم أنه شفع له. فتوسل بشفاعته لا بذاته، كما كان الصحابة يتوسلون بدعائه في الاستسقاء، وكما توسلوا بدعاء العباس بعد مماته. وكذلك في أول الحديث أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له. فدل الحديث على أن النبي ﷺ شفع ودعا له، وأن النبي ﷺ أمره أن يدعو الله وأن يسأله قبول شفاعة النبي ﷺ. وقوله «يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي» خطاب الحاضر في قلبه، كما نقول في صلاتنا؛ «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» وكما يستحضر الإنسان في قلبه من يحبه أو يبغضه ويخاطبه. وهذا كثير.

وما ذكره من توسل آدم وحكاية المنصور فجوابها من وجهين:

أحدهما: أن هذا لا أصل له، ولا تقوم به حجة، ولا إسناد لذلك.

الثاني: أنه على فرض صحته ـ لو دل على التوسل بذاته فلا يدل على الاستغاثة.

وأما إشتكاء البعير إليه، فهذا كاشتكاء الآدمي إليه. وقد قلنا إنه إذا طلب منه ما يليق بمنصبه فهذا لا نزاع فيه. والاستغاثة به في حياته فيما يقدر عليه لم ينازع فيها أحد. ولكن هذا أخذ لفظ الاستغاثة ومعناها العام فجعل يتشبث بضلاله ولكن النبي عاد إلى شيئين: إلى الاستغاثة به بعد الموت، وإلى أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

وأما قول هؤلاء الجهال: فيستلزم الردة عن الدين والكفر برب العالمين، ولا ريب أن أصل قول هؤلاء هو من باب الإشراك بالله الذي هو الكفر،

الذي لا يغفره الله؛ فإن الله سبحنه يقول في كتابه ﴿ ٧١ : ٢٣، ٢٤ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيراً ﴾.

وقد قال غير واحد من السلف: إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح. فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم. وقد ذكروا ذلك بعبارات متقاربة في كتب الحديث والتفسير، وقصص الأنبياء، كما ذكره البخاري في صحيحه وجماعة من أهل الحديث. وتقدم هذا في كلام شيخ الإسلام أيضاً. فأعدناه لعظيم فائدته.

وقد أمر الله نبيه أن يقول ﴿ ١٨ : ١١٠ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد. فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ فيقول أهل الضلال: هذا يقوله في نفسه. وأما نحن فليس لنا أن نقول هو بشر، بل نقول كما قال فلان وفلان. ومن زعم أن محمداً بشر كله فقد كفر[1]. وهذا يقوله طائفة منهم، وهو يشبه قول النصارى في المسيح. ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأحد أن يدعو أحداً من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين، ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن هذه الأمور كلها، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ﷺ. ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير

(١) وهذه هو قولهم: أنه النور الأول؛ وانه سر الأسرار، كما تقدم توضيحه وبيان حقيقته بأنه دعوى البنوة على مذهب النصارى الذين ضاهئوا في عقيدتهم هذه قول الذين كفروا من قبل. وتأمل حال الوثنيين اليوم في كل قطر ومصر واستمع إلى أقوالهم المنظومة والمنثورة تتبين لك الحقيقة سافرة إذا تجردت من التقليد الأعمى وأوهام أن هذا الزور والبهتان مدح في النبي ﷺ وبرأه الله مما يقولون. وإنما هو مدح وثناء على وهم وخيال أفرغه الشيطان وقاءه في خربات أدمغتهم التي أصبحت مزابل ومأوى لكل الحشرات والقذارات، لأنها كفرت بالقرآن وكذبت آيات الله ورسول الله.

من المتأخرين لم يكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه ـ إلى أن قال: رحمه الله تعالى:

وهؤلاء يدعون الميت أو الغائب، يقول أحدهم: بك أستغيث، بك أستجير أغثنا أجرنا. ويقول: أنت تعلم ذنوبي. ومنهم من يقول للميت: اغفر لي وارحمني وتب علي، ونحو ذلك. ومن لم يقل ذلك من عقلائهم فإنه يقول: أشكو إليك ذنوبي أشكو إليك عدوي، أشكو إليك ظهور البدع أو جدب الناس، أو غير ذلك، فيشكو إليه ما حصل من ضرر في الدين والدنيا، ومقصوده بالشكوى أن يشكيه. فيزيل ذلك الضرر وقد يقول مع ذلك للميت: أنت تعلم ما فعلته من الذنوب. فيجعل الميت والحي أو الغائب عالماً بذنوب العباد وجزئياتهم التي يمتنع أن يعلمها بشر، حي أو ميت. ثم منهم من يطلق سؤاله إليه والشكوى ظاناً أنه يقضي حاجته كما يخاطب ربه[1] بناء على أنه يمكن ذلك بطريق من الطرق. وأنه وسيلة وسبب. وإن كان السائل لا يعلم وجود ذلك.

وعقلاؤهم يقولون: مقصودنا أن يسأل الله لنا ويشفع لنا ويظنون أنهم إذا سألوه بعد موته أن يسأل الله لهم. فإن يسأل ويشفع بعد موته كما كان يسأل ويشفع في حياته، كما كانت تسأله الصحابة الاستسقاء وغيره، وكما يشفع يوم القيامة إذا سئل الشفاعة، ولا يعلمون أن سؤال الميت والغائب غير مشروع البتة، ولم يفعله أحد من الصحابة، بل عدلوا عن سؤاله وطلب الدعاء منه إلى سؤال غيره وطلب الدعاء منه، وأن الرسول وسائر الأنبياء والصالحين وغيرهم لا يطلب من أحدهم بعد موته من الأمور ما كان يطلب

---

(١) وما ذلك إلا لأنهم أعطوهم من صفات الربوبية واعتقدوا فيهم أنهم يقدرون ويعلمون ويرحمون ويغفرون ويسمعون ويبصرون، وأنهم أحياء كرب العالمين، وبذلك صدق عليهم إبليس ظنه في عقيدة البنوة لله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

منه في حياته والله أعلم انتهى كلام الشيخ رحمه الله.

وقال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحافظ رحمه الله تعالى: ومن جعل زيارة الميت من جنس زيارة الفقير الغني لينال من بره وإحسانه فقد أتى بما هو من أعظم الباطل المتضمن لقلب الحقيقة والشريعة. ولو كان ذلك مقصود الزيارة لشرع من دعاء الميت والتضرع إليه وسؤاله ما يناسب هذا المطلوب. ولكن هذا يناقض ما دعا إليه رسول الله ﷺ من التوحيد وتجريده مناقضة ظاهرة ولا ينبغي الاقتصار في ذلك على القول بأنه بدعة، بل هو فتح لباب الشرك وتوسل بأقرب وسيلة إلى الشرك.

قلت: ولا ريب أن هذا الذي ذكره هذا الإمام مطابق لحال داود، فإنه قلب الحقائق وفتح باب الشرك الأكبر.

ثم قال الحافظ رحمه الله: وهذا أصل عبادة الأصنام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولاسواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ قال هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح؛ فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم. فلما طال عليهم الأمد عبدوهم.

فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام.

يوضحه: أن الذين تكلموا في زيارة الموتى من أهل الشرك صرحوا بأن القصد انتفاع الزائر بالمزور. وقالوا: من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره. فإذا فاض على الروح الميت من العلويات الأنوار فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت، كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف، بواسطة مقابلته وهذا المعنى بعينه ذكره

عباد الأصنام في زيارة القبور[1] وتلقاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علما بالشرك وأسبابه ووسائله.

ومن هنا يظهر نهى النبي ﷺ عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها ولعنه فاعل ذلك، وإخباره بشدة غضب الله، ونهيه عن الصلاة إليها ونهيه ان اتخاذ قبره عيداً، وسؤاله ربه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد. فهذا نهيه عن تعظيم القبور، وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وهذا الذي ذكره عن المشركين هو قول ابن سينا تلقاه عنهم من تلقاه. وكلام العلماء في ذلك أكثر مما ذكرنا عن بعضهم بأضعاف.

وما ذكرنا هنا ففيه ما يكفي المستفيد الذي قصده تمييز الحق من الباطل. وأما من قصده الشقاق والعناد فلا حيلة فيه.

واعلم أن هذا المعترض لو نوقش على جميع ما يقع في كلامه من الدعاوى والخلل لطال الجواب. ولكن التنبيه على بعض ذلك كاف لمن له أدنى فهم أو عنده أدنى علم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية».

فصل

في بهت أهل الشرك والتعطيل في رميهم أهل التوحيد والإثبات بتنقيص الرسول ﷺ.

(١) وهذا هو حقيقة عقيدة الولدية والبنوة لله بفيوض الأنوار. فإن الفيض معناه عندهم الانفصال بلا مشيئة ولا إرادة. وما يسمونه فيضاً إلا للتمويه والتضليل فقط.

قالوا: تنقصتم رسول الله، وا عجباً لهذا البغي والبهتان
عزلوه أن يحتج قط بقوله في العلم بالله العظيم الشان
عزلوا كلام الله ثم رسوله عن ذاك عزلا ليس ذا كتمان
جعلوا حقيقته وظاهره هو الكفر الصريح البين البطلان
قالوا: : وظاهره هو التشبيه والتجسيم والتمثيل؛ حاشا لظاهر القرآن

إلى أن قال:

جعلوا عقولهم أحق بأخذ ما فيها من الأخبار والقرآن
وكلامه لا يستفاد به اليقيـ ـن لأجل ذا لا يقبل الخصمان
تحكيمه عند اختلافهما بل المعقول، ثم المنطق اليوناني
أي التنقص بعد ذا؟ لولا الوقا حة والجراءة يا أولى العدوان
يا من له عقل ونور قد غدا يمشي به في الناس كل زمان
لكننا قلنا مقالة صارخ في كل وقت بينكم بأذان
الرب رب، والرسول فعبده حقا. وليس لنا آله ثان
فلذاك لم نعبده مثل عبادة الر حمن، فعل المشرك النصراني
كلا ولم نغلُ الغلو كما نهى عنه الرسول مخافة الكفران
لله حق لا يكون لغيره ولعبده حق، هما حقان
لاتجعلوا الحقين حقاً واحداً من غير تمييز ولا فرقان
فالحج للرحمن دون رسوله وكذا الصلاة وذبح ذا القربان
وكذا، السجود، ونذرنا، ويميننا وكذا متاب العبد من عصيان
وكذا التوكل والإنابة والتقى وكذا الرجاء، وخشية الرحمن
وكذا العبادة واستغاثتنا به إياك نعبد، ذان توحيدان
وعليهما قام الوجود بأسره دنيا وأخرى حبذا الركنان

وكـذلك التسبيح والتكبير والتـ ـهـلـيـل حـق إلهنا الـديـان
لـكنما الـتـعـزيـر والـتـوقير حق للرسول بمقتضى القرآن
والحب والتصديق والإيمان لا يختص؛ بـل حقان مشتركان
هـذي تفاصيل الحقوق ثلاثة لا تجملوها يا أولى العدوان
حق الإلـه: عبـادة بـالأمـر، لا يهوى النفوس، فذاك للشيطان
مـن غير إشراك بـه شـيـئـاً. هما سبب النجاة؛ فحبذا السببان
ورسوله فهو المطاع، وقوله الـ ـمقبول، إذ هو صاحب البرهان
والأمر منه الحتم لا تخيير فـ ـيه عند ذي عقل وذي إيمان
من قال قولا غيره قمنا على أقوالـه بـالسبر والميـزان
إن وافـقت قول الـرسول وحكمة فعلى الرؤوس تشال كالتيجان
أو خالفت هذا رددناها على من قالها من كان من إنسان
أو أشكلت عنا توقفنا ولم نجزم بلا عـلـم ولا بـرهـان
هـذا الذي أدى إليه علمنا وبـه نـديـن الله كـل أوان

* * *

فهو المطاع وأمره العالي على أمـر الـورى وأوامـر السلطان
وهـو المقدم في محبتنا على الأهـلين والأزواج والـولـدان
وعلى العباد جميعهم، حتى على النفس التي قد ضمها الجنبان
ونظير هذا قول أعداء المسيح من النصارى عابدي الصلبان
أنـا تـنـقـصـنـا المسيح بقولنا عـبـد، وذلك غاية النقصان
لـو قـلـتمو: ولد إله خالق وفـيـتـمـوه حـقـه بـوزان
وكذاك أشباه النصارى قد غـ ـلوا في دينهم بالجهل والطغيان
صاروا مُعادين الرسول ودينه في صورة الأحباب والاخوان

وانظر إلى تبديلهم توحيده ... بالشرك والتوحيد بالكفران
وانظر إلى تجريده التوحيد من ... أسباب كل الشرك بالرحمن
واجمع مقالتهم وما قد قاله ... واستدع بالنقاد والوزان
عقل وفطرتك السليمة ثم زن ... هذا وذا لا تطغ في الميزان
فهناك تعلم أي حزبينا هو الـ ... ـمتنقص المنقوص ذو العدوان
رامي البريء بدائه ومصابه ... فعل المباهت أوقح الحيوان
كمعير للناس بالزَّغل الذي ... هو ضربه، فاعجب لذا البهتان
يا فرقة التنقيص، بل يا أمة الـ ... ـدعوى بلا علم ولا عرفان
والله ما قدمتموا يوما مقا ... لته على التقليد للإنسان
والله ما قال الشيوخ وقال ألا ... كنتمو معهم بلا كتمان
والله أغلاط الشيوخ لديكم ... عين الصواب ومقتضى البرهان
وكذا قضيتم بالذي حكمت به ... جهلاً على الأخبار والقرآن
والله أنهم لديكم مثل معصـ ... ـوم، وهذا غاية الطغيان
تبالكم ماذا التنقص بعد ذا؟ ... لو تعرفون العدل بالنقصان
والله ما يرضيه جعلكمو له ... تُرساً لشرككم وللعدوان
وكذاك جعلكم المشايخ جنة ... لخلافه والقصد ذو تبيان
والله يشهد ذا بجذر قلوبكم ... وكذاك يشهده أولوا الإيمان
والله ما عظمتموه طاعة ... ومحبة يا فرقة العصيان
أني؟ وجهلكم به وبدينه ... وخلافكم للوحي: معلومان
أوصاكمو أشياخكم بخلافهم ... لِوفاقه في سالف الأزمان؟
خالفتمو قول الشيوخ وقوله ... فغدا لكم خلفان متفقان
والله أمركم عجيب معجب ... ضدان فيكم ليس يتفقان

تقديمكم آراء الرجال عليه مع ... هذا الغلو، فكيف يجتمعان؟
كفرتم من جرد التوحيد جهلا منكم بحقائق الإيمان
لكن تجردتم لنصر الشرك والـ ... ـبدع المضلة في رضى الشيطان
والله لو يُرضى الرسول دعاءنا ... إياه بادرنا إلى الأذعان
والله ما يرضيه منا غير اخـ ... ـلاص وتحكيم لذا القرآن
ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائه ... فعل النصارى عابدي الصلبان
ولقد نهانا أن نصيِّر قبره ... عيداً حذار الشرك بالرحمن
ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمه وثنا من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتي اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان
ولقد غدا عند الوفاة مصرحاً ... باللعن يصرخ فيهم باذان
وعنى الأولى جعلوا القبور مساجدا ... وهم اليهود وعابدو الصلبان
والله لولا ذاك أبرز قبره ... لكنهم حجبوه بالحيطان
قصدوا إلى تسنيم حجرته ليمتنع السجود له على الأذقان
قصدوا موافقة الرسول وقصده ... التجريد للتوحيد للرحمن
يا فرقة جهلت نصوص نبيهم ... وقصوده وحقيقة الإيمان
فسطوا على أتباعه وجنوده ... بالبغي والعدوان والبهتان
لا تعجلوا وتبينوا وتثبتوا ... فمصابكم ما فيه من جبران
قلنا الذي قال الأئمة قبلنا ... وبه النصوص أتت على التبيان
القصد حج البيت وهو فريضة الر ... حمن واجبة على الأعيان
ورحالنا شدت إليه من بقا ... ع الأرض قاصيها كذاك الدان
من لم يزر بيت الآله فما له ... من حجة سهم ولا سهمان

وكذا تشد رحالنا للمسجد النبوي خير مساجد البلدان

من بعد مكة أو على الا طلاق؛ فيه الخلف منذ زمان

وصلاتنا فيه بألف في سواه ما خلا ذا الحجر والأركان

وكذا صلاة في قبا فكعمرة في أجرها والفضل للمنان

ثم ذكر رحمه الله الزيارة الشرعية التي تقدمت في كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنهما وأرضاهما والله سبحانه وتعالى أعلم.

فإذا تأمل الناصح لنفسه الطالب لتمييز الحق من الباطل وعرف ذلك مما تقدم من الآيات المحكمات؛ وما صح عن النبي ﷺ، وما قرره العلماء المحققون؛ في بيان توحيد العبادة وما ينافيه من الشرك بالله. فليعلم أن هذا الضال المجادل الماحل أتى فيما كتبه وأتعب نفسه فيه ضروباً من لبس الحق بالباطل؛ وإيقاع المغرورين في الشرك الأكبر الذي يطلبه هو ويحاوله.

قال بعض السلف في قوله تعالى ﴿٦ : ١٥٣ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ قال: السبل: البدع والشبهات ذكره مجاهد وغيره. وقد قال تعالى ﴿١٧ : ٤١ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً﴾.

وليعلم أن هذا العراقي سود الأوراق بأمور حاول فيها الصدف عن الدين الذي بعث الله به الأنبياء والمرسلين. وثبت وتقرر في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: من الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ماسواه وضرب الأمثال في ذلك.

فاشتمل ماسوده في معارضته للحق على أمور:

منها: أنه أكثر السباب والكذب والافتراء على المسلمين من أهل نجد ونسب إليهم أموراً كثيرة؛ قد اختلقها هو وأمثاله تنفيراً للجهال عما كانوا يدعون إليه من توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، وتأييداً لما انتحله هو وغيره من الأمور الشركية التي أظهر الدعوة إليها في تسويده، وأتى فيها بضروب من المحال. وقلب المعاني، وصرف اللفظ عن مدلوله الذي وضع له.

وهذا هو الأمر الثاني.

فإن ساعد القدر تتبعت ما افتراه بالنقض والأبطال.

ومنها: أنه ينقل عن بعض العلماء، وينسب إليهم نقيض ما كانوا يعتقدونه فيكثر الكذب عليهم، وينسبهم إلى خلاف ما هم عليه من الحق الذي قرروه في كتبهم، وأعلنوا به على رؤوس الأشهاد.

الأمر الرابع: أنه ينقل أموراً عن بعض من يجوز عليه الخطأ من أهل العلم؛ لم يثبت عنهم مانسبه إليهم. فلو قدر ثبوته فليسوا ممن تقوم بأقوالهم الحجة. وعلى كل حال فلا حجة فيه، لمصادمته الوحيين، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما «ما من أحد إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ».

وقال الإمام أحمد رحمه الله «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول ﴿ ٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ أتدري: ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله ﷺ أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

فإذا كان هذا في حق سفيان الثوري، وهو من أئمة المسلمين ومن أتباع

التابعين، فأقوال من بعده ممن لا يشق غباره، أولى بأن يؤخذ من قوله ويترك. فما وافق أدلة الكتاب والسنة أخذ وقبل، وما خالف الكتاب والسنة رد على قائله.

ولا خلاف بين العلماء من المجتهدين أن القياس ـ وهو من الأدلة عند جمهور العلماء إذا خالف نصاً أو ظاهراً من كتاب أو سنة ترك وفسد اعتباره. فكيف ما خالف جميع أدلة الكتاب والسنة في الأصل الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه. وخالف الفطر السليمة والعقول الصحيحة، من تسوية المخلوق بالخالق. والمربوب بالرب، والإله بالمألوه، والعابد بالمعبود. فإنها مصيبة ما أعظمها. فأنا لله وإنا إليه راجعون، وقد خالف صريح الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ كما تقدم من الآيات المحكمات.

الأمر الخامس: أنه يأتي ببعض أحاديث لا يعرف لها صحة؛ وليست في دواوين أهل الإسلام. ولم يذكر لها سنداً حتى يكشف عنه، ويحتمل أن تكون مما وضعه هو أو الوضاعون من قبله وقد صنف العلماء كتباً في الموضوعات.

وعلى كل حال فما ناقض أدلة الكتاب والسنة والمعروف صحتها من الكتب وبالأسانيد المعتبرة عند علماء المسلمين فلا يجوز الأخذ به. بل يجب تركه وعدم الالتفات إليه.

ولا خلاف بين العلماء أن المتشابه يرد إلى المحكم، وإن كان صحيحاً، فكيف إذا كان ضعيفاً أو موضوعاً، فلا يجوز الاحتجاج به في معارضة ما ثبت بالكتاب والسنة؟ ومن أصول أهل العلم التي لا يمكن لأحد أن ينازع فيها: أنه إذا تعارض دليلان وصار أحدهما أصح من الآخر أخذ بالصحيح

وترك مادونه، كما إذا تعارض الصحيح والحسن فكيف إذا عارض الصحيح الضعيف والمنقطع، أو الموضوع والمعضل، أو الحكايات المكذوبة والهفوات المنسوبة إلى من لا تقوم بقوله حُجة؟ فيتعين الأخذ بالصحيح عند جميع العلماء.

وهذا الذي يورده هذا الماحل قد عارض القرآن كله من أوله إلى آخره، وعارض ما في الصحاح والسنن والمسانيد: من تقرير الإخلاص والتوحيد، وإبطال الوسائل والوسائط بين رب العالمين وعباده. فإنه تعالى أرشدهم إلى أعظم ما يتوسلون به إليه في رغبتهم ورهبتهم[1]. كما قال تعالى ﴿٧: ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ وقال ﴿١٧: ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ فأخبر أن الملائكة والأنبياء والصالحين الذين يدعوهم من يدعوهم إنما كانت وسيلتهم إلى الله في قربهم منه ورجاءه وخوفه إنما هو بالإخلاص له والتوحيد، كما قرره أئمة التفسير من السلف والخلف، وهو أصل الدين: أن لا يعبد إلا الله، بأي نوع كان من أنواع العبادة ولا يعبدالله إلا بما شرع؛ لا بالأهواء والشبهات والخيالات الباطلة، التي تعب فيها من تعب ممن خرج عن الصراط المستقيم.

وهذا العراقي إنما ساق الأمور التي أكثر فيها من الكذب، وقلب الحقائق، ليتوصل بها إلى أن يدعو الناس إلى أن يعبدو مع الله غيره، من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع الداعي ولا يستجيب غافلاً

(١) كما علمنا الله في سورة الفاتحة التي هي أقوم طريق في التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وإخلاص العبادة والذل والخضوع له، وكذلك في سورة الأنبياء، بعد أن قص قصص الأنبياء وما لقوا من الشدائد والكروب، وأن الله فرج عنهم كربهم بصدق التجائهم إليه ثم عرفنا السبيل الذي سلكوه فانتهى بهم إلى استجابة الله لهم وتفريج كربهم وإنجائهم من الغم فقال ﴿٢١: ٩٠ انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ ثم قال ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي طريقتكم التي تجمعكم مع الأنبياء وتجمع كل خير يحبه الله لكم.

عمن دعاه ورغب إليه ورجاه نعوذ بالله من زيغ القلوب وعقوبات الذنوب.

وقد أرشدنا الله تعالى في كتابه إلى ما يجب علينا من حق نبيه ﷺ، من محبته واتباعه، وتعظيم أمره ونهيه، والصلاة عليه في نفس الصلاة، وبعد الأذان، وعند ذكره، وأن نسأل له الوسيلة والفضيلة التي لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وإكثار الصلاة عليه والتسليم عند كل حديث يرفع إليه. فهذه هي أسباب حصول شفاعته يوم القيامة صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وعنا معهم بعفوك وكرمك وإحسانك يا أرحم الراحمين.

فلا تتعب ذهنك بهذيان الملحدين فانها عند من عرفها من وساوس الشياطين، المبطلين؛ وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت أنوار النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين؛ والله متم نـوره ولو كره الكافرون.

وبهذه الأمور التي ذكرناها عنه ينسخ العلم؛ ويغلب الجهل، كما ذكر البخاري في صحيحه عن قوم: أنهم لما صوروا صور الصالحين بما أوحاه الشيطان إليهم من قولهم «لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة. قال: فلما هلك أولئك ونسخ العلم عبدت» فما أشبه الليلة بالبارحة، فلو تتبعنا ما في القرآن من أوله إلى آخره من الأمر بإخلاص الدعاء لله وحده، والنهي عن دعاء غيره الذي هو مخ العبادة، لاحتمل عدة أوراق كثيرة، ولو تكلمنا على الآيات بتفسير السلف لها والأئمة لاحتمل مجلداً ضخماً.

فسبحان من طبع على قلوب أعدائه بحكمته وعدله، وهدى إلى دينه ـ الذي خلق الخلق لأجله ـ من شاء من عباده برحمته وفضله.

وقد تقدم من الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة ما يبين الحق

ويبين ما ينافيه من الباطل. ولكنه كما قال القائل:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي
فلو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

ونذكر طرفاً من كلام العلماء بأن مدلول الدعاء هو السؤال والطلب.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح البخاري، في أول كتاب الدعوات من الصحيح.

الدعوات بفتح المهملتين، جمع دعوة بفتح أوله. وهي المسألة الواحدة. والدعاء والطلب، والدعاء إلى الشيء الحث إلى فعله، دعوت فلاناً سألته. ويطلق الدعاء أيضاً على العبادة، ويطلق الدعاء على التسمية كقوله تعالى ﴿ ٢٤:٦٣ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾.

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري في شرح الأسماء الحسنى ما ملخصه: جاء الدعاء في القرآن على وجوه:

منها العبادة ﴿ ١٠:١٠٦ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾.

ومنها الاستعانة ﴿ ٢:٢٣ ادعوا شهداءكم ﴾.
ومنها السؤال ﴿ ٤٠:٦٠ ادعوني أستجب لكم ﴾.
ومنها القول ﴿ ١٠:١٠ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾.
ومنها النداء ﴿ ١٧:٥٢ يوم يدعوكم ﴾.
منها الثناء ﴿ ١٧:١١٠ قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن ﴾.

قوله وقول الله تعالى ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وهذه الآية ظاهرة على ترجيح الدعاء على التفويض. وقال طائفة: الأفضل ترك الدعاء والاستسلام

للقضاء.

وأجاب الجمهور: على أن الدعاء من أعظم العبادة. فهو كما في الحديث «الحج عرفة» أي معظمه وركنه الأكبر. ويؤيده: ما أخرجه الترمذي من حديث أنس رفعه «الدعاء مخ العبادة» وقد تواترت الآثار عن النبي ﷺ بالترغيب في الدعاء، والحث عليه. كحديث أبي هريرة رفعه «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» أخرجه الترمذي وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم. وحديث «من لم يسأل الله يغضب عليه» أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن ماجه والبزار، كلهم من رواية أبي صالح الجوزي انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص من قوله تعالى ﴿ ٣٩: ٢٩ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلما لرجل ﴾ فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه. وهذا حقيقة قولنا «لا إله إلا الله» فمن استسلم لله ولغيره، فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به. ومن لم يستسلم لله فهو مستكبر عن عبادته. وقد قال تعالى ﴿ ٤٠: ٦٠ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾.

إلى أن قال: ولم يشرع الله لنبي من الأنبياء أن يعبد غير الله البتة. قال تعالى ﴿ ٤٢: ١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فأمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه. وقال تعالى ﴿ ٣٠: ٣٠ - ٣٢ فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا

الصلاة ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ فأهل الإشراك متفرقون. وأهل الإخلاص متفقون. وقال تعالى ﴿ ١١ : ١١٩ ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ فأهل الرحمن متفقون مجتمعون. والمشركون فرقوا دينهم وكانوا شيعاً. ولهذا تجد ما أحدث من الشرك والبدع بتفرق أهله ـ إلى أن قال:

وأهل التوحيد يعبدون الله في بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، مع أنه جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً. والله عز وجل هو معبودهم، إياه يعبدون وعليه يتوكلون، وله يخشون ويرجون، وبه يستغيثون ويستعينون، وله يدعون ويسألون. فإن خرجوا إلى المساجد كانوا مبتغين فيها فضلاً ورضواناً. كما قال تعالى في نعتهم ﴿ ٤٨ : ٢٩ تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ﴾ وكذلك إذا سافروا إلى المساجد الثلاثة، لا سيما المسجد الحرام الذي أمروا بالحج إليه. فهم يؤمون بيته فضلاً من ربهم ورضواناً. لا يرغبون إلى غيره، ولا يرجون سواه ولا يخافون إلا إياه.

وقد زين الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم واستنزلهم عن إخلاص الدين لله؛ إلى نوع من الشرك. فيقصدون بالسفر والزيارة ورجاء غير الله والرغبة إليه، ويشدون الرحال إلى نبي أو صاحب أو صالح، داعين له راغبين إليه. ومنهم من يظن أن المقصود من الحج هو هذا. فلا يستشعر إلا قصد المخلوق المقبور. ومنهم من يرى أن ذلك أنفع له من الحج إلى البيت. ومن جهالهم من يتوهم أن زيارة القبر واجبة، ومنهم من يسأل المقبور الميت كما يسأل الحي الذي لا يموت . يقول : يا سيدي فلان اغفر لي وارحمني وتب عليّ وانصرني على فلان ، وأنا في حسبك أو جوارك .

وقد ينذرون أولادهم للقبور ويسيبون لهم السوايب من البقر وغيرها من الانعام، كما كان المشركون يسيبون لطواغيتهم. قال الله تعالى ﴿ ٥ : ١٠٣ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذي كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ انتهى.

فإذا جوز هؤلاء كالعراقي وأمثاله الاستغاثة بالنبي ﷺ بعد وفاته، وخالفوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون والسابقون الأولون، فليعلم أن في ذلك من المفاسد العظيمة وفتح باب الشرك من كل أحد ومع كل أحد، كما هو الواقع الموجود فصاروا لا يفرقون بين الصالح والطالح في اعتقاد الربوبية والإلهية فيه. كما يفعله بعض الناس بمصر والشام والعراق مع من يعبدونه من دون الله كفعل أهل مصر مع أحمد البدوي ونحوه. وقد صح عن البدوي أنه ما كان يصلي بل يبول في المسجد ولا يتطهر. ذكر ذلك السخاوي عن أبي حيان مشاهدة منه لذلك. وقد افتتن أهل مصر به وبأمثاله من الأموات. فاعتقدوا فيه أنه يفك الأسير إذا دعاه، وهو في أيدي الكفار، وينجي من أشفى على الغرق في البحار ويطفي الحريق إذا أضطرمت فيه النار. وينادونه من مكان بعيد، وهم لا يعتقدون أن حيا من الفضلاء فيهم يسمع ويبصر، لا يسمع من ينادونه من فرسخ فأقل. فصار هذا الميت المدفون في مقر الأرض الذي تقطعت أوصاله في اعتقادهم أنه يسمع مناديه من البحور ومن هو عنا بمسافة شهور. كما كان أهل العراق يعتقدون ذلك في عبد القادر وغيره.

وهل هذا إلا لاعتقادهم أنه حي كحياة الله وأنه يسمع ويبصر ويقدر ويرحم وينتقم كشأن رب العالمين، وأنه لذلك يعلم الغيب ويضر وينفع ويقدر على ما لا يقدر عليه إلا الله. وأنهم بعقيدتهم الوثنية يفعلون في مولد

البدوي من عظائم الشرك والفساد ما يطول تعداده؛ إذ يعتقدون عقيدة جازمة أنه يتحمل عن الزناة واللوطية في مولده ذنوبهم، بمعنى أنه يكفرها عنهم. وبعضهم يسجد على باب حضرته.

وبعض المؤذنين بالقاهرة إذا فرغ من الأذان ينادي بأعلى صوته قائلاً: يا أبو فراج، يعنون بهذه الكنية أنه يفرج الكربات. ولا يخفى ما بين القاهرة وقبره من البعد، فإنه في قرية في غربي مصر اسمها طنطا. وهذا وأمثاله إنما تفرع عن قول من جوز أنه يستغاث بنبي أو صالح.

ومن ذلك ما كان يفعله أهل الشام عند قبر ابن عربي الاتحادي الحلولي الزنديق صاحب الفصوص الذي يقول في فصوصه:

وكنت امرءا من جند إبليس فارتمى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

وهو إمام أهل الاتحاد يعتقد فيه بعض أهل الشام مثل ما يعتقده أهل مصر في أحمد البدوي على مثل ماذكرناه عنهم.

وكذلك ما يفعله أهل العراق والمغرب والسواحل والهند من البناء على قبر عبد القادر الجيلاني وبناء المشاهد لعبادة عبد القادر كالمشهد الذي في أقصى المغرب والذي في الهند وينادونه من مسافة أشهر؛ بل سنة لتفريج كرباتهم، وإغاثة لهفاتهم، ويعتقدون أنه من تلك المسافة يسمع داعيه ويجيب مناديه. يقول قائلهم: إنه يسمع ومع سماعه ينفع. وهو لما كان حياً يسمع ويبصر لم يعتقد أحد فيه أنه يسمع من ناداه من وراء جدار، ثم بعد موته صار منهم بما صار. وهل هذا إلا لاعتقادهم أنه يعلم الغيب ويقدر على ما لا يقدر عليه إلا الله؟

فلو جاز في حق عبد القادر لجاز في حق من هو أفضل منه بإضعاف من الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين. والأئمة المهديين أن يدعي من تلك المسافة ويستجيب لكن الله تعالى صان أولياءه وخيار أهل الإيمان أن يفعل معه مثل هذا، فأين هذا من اعتقاد من اعتقد في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الإلهية فخد لهم الأخاديد وألقى فيها من الحطب وأضرم فيها النار فقذفهم فيها. وقال ابن عباس «إنهم يقتلون بالسيف» وفعله أمير المؤمنين لشدة غيرته على التوحيد، وشدة إنكاره للشرك والتنديد.

هذا الذي يفعله هؤلاء مع من ذكرنا إنما هو من تأله القلوب بهم وشدة اعتقادهم فيهم، وصرف خصائص الربوبية والإلهية إليهم.

وعبد القادر رحمه الله لا شك أنه له فضل ودين وهو حنبلي المذهب وأكثر أصحاب الإمام أحمد أفضل منه في العلم. وكذلك الإمام أحمد ومن في طبقته من أئمة المحدثين والفقهاء أفضل من عبد القادر بالاتفاق. فلو جازت هذه الأمور في حق عبد القادر لجاز أن تفعل في أحد من هؤلاء. بل وفي حق من هو أفضل من الكل كأعيان التابعين ومن قبلهم من الصحابة كالخلفاء الراشدين. وعبد القادر من سائر أهل مذهبه وله كتاب الغنية في مذهب أحمد. وله زهد وعبادة. وليس أفضل من الفضيل بن عياض وبشر الحافي والجنيد، بل أهل العلم يعلمون أن هؤلاء أفضل منه. فهو فاضل بالنسبة إلى من دونه، مفضول بالنسبة إلى من ذكرنا من الأئمة قبله. وإن كان يذكر له كرامات الله أعلم بصحة ذلك وما آفه الأخبار إلا رواتها. فإن صح منها شيء فكرامات الصحابة أعظم كما وقع لعمر وعلى وغيرهما. فلم يعبدوا لأجل ما وقع لهم من الكرامات.

والكرامة فعل الله تعالى وليست فعلاً لمن وقعت له. ومن أحسن مناقب

عبد القادر أن ابليس تراءى له في غمامة فقال أنا ربك وقد أبحت لك المحارم فقال له: اخسأ أنت إبليس إن الله لا يأمر بالفحشاء أو قال ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ فرحم الله عبد القادر. فلقد كان لا يرضى بما يفعلونه معه ولا بمثل قطرة منه.

وأعظم المحارم التي ينكرها ما كان يفعل اليوم وقبله عند ضريحه من الشرك الذي لا يغفره الله. فإنه أعظم ذنب عصى الله به لا يرتاب في هذا مؤمن.

وهذا الذي ذكرناه على سبيل التمثيل. وإلا فبناء المساجد والمشاهد على القبور وعبادتها قد عمت به البلوى في كثير. وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك كما صح عنه ﷺ أنه قال «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا» وقال لأم سلمة لما ذكرت له كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور قال «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

فما أعظم ما وقع من الشرك في كثير من هذه الأمة، فقد ربا على شرك أهل الجاهلية. فإن أولئك أقروا بتوحيد الربوبية وجحدوا توحيد الإلهية. وهؤلاء صرفوا خصائص الربوبية والإلهية لغير الله. فالله المستعان.

وهذا باب دخل فيه أهل الشرك لما فتحه لهم من ينتسب إلى العلم بحكايات تحكى لا تقوم بها حجة ولا عليها تعويل. وغايتها التحريف والتبديل والتهويل والتضليل. وصدف الجهال بها عن سواء السبيل. حتى وقع الشرك في هذه الأمة جيلاً بعد جيل. فجادل به من جادل وما حل به

ما حل. كما يعلمه الله من هؤلاء الملحدين وأمثالهم.

فإن هؤلاء المجادلين الجاحدين للحق المبين قد ما حلوا بقلب الحقائق، حتى جعلوا ما تنزه الله عنه من اتخاذ الشفعاء والشركاء من حق الرسل والأنبياء؛ وهو هضم لربوبية الله، وسلب لإلهيته، وسوء ظن به. وقد نزه نفسه عن ذلك في الآيات المحكمات التي أنزلها على رسوله الصادق المصدوق؛ ودعا الأمة إلى أن يؤمنوا بها ويقبلوها.

فمن ذلك قوله تعالى ﴿١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فنزه نفسه تعالى عن هذا الشرك المقتضى لوضع حقه تعالى في غير محله، ومسبتهم له بهذا الشرك.

ولا ريب أن متخذي الشفعاء إنما كانوا يطلبونهم ويسألونهم أن يشفعوا لهم كما كان يفعله المشركون مع الأموات والغائبين. فهذا الطلب والسؤال والقصد والإرادة، من توجيه الوجه والقلب إلى غير الله تعالى رجاء لهذا الغير ورغبة إليه. قال تعالى ﴿٣ : ٢٠ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ وقال تعالى ﴿٢ : ١١٢ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن - الآية﴾ فإسلام الوجه ينفي الشرك بنوعية، والإحسان ينفي البدع في الدين كلها. وقد قال أمام الحنفاء ﴿٦ : ٧٨، ٧٩ إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾.

فتبين بهذه الآية أن توجيه الوجه والقلب لا يكون إلا لله دون من سواه.

قال في الشرح الكبير لعبد الرحمن بن أبي عمر رحمه الله تعالى: والإخلاص عمل القلب وهو أن يقصد بعمله الله دون غيره انتهى.

وقال شيخ الإسلام: الإخلاص محبة الله، وإراده وجهه وقد تقرر في الجواب أن الشفاعة التي أثبتها الله في كتابه بإذنه ورضاه إنما تقع لأهل الإخلاص خاصة. فمن طلبها من ميت أو غائب فقد وقع في الشرك الذي لا يغفره الله وحرم نفسه الشفاعة بطلبها ممن لا يملكها، وإعراضه عن طلبها ممن يملكها سبحانه وتعالى عما يشركون.

وهذا العراقي من جهله وضلاله يدعي أن هذا الشرك مجمع عليه. وفي الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» فإخلاص العبادة له هو الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وأمر به عباده، كما قال تعالى ﴿ ٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ ثم ذكر تعالى ما ينافي الإخلاص من شرك المشركين فقال ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وهذه السورة كلها كأمثالها من القرآن فيها بيان الإخلاص والأمر به؛ وبيان ما ينافيه من الشرك في العبادة والنهي عنه وتغليظ أمره وإحباطه للأعمال. فتدبر وتذكر. وتفكر. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصـــل

وقد كان شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله، لما قدم مصر فوجد الكثير من أهلها قد جهل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه: من دين الله الذي رضيه الله لعباده؛ واتفقت عليه دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم.

فبين رحمه الله لمن حضر ما جهله أكثر الناس من هذا الدين الحق وأن أساسه إنما يقوم على وجوب إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى؛ وأن لا يعبد الله إلا بما شرع؛ وبين ذلك بأدلته من الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها: من تجريد العبادة لله تعالى وترك عبادة ما يعبد من دونه، ونهاهم عن دعوة الأموات والغائبين، وأخبرهم أن هذا الذي عليه أكثر الناس هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى. فعارضه ابن البكري المصري على حسب ما اعتاده من هذا الشرك وجهله بأنواع التوحيد. وكتب في المعارضة كثيراً من الشبهات الفاسدة الباطلة وقلب الحقائق، مع سوء الفهم، وعدم العلم. فهجم على دين الإسلام فيما أبداه من الشبهات والضلالات.

وأخذها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فأجاب عنها بصريح المنقول وصحيح المعقول. فردها رداً شافياً وافياً بالأدلة والبراهين. فصار علماً لأهل التوحيد، وحجة على أهل الشرك والتنديد(١).

فرأيت هذا العراقي ـ الذي نحن بصدد الرد عليه ـ قد تلقى كثيراً من تلك الشبهات والخيالات والأباطيل والترهات. فرأيت أن أكتب في آخر

(١) قد طبع هذا الكتاب واسمه كتاب الاستغاثة ـ على نفقة صاحب الجلالة المجاهد في سبيل الله الباذل نفسه وماله لإعلاء كلمة الله: عبد العزيز آل سعود. أدام الله توفيقه وتأييده. وهذا شبله صاحب السمو الملكي وولي عهده الأمير سعود ينسج على منواله. أقر الله بهم أعين المسلمين. وأيد بهم الحق المبين، ووفقهم لإنقاذ المسلمين من كفر أعدائهم الكافرين.

وابن البكري: اسمه: علي بن يعقوب بن جبريل البكري المصري الشافعي.

قال العلامة ابن كثير في البداية والنهاية في وفيات سنة ٧٢٤: قد كان في جملة من ينكر على شيخ الإسلام ابن تيمية، فأراد بعض الدولة قتله، فهرب واختفى عنده ـ كما تقدم ـ لما كان ابن تيمية مقيماً بمصر. وما مثاله الا مثال ساقية ضعيفة كدرة لأمت بحراً عظيماً صافياً؛ أو رملة أرادت زوال جبل. وقد أضحك العقلاء عليه. وقد أراد السلطان قتله فشفع فيه بعض الأمراء. ففر إلى بلدة بالصعيد يقال لها ديروط، فكان بها حتى توفي في سابق ربيع الآخر. وكانت جنازته غير مشهورة وكان شيخه ينكر عليه إنكاره على ابن تيمية. ويقول له: أنت لا تحسن أن تتكلم اهـ (ج١٤ ص١١٤).

الرد جملاً من كلام شيخ الإسلام رحمه الله، وإن كان فيه نوع من تكرار، مع ما قدمنا له. لكنه يشتمل على مزيد فائدة: فإن الحاجة إليه ماسة. والمنفعة به عظيمة، وكلما كرر الحق يحلو؛ لما فيه من الرد على كل ملحد ومبطل ومعاند. فرحم الله ذلك الشيخ. فلقد صارت كتبه سلاحاً للموحدين، وحجة في كل زمان على جميع المبطلين.

قال رحمه الله تعالى[1]:

الوجه الخامس: أن يقال: نحن لا ننازع في إثبات ما أثبته الله من الأسباب والحكم. لكن مَن هذا الذي جعل الاستغاثة بالمخلوق ودعاءه سبباً في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؟ ومن الذي قال: إنك إذا استغثت بميت أو غائب من البشر، نبياً كان أو غير نبي، كان ذلك سبباً في حصول الرزق والنصر والهدى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله؟ ومن الذي شرع ذلك وأمر به؟ ومن الذي فعل ذلك من الأنبياء والصحابة والتابعين لهم بإحسان؟

فإن هذا المقام يحتاج إلى مقدمتين:

إحداهما: أن هذه أسباب لحصول المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله.

والثانية: أن هذه الأسباب مشروعة، لا يحرم فعلها. فإنه ليس كل ما كان سبباً كونياً يجوز تعاطيه. فإن قتل المسافر قد يكون سبباً لأخذ ماله، وكلاهما محرم. والدخول في دين النصارى قد يكون سبباً لمال يعطونه وهو محرم. وشهادة الزور قد تكون سبباً لمال يؤخذ من المشهود له، وهو حرام. وكثير من الفواحش والظلم قد يكون سبباً لنيل مطالب. وهو محرم. والسحر

---

(١) كتاب الاستغاثة صفحة ٢٣٠.

لكهانة سبب في بعض المطالب وهو محرم. وكذلك الشرك بمثل دعوة الكواكب والشياطين، وعبادة البشر، قد يكون سبباً لبعض المطالب وهو محرم.

فإن الله تعالى حرم من الأسباب ما كانت مفسدته راجحة على مصلحته، وإن كان يحصل به بعض الأغراض أحياناً.

وهذا المقام مما يظهر به ضلال هؤلاء المشركين؛ خلقاً وأمراً. فإنهم مطالبون بأدلته الشرعية على أن الله شرع لخلقه أن يسألوا ميتاً أو غائباً؛ ويستغيثو به سواء كان ذلك عند قبره أو لم يكن عند قبره والله تعالى حي عالم قادر لا يغيب. كفى به شهيداً وكفى به عليماً. وهم لا يقدرون على ذلك [1].

بل نقول في الوجه السادس: سؤال الميت والغائب: نبياً كان أو غيره: من المحرمات المنكرة باتفاق الأئمة المسلمين، لم يأمر الله تعالى به ولا رسوله؛ ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان. ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين. فإن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به شدة أو عرضت له حاجة لميت: يا سيدي فلان أنا في حسبك، أو اقض حاجتي، كما يقول هؤلاء المشركون لمن يدعونهم من الموتى والغائبين، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، عند قبورهم، ولا إذا بعدو عنها بل. وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظيمة في مقابلة المشركين في القتال؛ ويشتد البأس بهم، ويظنون الظنون، ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبي ولا غيره من

---

(١) أي لا يقدرون على الإتيان بدليل شرعي من الكتاب والسنة وفعل الصحابة على أن الله شرع لخلقه أن أ.ا.ا ميتاً أو غائباً وهم يعترفون أن الله هو الحي العالم القادر الشهيد سبحانه.

لمخلوقين ولا أقسموا بمخلوق على الله أصلاً. ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء، ولا غير الأنبياء، والصلاة عندها. وقد كره العلماء كمالك وغيره أن يقوم الرجل عند قبر النبي ﷺ، يدعو لنفسه. وذكروا أن هذا من البدع التي لم يفعلها السلف.

وأما ما يروى عن بعضهم أنه قال: قبر معروف الترياق المجرب. وقول بعضهم فلان يدعى عند قبره. وقول بعض الشيوخ إذا كانت لك حاجة إلى الله فاستغث بي أو قال: استغث عند قبري، ونحو ذلك. فإن هذا قد وقع فيه كثير من المتأخرين وأتباعهم. وكثير من هؤلاء إذا استغاث بالشيخ رأى صورته، وربما قضى له بعض حاجته: فيظن أنه الشيخ نفسه، أو أنه ملك تصور على صورته، وأن هذا من كراماته. فيزداد به شركا وفيه مغالاة، ولا يعلم أن هذا من جنس ما يفعله الشياطين بعباد الأوثان، حيث تتراءى أحياناً لمن يعبدونها، تخاطبهم ببعض الأمور الغائبة وتقضي لهم بعض الطلبات؛ ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة وكذلك المساجد المبنية على القبور التي تسمى المشاهد محدثة في الإسلام والسفر إليها محدث في الإسلام. لم يكن شيء من ذلك في القرون الثلاثة المفضلة بل ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما فعلوا» قالت عائشة «ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خشي أن يتخذ مسجداً» وثبت في الصحيح عنه أنه قال، قبل أن يموت بخمس «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فأنى أنهاكم عن ذلك».

وقد تقدم في الجواب أن عمر بن الخطاب «لما أجدبوا استسقى بالعباس، وقال اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا. وإنا

نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون» فلم يذهبوا إلى القبور ولا توسلوا بميت ولا غائب وتوسلوا بالعباس كما كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ. وكان توسلهم به توسلهم بدعائه؛ كالإمام مع المأموم وهذا قد تعذر بموته ﷺ.

فأما قول القائل، عند ميت من الأنبياء والصالحين: اللهم إني أسألك بفلان، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان. فهذا لم ينقل لا عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه، ولا التابعين. وقد نص غير واحد من العلماء أنه لا يجوز. ونقل عن بعضهم جوازه.

قلت: لكن بغير مستند. فكيف بقول القائل للميت: إني أستغيث بك، أو أستجير بك، أو أنافي حسبك، أو سل الله لي، ونحو ذلك.

فتبين أن هذا ليس من الأسباب المشروعة. لو قدر أن له تأثيراً فكيف إذا لم يكن له تأثير صالح، بل مفسدته راجحة على مصلحته: كأمثال من دعا غير الله؟

وذلك أن من الناس الذين يستغيثون بغائب أو ميت من تتمثل لهم الشياطين وربما كانت على صورة الغائب، وربما كلمته؛ وربما قضت له أحياناً بعض حوائجه كما تفعل شياطين الأصنام. وهذا مما جرى لغير واحد. فينبغي أن يعرف هذا.

ومن هؤلاء من يؤذي الميت بسؤاله إياه أعظم مما يؤذيه لو كان حياً وربما قضيت حاجته، مع ذم يلحقه، كما كان الرجل يسأل النبي ﷺ أحياناً فيعطيه، ويقول «إن أحدهم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها ناراً» لكن في مسألتهم أنواع من المفاسد.

منها: إيذاؤهم بالسؤال. ومنها: إفضاء ذلك إلى الشرك. وهذه المفسدة

توجد بعد الموت ولا توجد في الحياة. فإن احدا من الانبياء والصالحين المؤمنين لم يعبد في حياته إذ هو ينهى عن ذلك ويحاربه أشد المحاربة. وأما بعد الموت فهو لا يقدر على النهي ومحاربة من يفعل ذلك. فيفضي إلى اتخاذ قبره وثنا يعبد. ولهذا قال ﷺ «لا تتخذواقبري عيداً» وقال «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» الحديث. قال غير واحد من السلف في قول الله تعالى ﴿ ٧١: ٢٣ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ـ الآية ﴾ «هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» ولهذا لعن رسول الله ﷺ الذين يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

وهذا مما تقدم في أول الجواب. والمكرر أحلى ـ إلى أن قال رحمه الله.

الوجه الثاني: أن يقال: التحقيق في هذا الباب أنه إذا كان المنفي لا يصلح، لمخلوق فذكرت الأنبياء والملائكة على سبيل تحقيق النفي العام. فهذ من أحسن الكلام، كما يقال: لا تجوز العبادة إلا لله تعالى. لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل. فينبه بنفيها عن الأعلى على انتفائها عمن دونهم بطريق الأولى.

وكذلك إذا كان المخصوص بالذكر ممن قد حصل فيه غلو. كما يقال: ليس في الصحابة معصوم لا علي ولا غيره. وليس في النبيين إله لا المسيح ولا غيره. فهذا أحسن ومنه قوله تعالى ﴿ ٥٣: ٢٦ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ تنبيها بذلك على أن من دونهم أولى أن لا تغني شفاعتهم شيئاً، وأن المشركين كانوا يقولون عن آلهتهم: إنهم شفعاؤهم عند الله وقال تعالى ﴿ ١٠: ١٨

ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ـ إلى قوله ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ولا يجوز أن يكون الكلام تنقيصاً بالملائكة ولذلك قال تعالى ﴿ ٤ : ١٧١ ـ ١٧٢ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة؛ انتهوا خيراً لكم. إنما الله آله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ ثم قال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون؛ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ فإنه لما كان هذا في إثبات الكلام توحيد الله تعالى والنهي عن الغلو في الدين الذي فيه تشبيه المخلوق بالخالق قال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ﴾ بعد أن قال ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿ ٥ : ٧٥ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ فنسبه إلى أمه، وبين أنهما كانا ككل البشر آكلان الطعام. وهذا قد جرى عليه القرآن في غير موضع، فنسبه إلى أمه لينفي نسبته إلى غيرها. فلا ينسب إلى الله تعالى أنه ابنه؛ ولا إلى أب من البشر؛ كما زعمت النصارى ولا كما زعمت اليهود الكافرة به. وأبلغ من هذا قوله تعالى ﴿ ٥ : ١٧ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ﴾ فذكر أهل الأرض جميعاً وخص المسيح وأمه بالذكر، لأن المسيح وأمه اتخذا آلهين فكان تخصيصهما بالذكر لنفي الشرك والغلو الذي وقع في المسيح وأمه. ولم يكن ذلك من باب

التنقيص للمسيح وأمه بل كان التحصيص لأجل أن الكلام وقع في ذلك المعين ـ إلى أن قال:

وقال تعالى ﴿ ٣ : ٨٠ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ـ إلى قوله ـ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟ ﴾ فتخصيص الأنبياء والملائكة بالذكر تنبيه على من دونهم ـ إلى أن قال.

ومنه قوله تعالى ﴿ ٢١ : ٢٦ ـ ٢٩ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ـ إلى قوله ـ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إني آله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ فذكر هذا الوعيد في الملائكة وخصهم بالذكر، تنبيهاً على أن دعوى الآلهية لا تجوز لأحد من المخلوقين، لا لملك ولاغيره. وأنه لو قدر وقوع ذلك من ملك من الملائكة لكان جزاؤه جهنم. فكيف من دونهم؟ وهذا التخصيص لافراد الله بالإلهية. ومنه قوله تعالى ﴿ ٦ : ٨٧ ـ ٨٨ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ والأنبياء معصومون من الشرك، لكن المقصود بيان أن الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله. فكيف بغيره؟ وكذلك قوله لنبيه ﷺ ﴿ ٣٩ : ٦٥ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ مع أن الشرك منه ﷺ ممتنع، لكن بين بذلك أنه إذا قدر وجوده كان مستلزماً لحبوط عمل المشرك وخسرانه كائناً من كان. وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب، لا لحط قدر المخاطب[1]. كما قال تعالى ﴿ ٦٩ : ٤٤

---

(١) وليكون هذا أشد تحذيراً لنا من الشرك، وحضا لنا على معرفته ومعرفة كل أسبابه وأبوابه ومداخله، لنتقيه ونحذره. مؤمنين بأنه إذا خاطب الله نبيه المعصوم ﷺ هذا الخطاب فنحن أولى وأحذ أن نخافه ←

ـ ٤٦ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين﴾ يبين تعالى أنه ينتقم ممن يكذب عليه في الرسالة أو تزيد عليها فيشرع ما لم يأذن به الله. كائناً من كان، وأنه ﷺ لو قدر أنه غيّر الرسالة لانتقم منه ـ إلى أن قال:

وهذا باب واسع.

فمن غلا في طائفة من الناس، فإنه يذكر له من هو أعلى منه. ويبين أنه لا يجوز هذا الغلو فيه. فكيف يجوز الغلو في الأدنى. كما قال بعض الشيعة لبعض شيوخ السنة: نقول إن مولانا أمير المومنين علياً كان معصوماً. فقال: أبو بكر وعمر عندنا أفضل منه، وما كانا معصومين.

وكما يقال لمن يعظم شيخه أو أميره، بأنه يطاع في كل شيء وأنه لا تنبغي مخالفته: أبو بكر الصديق أفضل منه. وقد قال «أطيعوني ما أطعت الله. فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. إنما أنا متبع ولست مبتدع، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني».

وكما إذا ظن الغلاة أن الصالحين لا يؤذيهم عدوهم، لاعتقادهم أن ذلك نقص فيهم، وأنهم قادرون على دفع كل أذى؛ فيقال: أفضل الخلق محمد ﷺ. وقد أوذي وعودي، وقد جرح يوم أحد، وذلك كرامة من الله تعالى له. ليعظم أجره، ويزيده رفعة بالصبر على الأذى في الله.

وكذلك لو حلف حالف بشيخه، فقيل له لا تحلف بغير الله فمن حلف بغير الله فقد أشرك.

← موقنين بأن قلوبنا هين على الشيطان جداً أن يروج فيها الشرك. كما وقع في أكثر الناس حين خدعوا عن أنفسهم، وظنوا أن الشرك كان في الماضيين ولا يكون فيمن يتسمون بالمسلمين، فأصبحوا لا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون بكل أنواع الشرك القديم وزيادة. والحمدلله الذي هدانا وعافانا.

وكذلك إذا اعتقد معتقد في شيخه أنه يشفع لمريديه يوم القيامة أو أنه له رأيه في الآخرة يدخل تحتها مر يده الجنة. فيقال له: المرسلون أفضل منه؛ وسيد ولد آدم ﷺ إذا جاء يشفع يسجد بين يدي الله ويحمد ربه بمحامد فيقال له «ارفع رأسك؛ وقل يسمع؛ وسل تعطه، واشفع تشفع. فيقول: يا رب أمتي، فيحد لي حداً، فادخلهم الجنة» فهو ﷺ لا يشفع إلا بعد أن يؤذن له، بل يبدأ أولاً بالسجود لله والثناء عليه. ثم إذا أذن له في الشفاعة وشفع حد له حداً، يدخلهم الجنة.

فليست الشفاعة مطلقة في حقه؛ ولا يشفع إلا بإذن الله. فكيف يكون الشيخ إن كانت له شفاعة؟.

وكذلك إذا قيل عن بعض الشيوخ: إن قبره ترياق مجرب، قيل له: إذا كانت قبور الأنبياء عليهم السلام ليست ترياقاً مجرباً؛ فكيف تكون قبور الشيوخ ترياقاً مجرباً؟.

وكذلك إذا قيل: إن الشيخ الميت يستسقى عند قبره، ويقسم به على الله؛ ويعرّف عنده عشية عرفة ونحو ذلك. قيل له: إذا كان النبي ﷺ سيد الخلق لم تستق الصحابة رضوان الله عليهم عند قبره، ولا أقسموا به على الله؛ ولا عرّفوا عند قبره. فكيف بغيره؟.

وكذلك إذا قيل: إنه يسجد لقبر الشيخ أو يستلم ويقبل، قيل: إذا كان قبر النبي ﷺ لا يسجد له ولا يستلم ولا يقبل باتفاق الأئمة، فكيف بقبر غيره؟

وكذلك إذا قيل: الموضع الذي كان الشيخ يصلي فيه لا يصلي فيه احتراماً له قيل له: إذا كان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون ويجلسون

في الموضع الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه، فكيف لا يصلي في موضع مصلى غيره؛ وهو أحق بالاحترام من كل أحد؟

وكذلك إذا قيل: إن الشيخ الميت يدعى ويسأل ويستغاث به. قيل: إذا كان الأنبياء بعد موتهم لا يدعون، ولا يسئلون؛ ولا يستغاث بهم؛ فكيف بمن هو دونهم؟

أو إذا قيل: يطلب من الشيخ كل شيء. قيل: ما لا يقدر عليه إلا الله، لا يطلب من الأنبياء، فكيف يطلب ممن دونهم؟

وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء؛ فيقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: قد أبلغتك، لا أملك لك من الله شيئاً ـ الحديث» فقد أخبر أنه يستغيث به أهل الغلول يوم القيامة فلا يغيثهم، بل يقول «لا أملك لكم من الله شيئاً» كما قال «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ياعباس عم رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً».

إلى أن قال: وحينئذ إذا قدر أن سائلاً سأل: هل يستغاث بميت من الأنبياء والصالحين؟ فقيل له: لا تستغيث بأحد منهم، لا نبي ولا غيره. أو قيل لا يستغاث بالنبي ﷺ. فكيف بمن دونه؟ أو قيل: أفضل الخلق لا يستغاث به، ونحو ذلك من العبارات التي يفهم منها عموم النفي؛ وأنه ذكر الأفضل تحقيقاً للعموم: كان هذا من أحسن الكلام. كما تقدم.

كما إذا قيل: لا يسجد لقبر؛ ولا يتمسح به ولا يقبل؛ ولا يتخذ وثناً يعبد ونحو ذلك.

وكذلك لو كان الخطاب ابتداء في سياق التوحيد، ونفى خصائص الرب عن العبد، وقيل: ما لا يقدر عليه إلا الله لا يطلب إلا منه، لا من نبي ولا غيره، أو قيل: ما لا يستغاث فيه إلا بالله، لا يستغاث فيه بنبي ولا غيره: كان حسناً.

فالاستغاثة المنفية نوعان:

أحدهما: الاستغاثة بالميت مطلقاً في كل شيء.

والثاني: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق.

وليس لأحد أن يسأل غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله لا نبي ولا غيره، وليس لأحد أن يسأل ميتاً ولا يستغيث به في شيء من الأشياء، سواء كان نبياً أو غيره.

وإذا كان كذلك، فكثير مما وقع هو من هذا الباب ـ إلى أن قال:

وأما قوله[1] فمن خص الرسول والملائكة بنفي خاص، يفهم منه طرح رتبهم وعدم صلاحيتهم للأسباب فقد نقصهم بعبارته.

فيقال له قولك: خصهم بنفي خاص يفهم منه طرح رتبتهم وعدم صلاحيتهم للأسباب لفظ مجمل، أتريد صلاحيتهم للأسباب التي أثبتها الله لهم، مثل عدم صلاحية الملائكة للنزول بالوحي والعذاب، وعدم صلاحية الرسول لتبليغ رسالات الله، ونحو ذلك، مما أثبته الله لهم، أو عدم صلاحيتهم لما اختص الرب تبارك وتعالى نفسه، مثل أن يطلب منهم الأمور التي لا يقدر عليها غيره، وعدم صلاحيتهم لكونهم يسألون ويدعون بعد موتهم، أو يطلب منهم كل ما يطلب من الله؟

---

(١) أي قول البكري في الاستدلال على ضلاله.

فإن عينت الأول فقائله أعظم جرماً من أن يقال: تنقصهم بعبارته، إذ قد يكون كافراً؛ مثل أن يتضمن نفيه مثل جحد رسالة الرسول، أو جحد ما يدخل في الإيمان، من الإيمان بالملائكة. ولكن ما نحن فيه ليس من هذا الباب.

وإن أردت الثاني، فليس في نفي خصائص الربوبية عن المخلوق نقص له يجب تنزيهه عنه، فضلاً عن أين يجب نفيه عنه. فمن قال: لا إله إلا الله. لم يكن قد نقص الملائكة والأنبياء بنفي الآلهية عنهم. ومن قال: إن الأنبياء والملائكة ليسوا أرباباً ولا آلهة، ولا يعبدون ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله. كان قد نفى عنهم ما يختص به الرب تبارك وتعالى ولم ينف عنهم الأسباب.

قلت: وهذا النفي هو الذي خلقوا له، وهو دينهم الذي كانوا عليه وهو الذي يرضيهم من أتباعهم، وهو كمال في حقهم كما قال تعالى ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾ ونظائرها.

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله: وإنما يكون نافياً للأسباب إذا قال: لا شفاعة لهم، أو قال: إنه لا يتوسل إلى الله بالإيمان بهم ومحبتهم وطاعتهم، ولا يتوسل إليه بدعائه، فهذا باطل، بل كفر ـ إلى أن قال:

وأما من قال: إنه لا يطلب منه ﷺ ما لا يقدر عليه إلا الله، أو قال: إنه لا يسأل بعد موته كما كان يسأل في حياته. فهذا قد أصاب. ومن قال: إنه لا يقسم على الله بمخلوق ولا يتوسل إليه بميت، ولا يسأل بذات مخلوق. فإن الصحابة إنما توسلوا بدعائه وشفاعته. ولما مات لم يتوسلوا

بذاته، إذ لم ينقل عن أحد من السلف أنه توسل إلى الله بميت في دعائه، ولا أقسم به عليه.

قال أبو حنيفة وأبو يوسف وغيرهما: أنه لا يجوز أن يقال: أسألك بحق الأنبياء.

وكذلك قال أبو محمد العز بن عبد السلام: إنه لا يقسم عليه بحق الأنبياء وتوقف في نبينا ﷺ لظنه أن في ذلك خيراً يخصه. وليس كذلك.

وقد تنازع العلماء في القسم به، هل تنعقد به اليمين؟ على قولين: أشهرهما: أنه لا تنعقد اليمين به، وهو مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة، وأحد القولين في مذهب أحمد.

والثاني: تنعقد اليمين به. وهي الرواية الأخرى عن أحمد اختارها، طائفة من أصحابه ـ إلى أن قال ـ والصواب ما عليه الجمهور من أنه لا تنعقد اليمين بمخلوق لا بالنبي ﷺ ولا بغيره.

ولكن لم يسم أحد من الأمم هذا استغاثة. فإن الاستغاثة به طلب منه لا طلب به. وهذا اعتقد جواز هذا بالإجماع وسماه استغاثة. فلزم جواز على قوله الاستغاثة به بعد موته بالإجماع فجوز أن يتوسل به في كل شيء.

ثم إنه لم يجعل هذا وحده معنى الاستغاثة. بل جعل الاستغاثة الطلب منه أيضاً فكان لا يميز بين هذا المعنى وهذا المعنى. بل يجوز عنده أن يستغاث به في كل ما يستغاث الله فيه، على معنى أنه وسيلة من وسائل الله في طلب الغوث. وهذا عنده ثابت للصالحين. ولو كان هذا حقاً لم يقل النبي ﷺ «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل».

فدخل عليه الخطأ من وجوه:

منها: أنه جعل المتوسل به بعد موته في الدعاء مستغيثاً به. وهذا لا يعرف في لغة أحد من الأمم. لا حقيقة ولا مجازاً مع دعواه الإجماع على ذلك فإن المستغاث به هو المسؤل المطلوب منه، لا المسئول به.

والثاني: ظنه أن توسل الصحابة به في حياته كان توسلاً بذاته لا بدعائه وشفاعته فيكون التوسل به بعد موته كذلك. وهذا غلط، ولكنه يوافقه عليه طائفة من الناس بخلاف الأول: فأني ما علمت أحداً وافقه عليه.

الثالث: أنه أدرج سؤاله أيضاً في الاستغاثة به. وهذا صحيح جائز في حياته. وقد سوى في ذلك بين محياه ومماته. فأخطأ في التسوية بين المحيا والممات. وهذا ما علمته ينقل عن أحد من العلماء لكنه موجود في كلام بعض الناس، مثل الشيخ يحيي الصرصري في شعره قطعة منه. ومحمد بن النعمان كان له كتاب المستغيثين بالنبي ﷺ في اليقظة والمنام.

وهؤلاء ليسوا من أهل العلم العالمين بمدارك الأحكام الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الإسلام، ومعرفة الحلال والحرام. وليس معهم دليل شرعي ولا نقل عن عالم مرضي؛ بل عادة جروا عليها كما جرت عادة كثير من الناس بأنه يستغيث بشيخه في الشدائد ويدعوه. وهؤلاء ليس لهم مستند شرعي من كتاب أو سنة أو قول عن الصحابة والأئمة. وليس عندهم إلا قول طائفة من الشيوخ: إذا كانت لكم حاجة فاستغيثوا بي، وتعالوا إلى قبري، ونحو ذلك مما فيه تضليل لأصحابه بالاستغاثة به حياً وميتاً، ومن كان له نوع من العلم والعبادة ـ إلى أن قال:

فليس معهم بذلك حديث يروى ولا نقل عن صاحب ولا تابعي ولا قول عن إمام مرضي ولهذا لما نُبه من نبه من فضلائهم تنبهوا وعلموا أن ما

كانوا عليه ليس من دين الإسلام بل هو مشابهة لعباد الأصنام.

لكن هؤلاء كلهم ليس فيهم من بعد نفي هذا والنهي عنه كفر إلا مثل هذا الأحمق الضال الذي حاق به وبيل النكال. فإنه من غلاة أهل البدع الذين يبتدعون القول ويكفرون من خالفهم فيه كالخوارج والروافض والجهمية. فإن هذا القول الذي قاله لم يوافقه عليه أحد من المسلمين الأولين ولا الآخرين، وما علمت عالماً نازع في أن الاستغاثة بالنبي وغيره من المخلوقين لا تجوز.

إلى أن قال ـ وهذه الطريقة التي سلكها هذا وأمثاله هي طريقة أهل البدع الذين يجمعون بين الجهل والظلم : فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة ثم يكفرون من خالفهم في بدعتهم ، كالخوارج المارقين الذين ابتدعوا ترك العمل بالسنة المخالفة ـ بزعمهم ـ للقرآن ، وابتدعوا التكفير بالذنوب ، حتى كفروا عثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب ومن والاهما من الأنصار والمهاجرين وسائر المؤمنين، وكالرافضة ابتدعوا تفضيل علي وتقديمه في الإمامة ودعوى العصمة له وكفروا من خالفهم من كل الصحابة والمؤمنين، حتى كفروا أبا بكر وعمر ومن والاهما، وكالجهمية ابتدعوا نفي الصفات المتضمن في الحقيقة لنفي الخالق وصفاته وأسمائه، وابتدعوا القول بنفي الرؤية وأن كلامه مخلوق، ثم امتحنوا الناس وكفروهم على ذلك وكالقدرية ابتدعت التكذيب بالقدر؛ وأنكرت مشيئة الله النافذة وقدرته التامة وخلقه لكل شيء، وكفروا أو منهم من كفر من خالفه؛ وكالحلولية والمعطلة في الذات والصفات يكفر كثير منهم من خالفهم والذين يقولون ليس كلامه إلا معنى واحد قائماً بذاته: ومعنى التوراة والإنجيل واحد والقرآن العزيز ليس هو كلامه؛ بل

كلام جبريل أو غيره. فنهم من يكفر من خالفه. ونظائر هذا متعددة.

إلى أن قال ـ وأما أئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان ففيهم العلم والعدل والرحمة. فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة، سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم. كما قال تعالى ﴿ ٥ : ٨ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ويرحمون الخلق ويريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداء، بل إذا عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا ـ إلى أن قال:

وقوله: إن الاستغاثة به بعد موته ثابتة بثبوتها في حياته لأنه عند الله في مزيد دائم لا ينقص جاهه.

فيقال: إذا كان معنى الاستغاثة هو الطلب منه فما الدليل على أن الطلب منه ميتاً كالطلب منه حياً، وعلو درجته بعد الموت لا يقتضي أن يسأل كما لا يقتضي أن يستفتى. ولا يمكن لأحد أن يذكر دليلاً شرعياً على أن سؤال الموتى من الأنبياء والصالحين وغيرهم مشروع، بل الأدلة الدالة على تحريم ذلك كثيرة، حتى إنه إذا قدر أن الله يكلفهم بأعمال يعملونها بعد الموت لم يلزم من ذلك جواز دعائهم كما لا يجوز دعاء الملائكة وإن كان الله وكلهم بأعمال يعلمونها. لما في ذلك من الشرك.

وهو يحتج بحديث الأعمى الذي قال «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة».

وهذا الحديث لا حجة فيه لوجهين:

أحدهما: أنه ليس هو استغاثة به بل توجه به.

والثاني: أنه إنما توجه بدعائه وشفاعته. فإنه طلب من النبي ﷺ الدعاء وقال في آخره «اللهم فشفعه في» فعلم أنه يشفع له، فتوسل بشفاعته لا بذاته. كما كان الصحابة يتوسلون بدعائه في الاستسقاء، وكما توسلوا بدعاء العباس بعد مماته.

وهذا المحتج به بني حجته على مقدمتين فاسدتين: على أنهم توجهوا بذاته، وأن ذلك يسمى استغاثة. فلزم من ذلك جواز ذلك بعد موته. وفساد إحدى المقدمتين يبطل كلامه. فكيف إذا بطلتا.

وما ذكره من توسل آدم وحكاية المنصور.

فجوابها من وجهين:

أحدهما: أن هذا لا أصل له، ولا تقوم به حجة، ولا إسناد لذلك.

والثاني: أنه لو دل لدل على التوسل بذاته، لا على الاستغاثة به.

وأما فتح الكوة لينزل المطر فهو أيضاً باطل، كما تقدم التنبيه عليه. ومع هذا فليس من هذا.

وكذلك استسقاؤهم بدعائه ليس من هذا الباب.

وأما اشتكاء البعير إليه. فهذا كاشتكاء الآدمي إليه. ومازال الناس يستغيثون به في حياته كما يستغيثون به يوم القيامة. وقد قلنا إنه إذا طلب منها ما يليق بمنصبه فهذا لانزاع فيه، والطلب منه في حياته والاستغاثة به في حياته فيما يقدر عليه لم ينازع فيه أحد. فما ذكره لا يدل على مورد النزاع ـ

إلى أن قال:

وأما قوله: ولم يجعل الله لأحد تنقيص الرسل. وأجمع السلف والخلف على تعظيمهم في الاعتقاد والأقوال والأفعال.

فيقال: هذا حق لكنه كما قال علي بن أبي طالب «كلمة حق أريد بها باطل».

وهو أن من سألهم مالا يقدرون عليه أحياء وأمواتاً فقد آذاهم واعتدى عليهم وهو مستحق للعقوبة التي يستحقها مثله. بل من سألهم في حياتهم ما لا يريدون فعله حتى فعلوا ما يكرهونه فهو مستحق للذم والمقت.

ومن ابتدع في دينهم ما لم يأذن به الله وما يخالف ما جاءوا به، لزم منه أن يكون دينهم ناقصاً، وأنهم أتوا بالباطل. وهذا مناقض بلا ريب لما يجب من الإيمان بهم وتعزيرهم وتوقيرهم، ومن خالف ما جاءوا به من توحيد الله، وإفراده بالدعاء فهو من أعظم المخالفين لهم اعتقاداً وقولاً وعملاً.

فإن أعظم ما دعوا إليه هو التوحيد. فالمخالف. له من أعظم الناس مخالفة لهم.

وقد بينا في الصارم المسلول أن التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان. وكل أمة لا تصدق الرسل فلا تكون إلا مشركة وكل مشرك فإنه لا بد مكذب للرسل.

فمن دخل فيه نوع من الشرك الذي نهت عنه الرسل فإنه مناقض لهم. مخالف لموجب رسالاتهم.

وإذا كان كذلك فما قال هذا المفتري وأمثاله فهو بدعة لم تشرعها الرسل لو لم يرد في رسالتهم ما يتضمن النهي عنها . فكيف إذا علم أنه نهى عنها .

أما المقام الأول: فإنه لا يمكن لأحد أن يقول إن النبي ﷺ شرع لأمته أن يستغيثوا بميت ولا غيره، لا في جلب منفعة، ولا في دفع مضرة، بهذا اللفظ ولا بمعناه فما شرع لهم أن يدعوا ميتاً ولا يسألوه، ولا يدعو إليه، ولا أن يستجيروا به ولا يدعوه؛ لا رهبة ولا رغبة، ولا يقول أحد لميت: أنا في حسبك، أو أنا في جوارك، أو أنا أريد أن تفعل كذا وكذا، ولا أن يخطو إلى قبر ميت خطوات، وأن يتوجه إلى جهة قبره ويسأله، كما يفعل كثيراً من هذا النصارى وأشباه النصارى من ضلال هذه الأمة بكثير من شيوخهم وغير شيوخهم. ولم يشرع لأحد أن يقول لميت: سل لي الله أو ادع لي، ولم يشرع لهم أن يشكوا إلى ميت، فيقول أحدهم مشتكياً إليه: عليَّ دين أو آذاني فلان، أو قد نزل بنا العدو، أو أنا مريض. أو أنا خائف ونحو ذلك من الشكاوي؛ سواء كان هذا السائل عند قبر الميت أو كان بعيداً منه وسواء كان الميت نبياً أو غيره، بل ولم يشرع لأمته إذا كان لأحدهم حاجة أن يقصد قبر نبي أو صالح فيدعو لنفسه، ظاناً أن الدعاء عند قبره يجاب، بل ولم يشرع لأمته أن يتوسلوا إلى الله بذات نبي أصلاً، بل ولا بذات حي، إلا أن يكون بما أمر الله من الإيمان به وطاعته أو بدعاء المتوسل به وشفاعته. فأما إذا لم يكن المتوسل يتوسل بما أمر الله به، ولا بدعاء الداعي له. فليس هناك وسيلة شرعها الله ورسوله[1] فإذا كان النبي ﷺ والرجل الصالح له عند الله من الجاه والقدر والحرمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فهذا لا ينتفع المتوسل به إلا بأحد وجهين:

إما أن يتوسل المتوسل بما أمره الله به من الإيمان به ومحبته وطاعته

---

(١) يعني أن المتوسل إذا لم يتوسل بما أمره الله من محبة الرسول والإيمان به وطاعته، أو بدعائه حال حياته ﷺ بل توسل بجاهه أو بذاته أو بحقه فليس هذا من الوسيلة التي شرعها الله ورسوله، بل من الوسيلة التي شرعها الشيطان محادة لله ولرسوله. فتكون من إيذاء الرسول وعدم توقيره وتعظيمه.

وموالاته والصلاة والسلام عليه، ونحو ذلك: فهذه هي الوسيلة التي أمر الله بها في قوله ﴿ ٥ : ٣٥ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾[1] فالوسيلة يجمعها طاعة الله والرسول فكل وسيلة طاعة لله وللرسول وكل طاعة لله وللرسول وسيلة ﴿ ٤ : ٨ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ﴿ ٤ : ٩٦ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقين ﴾ الآية.

الوجه الثاني: أن يدعو له الرسول. فهذه أيضاً مما يتوسل به إلى الله تعالى فإن دعاءه شفاعة عند الله من أعظم الوسائل.

فأما إذا لم يتوسل العبد بفعل واجب أو مستحب، ولا الرسول دعا له. فليس في عظم قدر الرسول ما ينفعه. ولكن بعض الناس الذين دخلوا في دين الصابئين والمشركين ظنوا أن شفاعة الرسول لأمته لا تحتاج إلى دعاء منه، بل الرحمة التي تفيض على الرسول تفيض على المستشفع به، من غير شعور من الرسول، ولا دعاء منه ومثلوا ذلك بانعكاس شعاع الشمس إذا وقعت على ماء أو مرآة وانعكس شعاعها على حائط أو غيره حصل النور في الموضع الثاني بواسطة الشعاع المنعكس على المرآة. قالوا: فهكذا الرحمة تفيض على النفوس الفاضلة كنفوس الأنبياء والصالحين ثم تفيض بتوسطهم على نفوس المتعلقين بهم. وكما أن انعكاس الشعاع يحتاج إلى المحاذاة فكذلك الفيض لا بد فيه من توجه الإنسان إلى النفوس الفاضلة.

وجعل هؤلاء الفائدة في زيارة القبور من هذا الوجه. وقالوا: الأرواح المفارقة تجتمع هي والأرواح الزائرة فيقوى تأثيرها.

وهذه المعاني ذكرها طائفة من الفلاسفة ومن أخذ عنهم، كابن سينا

---

(١) ولعل الأقرب إلى معنى الآية: اتقوا الله بالإيمان به وطاعته وإخلاص العبادة له متحسبين الأجر عليه سبحانه قاصدين القرب والدرجة الرفيعة عنده ففي الحديث «الوسيلة درجة رفيعة في الجنة».

وأبي حامد الغزالي وابن عربي وغيرهم.

وهذه الأحوال هي من أصول الشرك وعبادة الأصنام، وهي من المقاييس الفاسدة. وهي من أقوال من يقول: إن الدعاء إنما تأثيره بكون النفس تتصرف في العلم لا بكون الله هو يجيب الداعي. وهي مبنية على أن الله ليس بفاعل مختار؛ يحدث الحوادث بمشيئته واختياره. بل هؤلاء يقولون. إن الرب سبحانه وتعالى موجب للعالم بذاته، ويسمونه علة العلل، ويقولون: إنه علة تامة. وإذا كان كذلك فلا بد للحوادث من سبب؛ فجعلوا سبب حركة الفلك وما يحدث عنها من الأشكال الفلكية والاتصالات الكوكبية، ثم الإلهيون منهم يقولون: إن الحركة بسبب الاستعدادات من العالم السفلي لأن يفيض عليها من العقل الفعال الصور النوعية، وأنه يفيض على النفوس العلوم والأخلاق وغير ذلك. وهؤلاء يجوزون عبادة الكواكب، لأنه بتوجهه إليها يفيض عليه منها أمور. وكذلك الأصنام، لأنه بتوجهه إلى الصنم يكون متوجهاً إلى صاحبه فيفيض عليه أموراً. والنفوس المفارقة هي سعيدة فإذا توجه المتوجه إلى تلك النفوس والقبور التي دفن فيها بدنها فاض عليهما منها ما يفيض ـ إلى أن قال: ولا ريب أن هذه الأقوال ونحوها تدعو إلى غير دين الإسلام[1].

(١) ومن تدبر حكاية شيخ الإسلام لعقيدة هؤلاء في معبوداتهم، وأنهم إنما خلعوا عليهم هذا التقديس بسبب مالهم من هذا الفيض الذي توهموا بوحي الشيطان واعتقادهم في ربهم أنه علة العلل وأنه السبب الموجب بذاته للعالم بهذا الفيض المنبثق منه، اتضح له ما قررناه سابقاً في التعليق على حديث «لا تطروني» من أن كل هذه المعبودات الباطلة التي ما بلغوا بها إلى التقديس والعبادة إلا بهذا الفيض وانبثاق النور أو الروح من علة العلل أو الوجود الكلي الذي سماه لهم الشيطان ربا ـ سبحان رب العالمين عن ذلك ـ يرجعون في عقيدتهم وتقديسهم لهؤلاء الأولياء والأنداد من الموتى والأحجار والرجوم إلى عقيدة الوثنية القديمة في الهند واليونان وقوم نوح وقوم ابراهيم وغيرهم؛ ومرجعها إلى البنوة والانفصال من الرب حتى اكتسبوا هذه الجزيئة التي كعلت لهم في نفوس عابديهم هذا التقديس والعبادة وكل ذلك لا حقيقة له في الواقع، وإنما خيله الشيطان لهم ليعود أمرهم إلى عبادته ←

وقول هذا المفتري وأمثاله يجر إلى مثل هذا. لكنهم لا يعرفون أصل قولهم. ولوازمه تقليداً لشيوخهم نوع من صورة علم ودين، وليسوا لهم خبرة بما جاء به الرسول.

وعندهم تعظيم الأنبياء والصالحين من جنس تعظيم النصارى والمشركين، يعظمونهم تعظيم ربوبيته، من جهة ما يرجونه في حصول مطالبهم، لا يعظمونهم لكونهم رسل الله الذين أمروا بطاعتهم. فيجب أن يطاعوا فيما أمروا به، وأن يقتدي بهم فيما يشرع التأسي فيه بهم. بل يعرضون عن بعض طاعاتهم والتأسي بهم؛ ويقبلون على نوع من دعائهم وسؤالهم والإشراك بهم. وهؤلاء بالنصارى أشبه منهم بالصابئة الفلاسفة. لكن الجميع فيهم شرك.

إلى أن قال: وهذا الضال وأمثاله يجعلون الأنبياء والصالحين من جنس الذين يظنون أن النفع والضر يحصل لهم بتوسطهم. كما يجعل الشعاع والحرارة بتوسط الشمس.

ونحن نقول: إن كل ما شرعه الله ورسوله فهو من أعظم الوسائل إلى الله لكن دعاؤهم بعد الموت لم يشرعه الله ورسوله. فليس من الوسائل. وكذلك سؤال أحدهم ما لا يقدر عليه إلا الله ليس مشروعاً.

وأصل الدين: أن لا يعبد إلا الله وأن لايعبد إلا بما شرع.

← من دون الله بأسماء محبوبة عندهم من أسماء الأنبياء والصالحين. وأقام لهم هذه الهياكل والأنصاب ليكون أبلغ في عبادته لعنه الله، وأبعد عن الاتصال بأي صلة بالأنبياء وتابعيهم من المؤمنين والصالحين. واقرأ قوله تعالى ﴿٣٦: ٦٠ ـ ٦٢ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان؛ أنه لكم عدو مبين. وان اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون؟ ﴾.

وما ذكره هؤلاء يتضمن عبادة غير الله وأن يعبد الله بغير ما شرع.

المقام الثاني: أن يقال هذا مما نهت عنه الرسل. فقد ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ « نهى عن اتخاذ القبور مساجد » وقال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا » وقال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

فلو كان الدعاء عند القبور أجوب منه في غير تلك البقعة لكان قصدها للدعاء عندها مشروعاً ولم ينه أن يتخذ مسجداً. فإن اتخاذ القبور مساجد يدخل فيه الصلاة وغيرها. ويدخل فيه بناء المساجد عليها. وكلاهما منهي عنه بل محرم كما صرح به غير واحد من العلماء. فإن النبي ﷺ لعن من فعل ذلك تحذيراً لأمته. وهذا يقتضي توكيد التحريم. فإن الدعاء في الصلاة أجوب منه في غيرها كالدعاء في دبرها كما جاءت به السنة في الأدعية الشرعية فإنها مشروعة في آخر الصلاة. كذلك الدعاء عقب الصلاة وأفضل الدعاء دعاء يوم عرفة. وإنما يكون بعد صلاة الظهر والعصر. والوقوف بمزدلفة ودعاؤها بعد صلاة الفجر. والطواف يجري مجرى الصلاة. ولهذا يستحب الدعاء في آخره. كما كان النبي ﷺ يقول بين الركنين «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» والطواف تحية للمسجد الحرام. وأما منى فعبادتها رمي الجمار. ولهذا يرمونها يوم النحر ثم ينحرون. فليس بمنى صلاة عيد. بل رمي جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لغيرهم. وسائر الجمرات ترمى عقب الزوال، قبل صلاة الظهر. وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال «إنما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله» فلما كان من شعائر الصلاة والطواف كان كالدعاء عندها مشروعاً؛ كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ «كان يدعو بين الجمرتين بقدر سورة البقرة. إلى

أن قال :ـ

في الجملة : أحق البقاع بذكر الله فيها المساجد التي يصلي فيها، والمشاعر التي شرع الله فيها الذكر، وأمر أن يكون الدين خالصاً له، كما قال تعالى ﴿٦ : ١٦١ ـ ١٦٣ قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم. ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له﴾ فإذا كانت الصلاة والذكر لله وحده لم يكن ذلك مشروعاً عند قبر، كما لا يذبح للميت ولا عند قبره، بل نهى النبي ﷺ عن العقر وكره العلماء الأكل من تلك الذبيحة. فإنها تشبه ما ذبح لغير الله.

فلو كانت مقابر الأنبياء والصالحين مما يستحب الدعاء عندها لكانت إما من المساجد وإما من المشاعر التي يحج إليها، وقد نهى النبي ﷺ عن هذا وهذا. بل لعن الذين اتخذوا القبور مساجد. وقال في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره «لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا على حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني» فنهى أن نتخذ قبره عيداً، وهذا معنى المشاعر فإن المشاعر تتخذ أعياداً. أي يجتمع الناس عندها في أوقات معتادة. والعيد اسم للوقت والمكان الذي يعتاد المجيء فيه. وقد يعبر به عن نفس الاجتماع المعتاد. ولهذا سمى النبي ﷺ يوم الجمعة عيداً، وقال «إن هذا يوم جعله الله عيداً للمسلمين» وقد ثبت عن عمر بن الخطاب أنه «رأى قوماً ينتابون مكاناً يصلون فيه فقال : ما هذا؟ قالوا مكان صلى فيه النبي ﷺ فقال : أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ أنما هلك من كان قبلكم بهذا من أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمض» فقد نهاهم عن اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد ـ إلى أن

وأما ما نقل عن ابن عمر أنه كان يتحرى النزول في مكان نزول النبي ﷺ، والصلاة في مصلاه فهذا أمر انفرد به ابن عمر رضي الله عنه. والخلفاء الراشدون من الأكابر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يكونوا يفعلون ذلك، وهم أفضل من ابن عمر وأعظم اتباعاً للنبي ﷺ ولو كان هذا مستحباً لفعله هؤلاء.

وأيضاً فلما فتح المسلمون تستر وجدوا فيها سريراً عليه جسد دانيال. وكان أهل البلد يستسقون به. فكتب في ذلك أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه «أن احفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً وادفنه بالليل في واحد منها؛ لئلا يفتتن به الناس فيستسقون به».

فهذه كانت سنة الصحابة رضوان الله عليهم.

ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين لهم بإحسان على وجه الأرض في ديار الإسلام مسجد بني علي قبر؛ ولا مشهد يزار، لا في الحجاز ولا في اليمن ولا الشام ولا مصر ولا العراق ولا خراسان.

وقد ذكر مالك رحمه الله أن وقوف الناس للدعاء عند قبر النبي ﷺ بدعة لم يفعلها الصحابة ولا التابعون. وقال «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» إلى أن قال:

وأما دعاء الميت وسؤاله بلفظ الاستغاثة وغيرها. فهذا مما نهى عنه القرآن. قال تعالى ﴿١٧: ٥٦، ٥٧ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ وفي التفسير الصحيح عن مجاهد «يبتغون إلى ربهم الوسيلة» قال:

عيسى ابن مريم وعزير والملائكة. وكذلك عن ابراهيم قال: كان ابن عباس يقول في قوله تعالى «أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة» هو عزير والمسيح والشمس والقمر» وكذلك روى شعبة عن السدى عن أبي صالح عن ابن عباس قال «عيسى وأمه والعزير في هذه الآية» ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وروى قتادة عن عبدالله بن معبد الزماني عن ابن مسعود قال «كان قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن يقولون: هم بنات الله. فانزل الله تبارك وتعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وفي رواية الزماني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبدالله قال «نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فاسلم الجنيون، والأنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم. فنزلت ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وكذلك قال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الذين يدعون الملائكة تبتغي إلى ربها الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً. قال «وهؤلاء الذين عبدوا الملائكة من المشركين» وكذلك ذكر العوفي في تفسيره عن ابن عباس قال «يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً» وثبت أيضاً في الصحيح للبخاري عن ابن مسعود قال «كان ناس يعبدون قوماً من الجن. فأسلم الجن وبقي الأنس على كفرهم فأنزل الله تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ يعني الجن» وهذا معروف عن ابن مسعود من غير وجه.

وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابداً لله؛ سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر.

والسلف رضي الله عنهم في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على

نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله عن الخبز فيريه رغيفاً. فيقول: هذا. فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه. فالآية خطاب لمن دعا من دون الله مدعواً وذلك المدعو يبتغي إلى ربه الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه ـ وهذا موجود في الملائكة والجن والإنس ـ إلى أن قال:

والاستغاثة هي طلب كشف الشدة. فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الملائكة والصالحين أو دعا الملائكة أو دعا الجن فقد دعا من لا يغيثه فإنه لا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله. وقد قال تعالى ﴿ ٧٢: ٦ وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾.

وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق. قالوا لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك كقوله «أعوذ بكلمات الله التامات كلها من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» و«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ماينزل من السماء وما يعرج فيها. ومن شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها. ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارق يطرق بخير يا رحمن».

قالوا والاستعاذة لا تجوز بالمخلوق. وقول القائد «أعوذ بالله» معناه أستجير بالله فإذا لم يجز أن يستعاذ بمخلوق؛ لا نبي ولا غيره. فإنه لا يجوز أن يقال له أنت خير معاذ يستعاذ به، بطريق الأولى والأحرى. كقول القائل لمن مات من الأنبياء وغيرهم. بك أستجير من كذا وكذا كقوله. بك أستعين وقوله. بك أستغيث في معنى ذلك. إذا كان مطلوبه منع الشدة أو رفعها. والمستعيذ يطلب منه المستعاذ منه أو رفعه. فإذا كان مخوفاً طلب منعه؛ كقوله: أعوذ

بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر. وإذا كان حاضراً طلب رفعه، كما في الحديث الصحيح «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» فنعوذ بالله من شر الموجود، ومن شر المحاذر.

والداعي يطلب أحد شيئين: إما حصول منفعة. وإما دفع مضرة فالاستعاذة والاستجارة والاستغاثة كلها من نوع الدعاء والطلب إلى أن قال:

ومما يبين حكمة الشريعة وعظم قدرها، وأنها كما قيل «سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق» إن الذين خرجوا عن المشروع زين لهم الشيطان أعمالهم حتى خرجوا إلى الشرك.

وطائفة من هؤلاء، يصلون إلى الميت، ويدعو أحدهم الميت ويقول اغفر لي وارحمني ويسجد لقبره.

ومنهم من يستقبل القبر ويصلي إليه مستدبراً الكعبة، ويقول: القبر قبلة الخاصة والكعبة قبلة العامة وهذا يقوله من هو أكثر الناس عبادة وزهداً، وهو شيخ متبوع، ولعله أمثل أتباع شيخه؛ يقوله في قبر شيخه وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين المشهورين بالاجتهاد في العبادة يأمر المريد أول مايتوب أن يذهب إلى قبر الشيخ ويعكف عنده.

وجمهور هؤلاء المشركين يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب ما لا يجده أحدهم في مساجد الله التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وآخرون يحجون إلى القبور.

وطائفة صنفوا كتباً وسموها مناسك حج المشاهد، كما صنف محمد بن

النعمان الملقب بالمفيد أحد شيوخ الإمامية كتاباً في ذلك. وذكر فيه من الحكايات المكذوبة عن أهل البيت ما لا يخفى كذبه على من له معرفة بالنقل. وآخرون يسافرون إلى قبور المشايخ، وإن لم يسموا ذلك منسكاً وحجا، فالمعنى واحد.

ومن هؤلاء من يقول: وحق النبي الذي تحج إليه المطايا. فيجعل الحج إلى النبي لا إلى بيت الله عز وجل.

وكثير من هؤلاء اعظم قصده من الحج قصد قبر النبي ﷺ لا حج البيت.

وذكر رحمه الله عن كثير من هؤلاء ما هو من جنس ما تقدم، وأعظم ـ إلى أن قال:

ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذي يعظمه أفضل من الحج؛ ويقول أحد المريدين للآخر وقد حج سبع حججٍ إلى بيت الله العتيق: أتبيعني زيارة قبر الشيخ بالحجج السبعة؟ فشاور الشيخ؛ فقال: لو بعت لكنت مغلوباً.

ومنهم من يقول. من طاف بقبر الشيخ سبعاً كان كحجة. وذكر عن أمثال هؤلاء كثيراً من هذا الضرب، ثم قال.

وهؤلاء وأمثالهم صلاتهم ونسكهم لغير الله رب العالمين. فليسوا على ملة إبراهيم إمام الحنفاء؛ وليسوا من عمار مساجد الله الذين قال الله فيهم ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ فعمار مساجد الله لا يخشون إلا الله، وعمار مساجد المقابر يخشون غير الله، ويرجون غير الله. حتى

أن طائفة من أصحاب الكبائر الذين لا يتحاشون فيما يفعلونه من القبائح كان إذا رأى قبة الميت أو الهلال الذي على رأس القبة خشي من فعل الفواحش، ويقول أحدهم لصاحبه ويحك، هذا هلال القبة. فيخشون المدفون تحت الهلال ولا يخشون الذي خلق السموات والأرض وجعل أهلة السموات مواقيت للناس والحج.

وآخرون قد جعلوا الميت بمنزلة الإله؛ والشيخ الحي المتعلق به كالنبي. فمن الميت يطلب قضاء الحاجات وتفريج الكربات؛ وأما الحي فالحلال ما أحله والحرام ما حرمه. وكأنهم في أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه آلهاً، وعزلوا نبيه محمد ﷺ عن أن يتخذه رسولاً.

وقد يجيء الحديث العهد بالإسلام أو التابع لهم الحسن الظن بهم أو غيره، يطلب من الشيخ الميت إما دفع ظلم ملك يريد أن يظلمه أو غير ذلك، فيدخل ذلك السادن فيقول: قد قلت للشيخ، والشيخ يقول للنبي، والنبي يقول لله. والله قد بعث رسولاً إلى السلطان فلان، فهل هذا إلا محض دين المشركين والنصارى. وفيه من الكذب والجهل ما لا يستجيزه كل مشرك ونصراني ولا يروج عليه.

ويأكلون من النذور وما يؤتى به إلى قبورهم ما يدخلون به في معنى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ والله تعالى لم يذكر في كتابه المشاهد، بل ذكر المساجد. قال تعالى ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ وقال تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر

وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ ولم يذكر بيوت الشرك؛ كبيوت الأصنام والمشاهد ولا ذكر بيوت النار ولا ذكر بيوت الصابئة المشركين، كالذين يسمونه هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل وهيكل النفس وهيكل زحل وهيكل المشتري وهيكل المريخ وهيكل الشمس وهيكل عطارد وهيكل الزهرة وهيكل القمر. فإن هذه البيوت ليس في أهلها مؤمن، ولم يكن في أهلها عبادة أمر الله بها. فبيوت الأوثان وبيوت النيران وبيوت الكواكب وبيوت المقابر لم يذكر الله شيئاً منها إلا في قصة من لعنهم النبي ﷺ ﴿ ١٨ : ٢١ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ فهؤلاء الذين قالوا لنتخذن عليهم مسجداً كانوا من النصارى الذين لعنهم النبي ﷺ حيث قال فيما رواه البخاري ومسلم «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفي رواية «وصالحيهم».

وفي الصحيحين عنه ﷺ «أنه لما ذكرت له أم سلمة كنيسة بأرض الحبشة، وذكرت له حسنها وتصاويرها، فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» وفي الصحيح عن أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته» إلى أن قال:

الوجه الرابع أن يقال: الغلاة المشركون هم في الحقيقة بخسوا الرسل ما يستحقونه من التعظيم؛ دون الأمة الوسط أهل التوحيد، المتبعين لشريعة الرسل.

وبيان ذلك بأمور.

منها أنهم يقولون. إن النصارى يعظمون المسيح. وكذلك الغالية في علي أو الأئمة أو الشيوخ أو غيرهم، وهم في الحقيقة متنقصون لهم. فإن المسيح عليه السلام أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأخبرهم أنه عبدالله؛ فهم إذا اتبعوه كان له من الأجر مثل أجورهم؛ من غير أن ينقص من أجورهم شيء. كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء» وإذا غلوا فيه واتخذوه ربا انقطع ثواب العمل الصالح الذي كان يحصل بالتوحيد والطاعة، وحصل لهم من ذلك عذاب أليم؛ وإن كان هو سليماً من العذاب لكن فوتوا عليه الأجر الذي كان يحصل له بتوحيدهم وطاعتهم[1].

وأما أهل الاستقامة فهم إذا وحدوا الله كما شرعته لهم الرسل، وأطاعوهم صاروا أولياء لله مستحقين لثوابه. وحصل للرسول الذي دعاهم مثل أجورهم. وكان في هذا من التعظيم للرسول ما ليس في طريق الغلاة.

---

(١) وليس هذا فقط؛ بل هذا أهون الأمرين ـ أما أشدهما خطراً وأظهرهما في تنقص الأنبياء وسبهم أقذع سب، فإن هذا الغلو من النصارى في عيسى والغلو من المدعين الإسلام في محمد عليهما الصلاة والسلام معناه الذي لا معنى له سواه، والذي قصد إليه من زينو للناس هذا الغلو ـ هو تكذيبهما وتكذيب الله الذي أرسلهما. فإن معنى أنهما النور الذي انبثق أولا من الله في الأزل؛ فتسمية النصارى عيسى بن الله وتسمية غيرهم محمداً أول خلق الله ـ معناه أنهما كاذبان فيما أخبرا من أنهما بشر كبقية البشر، امتازا عن البشر بالوحي إليهما أن الله آله واحد، وأنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وإذا راج على الناس أن الرسول كاذب أو مدلس في بعض ما أخبر به عن الله فهو كاذب في كل ما دعا الناس إليه. وأنت ترى آثار ذلك التكذيب القلبي وإن أنكره الناس بألسنتهم: هذا الإعراض، بل الكراهية البالغة، لرسالته وهديه الذي لا يعرف رسول الله ﷺ إلا به، وهو كتاب الله والأحاديث الصحيحة من البخاري ومسلم وغيرهما فقد أعرض عباد الأولياء والمتغالون في رسول الله عن كل ما فيها ولم يبق لهم حظ في شيء من الكتاب والسنة إلا في الورق والحبر والجلد، أما العلم والعقيدة والهدى والسمت والأخلاق والأحكام والتشريع فهم عن كل ذلك معرضون بل كارهون محاربون. وهل بعد هذا تنقص وإهانة لرسول الله ﷺ بأبي هو وأمي والناس كلهم؛ ثم زعم لهم شياطينهم أنهم بهذا الغلو يعظمونه.

الثاني: أن الغلاة يحرمون ثواب الدعاء لمن كانوا يعبدونه من الأنبياء والصالحين ويشغلهم دعاؤهم عن الدعاء لهم، فيحرمون ثواب ذلك.

الثالث: أن أهل التوحيد والسنة يصدقون الرسل فيما أخبروا به، ويطيعونهم فيما أمروا، ويحفظون ما قالوا، ويفهمونه ويعلمون به، وينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين المعطلين، وتأويل الجاهلين، ويجاهدون من خالفهم، تقرباً إلى الله. وطلباً للجزاء من الله لا منهم. وأهل الجهل والغلو لا يميزون بين ما أمروا به ونهوا عنه، ولا بين ما صح عنهم ولا ما كذب عليهم، ولا يفهمون حقيقة مرادهم، ولا يتحرون طاعتهم ومتابعتهم بل هم جهال بما أتوا به معظمون لأهوائهم وأغراضهم فالسدنة الذين عند القبور ونحوهم: غرضهم تعظيم أنفسهم عند الناس؛ وأخذ أموالهم بالباطل فأي الفريقين أشد تعظيماً؟ أولئك أو هؤلاء؟

الأمر الرابع: أن أولئك الغلاة المشركين إذا حصل لأحدهم مطلوبه ولو من كافر لم يقبل على الرسول؛ بل يطلب حاجته من حيث يظن أنها تقضي؛ فيذهب إلى ما يظنه قبر رجل صالح وهو في الواقع قبر رجل كافر، وتارة يعلم أنه كافر، وتارة يعلم أنه كافر ويذهب إليه كما يذهب كثير إلى الكنائس والهياكل وآثار قدماء الوثنيين المعروف أنهم كانوا وثنيين. وذلك لأنهم يتبعون الظن وما تهوى أنفسهم الجاهلة التي لاحظ لها من العلم والدين والدار الآخرة.

حتى إن بعض أصحابنا لما بلغه أني أنهى عن ذلك صار عنده شبهة قال لبعض أصحابنا سراً: أنا جربت إجابة الدعاء عند قبر بالقرافة. فقال له ذلك الرجل. أنا أذهب معك إليه لأعرف قبر من هو، فذهبا إليه فوجدا مكتوباً عليه: عبد علي. فعلموا أنه إما رافضي وإما إسماعيلي. وكان بالبلد

جماعة كثيرون يظنون في العبيديين أنهم أولياء الله صالحون.

وكم من مشهد يعظمه الناس وهو كذب، بل يقال أنه قبر كافر. كالمشهد الذي بسفح جبل لبنان الذي يقال إنه قبر نوح فإن أهل المعرفة يقولون إنه قبر بعض العمالقة. وكذلك مشهد الحسين في القاهرة، وقبر أبي بن كعب بدمشق أتفق العلماء أنهما كذب ومن العلماء من قال إنهما لنصرانين.

وكثير من المشاهد عندها شياطين. تضل بسببها من تضل ومنهم من يرى في المنام شخصاً يظن أنه المقبور، ويكون ذلك شيطاناً تصور بصورته أو بغير صورته كالشياطين الذين يكونون بالأصنام، وكالشياطين الذين يتمثلون لمن يستغيث بالأصنام والموتى والغائبين.

وذكر رحمه الله تعالى من هذا الضرب ـ إلى أن قال:

والمقصود أن هؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يسووا بين الأنبياء والكفار، ويطلبون من هذا ما يطلبون من هذا. فأي الفريقين أشد تعظيماً للأنبياء، هؤلاء أو من يوجب تعظيمهم باتباع شريعتهم ويفرق بين الحق الذي جاؤا به وبين غيره ولا ينزل أحداً منزلتهم، ولا يشبه بهم من ليس منهم. ولا يبتدع في الدين ما لم يأذن به الله.

فإن المبتدع من شرع ديناً لم يأذن به الله؛ لا من أمر بما أمر الله به ونهى عن ما نهى الله عنه.

ومن أعظم المبتدعين من جوز أن يستغاث بالمخلوق الحي والميت في كل ما يستغاث فيه بالله عز وجل بل من جوز أن يسأل الميت ويدعى على أي وجه كان، بل من حمل ألفاظ الاستغاثة بالنبي ﷺ على التوسل، وجعل توسل الصحابة به هو توسلهم بذاته أو الأقسام به على الله تعالى ولم يعلم أن

المراد بها التوسل بشفاعته.

ومن أعظم المبتدعين من جعل التوحيد كفراً والشرك إيماناً، وكفر من هم أحق بالإيمان من طائفته، ونفى الكفر عن طائفته الذين هم أحق بالكفر ممن كفروه ـ إلى أن قال:

الثالث: أن قول المجيب؛ ليس هو قوله وحده، بل هو قول جميع أئمة الدين وعلماء المسلمين. فليس من علماء المسلمين من يقول: إنه يستغاث بمخلوق في كل ما يستغاث بالله فيه. ولا من يقول إن الميت يستغاث به. وما علمت إلى ساعتي هذه أحداً من علماء المسلمين الذين يستحقون الافتاء نازع في هذا. وأما الشيوخ الذين يسألون الميت فهؤلاء ليس فيهم أحد ممن يرجع المسلمون إلى فتياه. فلهذا قال بعض السلف: لاتنظر إلى عمل الفقيه، ولكن اسأله يصدقك.

ثم قال رحمه الله تعالى: فإذا قيل لا يعبد إلا الله، لا الأنبياء ولا غيرهم؛ ولا يستغاث بمخلوق، لا الأنبياء ولا غيرهم. ونحو ذلك. كان ذلك تعظيما للرسول ﷺ، وتبينا أنه لا أحد أرفع منه من الخلق، وخصائص الرب عز وجل منتفية عنه؛ فعن غيره بطريق الأولى كقوله ﷺ «لو كنت متخذاً في أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله» فبين أن خلته للمخلوقين منتفية عن كل أحد حتى عن الصديق وهو أحقهم بها لو كانت ممكنة. ولو خص بالذكر لفظاً في سياق يفهم منه العموم كان حسناً كقوله تعالى ﴿٣: ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ وكذلك إذا كان سبب التخصيص حاجة المستمع، إما لسؤاله عن ذلك، وإما لحاجته إليه كقوله ﴿٤: ١٧٢ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً ولا الملائكة المقربون﴾ وقوله ﴿٥: ٧٥ ما المسيح ابن مريم إلا رسول

قد خلت من قبله الرسل ﴾ فإن الحاجة داعية إلى ذلك المسيح، لوقوع النزاع فيه.

فلو تنازع اثنان: هل يخص النبي بالحلف به دون سائر الأنبياء؛ فقال أحدهما لا يحلف به؛ لم يكن هذا تنقصاً، بل هذا قول الجمهور. وهو الصواب.

وكذلك إذا تنازع اثنان. هل يخص بالاستغاثة به أوبالإقسام على الله به بعد موته فقال أحدهما: لا يستغاث ولا يقسم به. فإن هذا ليس من خُصائصه، لكان من هذا الباب ـ إلى أن قال:

قول أبو يزيد استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق تلقاه الناس بالقبول، وقاله بعده أبو عبدالله القرشي، قال: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون. وهذا كقول النبي ﷺ لابن عباس «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» وقوله لطائفة من أصحابه «لاتسألوا الناس شيئاً» ومنه قوله تعالى ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ ومنه قول النبي ﷺ في وصف السبعين ألفاً «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون» فالاسترقاء طلب الرقية من المخلوق إلى أن قال:

الرابع: قوله: وإن كنا نعلم إن المراد بها المراد بقول القائل: لا يستغاث إلا بالله ولا يفرج الكرب إلا الله.

فيقال: هذا يقتضي تصويب هذا النافي. وعلى قولك لا يكون هذا النفي صواباً لإنك قلت: أنه يستغاث بالمخلوق في كل ما يستغاث فيه بالله. وحينئذ فهذا الإثبات يناقض ذلك السلب العام. وقد تقدم أن دعواه أن المثبت هو عين المنفي في كلام الله ورسوله خطأ، بل ما نفاه الرب عن غيره لم يثبته له،

والمنفي عن المخلوق ما اختص الرب به إلى أن قال:

والمقصود أن كثيراً من الضالين الجاهلين يستغيثون بمن يحسنون به الظن من الأموات والغائبين في كل ما يستغاث فيه بالله ولا يتصور أن هؤلاء يسألونهم مطالبهم كلها، ولا أكثرها. بل غاية ما يطلبونه منهم من جنس تحصيل المنافع ودفع المضار، لا يحصل بل قد يحصل بعض المطالب كما يحصل لعباد الأصنام والكواكب وغيرهم من المشركين ويكون ما يخبرون به ويفعلونه شبهة للمشركين، كما أن ما يخبر به الكاهن ونحوه من الأخبار فإنه يصدق في واحدة ويكذب في شيء كثير كما قال النبي ﷺ «لو أتوا بالأمر على وجهه لكان ولكن يخلطون بالكلمة الواحدة مائة كذبة».

فهذا القول الذي يقوله هذا مطابق لأحوال هؤلاء المشركين الضالين. وهذا ليس يقوله مسلم ولا عاقل يتصور ما يقول، بل هو من جنس قول النصارى: دعاء المسيح دعاء لله. لكن أولئك يقولون باعتبار الحلول والاتحاد، وأما بدون هذا فهو كلام غير معقول. فإن الله تعالى أمر أن يدعي هو ويسأل هو وحده، ولم يجعل دعاء أحد من المخلوقين دعاء له؛ بل قد نهى الله عن دعائه. ولو كان هذا حقاً لكان من دعاء الملائكة والأنبياء داعياً لله. فلا يكون مشركاً والله قد جعلهم مشركين.

قلت: فيلزم على هذا أن من سجد للشمس يكون ساجداً لله ويلزم على هذا أيضاً أن يكون كل مشرك بعبادته غير الله عابداً لله[1]. والسلام باطل، فبطل الملزوم.

---

(١) وعبدة الأولياء والموتى يعتقدون ذلك، وإن كانت ألسنتهم الكاذبة تنفيه. فهم جميعاً صوفية؛ والصوفية حقيقتها التي صرح بها شيوخها، كابن عربي وابن الفارض وأبي يزيد البسطامي وذي النون المصري وأبي سعيد الخراز، وفي كلام الغزالي في الأحياء ما يفهم منه ما صرح به هؤلاء. أن دينهم الذي يدينون به: هو الحلولية، وأن ربهم حال في كل شيء، وأن من عبد الشمس والقمر والشجي ←

قال شيخ الإسلام: والله قد جعلهم مشركين. قال تعالى ﴿١٧: ٥٦، ٥٧ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب - الآية﴾ فإن هؤلاء الضالين جعلوا الصالحين مع الله سبحانه كالوكيل مع موكله. فإذا طلب من الوكيل الدعاء كان المطالبة للموكل في المعنى. لكن هذا ليس من أقوال الموحدين، بل هو من أعظم شرك الملحدين، والرسول ﷺ لم يضمن للخلق أن يرزقهم ويحاسبهم وأن يجيب دعاءهم بل هذا كله أخبر أنه لله وحده. قال تعالى ﴿١٧: ٤٢ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ وقال ﴿٦: ٥٠ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ وقال تعالى ﴿٧: ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ وقال ﴿٩: ٥٩ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾.

فبين تعالى أن التحسب بالله وحده، والرغبة إلى الله وحده، وأما الإيتاء فلله وللرسول. لأن الحلال ما حلله الرسول والحرام ما حرمه الرسول. كما قال تعالى ﴿٥٩: ٧ وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ فالله تعالى قد جعل الرسول مبلغاً لكلامه الذي هو أمره ونهيه، ووعده ووعيده.

← والحجر والإنس والجن ما عبد إلا ربهم وإلههم، وأن فرعون ما قال إلا الحق إذ قال أنا ربكم الأعلى. وكل ذلك وألعن منه صرح به ابنعربي في فصوصه وفتوحاته وغيرهما وصرح به أبو يزيد فيما رووا من قوله: سبحاني سبحاني. وقول أبي سعيد الخراز: تحقق الأمر عندي أن أبا سعيد والله شيء واحد؛ وأن ما ثم فرق. والقباب ما بنيت على القبور وما وضعت شريعة عبادتها الشركية إلا بيد الصوفية الأثيمة فهم بلا شك يدينون بأن الأولياء جزء من ربهم وإلههم على تفصيل طويل في كتبهم لمن بحث ذلك بفهم وتدبر ومعرفة لحقائقهم وأصلهم ومنشأهم الأول قديماً قبل الإسلام وبعده. والحمدلله الذي عافانا وأنقذنا من هذا الكفر والضلال وهدانا بهدي الإسلام والقرآن.

وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبرون العالم بالخلق والرزق وقضاء الحاجات وكشف الكربات، بل النصارى تقول هذا في المسيح وحده، لشبهة الاتحاد والحلول. ولهذا لم يقولوا هذا في ابراهيم وموسى وغيرهم من الرسل، مع أنهم في غاية الجهل في ذلك. فإن الآيات التي بعث بها موسى أعظم ـ إلى أن قال رحمه الله تعالى:

فما الدليل على جواز السؤال لله بذات المخلوقين مطلقاً، أو بعد موتهم؟ ومن قال هذا من الصحابة أو التابعين لهم بإحسان؟ والصحابة إنما كانوا يتوسلون بدعائه وشفاعته ﷺ. ولهذا توسلوا بعده بالعباس. ولو كان التوسل بذاته ممكناً بعد الموت لم يعدلوا إلى العباس. والأعمى إنما توجه بدعائه وشفاعته. وكذلك الناس يوم القيامة يستغيثون به ليشفع لهم إلى الله. فهم يتوسلون بشفاعته؛ أما بمجرد الذات بعد الممات فلا دليل عليه، ولا قاله أحد من السلف. بل المنقول عنهم يناقض ذلك وقد نص غير واحد من العلماء أن هذا لا يجوز وإن نقل عن بعضهم جوازه فقد قال تعالى ﴿ ٤ : ٥٩ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾.

وإن أراد بقوله. لا يكون وسيلة أي لا يكون الإيمان به ومحبته وطاعته وموالاته واتباع سنته والمجاهدة في دينه ونحو ذلك وسيلة إلى الله تعالى. فهذا لم ينفه أحد ونفى الاستغاثة به لا ينفي هذه الوسائل.

قوله: وهذا نفي لوصف من أوصاف الكمال الثابتة له ﷺ.

فيقال له: لا نسلم أن هذا نفي لشيء من صفات الكمال، بل ولا نفي لشيء موجود. بل هو نفي لشيء منتف في نفس الأمر.

ويقال أيضاً: ليس من نفي وصفاً من أوصاف الكمال يكون كافراً وقد

قال ابن عباس وطائفة إنه ﷺ رأى ربه. ونفى ذلك آخرون من الصحابة وغيرهم، بل نفس المعراج قال الجمهور إنه كان ببدنه، وآخرون من السلف والخلف قالوا إنه كان بروحه فقط وقال أكثر المنتسبين إلى السنة إنه والأنبياء أفضل من الملائكة، وآخرون قالوا الملائكة أو بعضهم أفضل من الأنبياء إلى غير ذلك.

وقال بعض الغلاة: إنه كان يعلم علم الله؛ ويقدر قدرته. وكفر المسلمون من قال ذلك.

وهذا باب واسع فمازال المسلمون يتنازعون في شيء من إثبات صفات الكمال، ولا يقول المثبت للنافي: إنك كفرت[1] فإن الكمال الثابت ليس محدوداً يعلمه الناس كلهم. والكمال المطلق الذي لا غاية فوقه لله تبارك وتعالى. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «كمل من الرجال كثير» وهؤلاء الكاملون بعضهم أكمل من بعض. فإذا قال قائل. إذا كان الرسول الذي هو أفضل الخلق لا يضر ولا ينفع. فكيف بمن دونه ونحو ذلك. فهذا قوله: لا يضر ولا ينفع إلا الله. وهو نظير أن يقال: الرسول لا يستغاث به وإنما يستغاث بالله، والمراد بعد وفاته؛ كما قال تعالى ﴿ ٧٢: ٢١ ـ ٢٣ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ فأخبر أنه لا يملك من الله لا ضرهم ولا رشدهم وقال تعالى ﴿ ٣: ١٢٨ ليس لك من الأمر

(١) ذلك إذا كان الكمال مما يقبله الواقع وليس من خصائص الربوبية. أما إذا كان الواقع لا يصدقه، كدعوى الصوفية الضلال: أن محمداً هو النور الذي خلق وانبثق عن الله أولاً ومنه خلق كل شيء. فقائل ومعتقد هذا بلا شك كافر، لأنه مكذب لله وللرسول، ومفتر على الله الكذب. لأنه ناقض لصريح القرآن والسنة وكذلك إذا كان من الكمال الخاص بالربوبية، كالعلم المطلق والقدرة المطلقة والغنى المطلق، والحياة التي تماثل حياة الله في صفات السمع والبصر وغيرهما، مما ادعاه الصوفية الضلال للنبي والأولياء والموتى فقائل ذلك ومعتقده بلا شك كافر مرتد عن الإسلام يستتاب فإن تاب وإلا حل قتله إذا قدر على ذلك كما فعل رسول الله ﷺ وأصحابهز

شيء ﴾ وقد ثبت في الصحيحين أنه قال «يا فاطمة بنت محمد اعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً» فهذا تخصيص له بنفي ذلك، وهو الصادق ومن صدق الرسول فيما قاله فهو مؤمن ليس بكافر.

فإذا قال قائل: الرسول لا يغني عن بنته ولا عن عمه ولا عن عمته من الله شيئاً فكيف من دونهم؟ كان هذا من أحسن الكلام وأصدقه.

وقد كان النبي ﷺ يقول في دبر كل صلاة «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وكان يقول في رقيته «أذهب الباس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك».

وما يظنه المشركون والغلاة من النصارى وأشباههم أن الأنبياء والصالحين بعد موتهم أو في حياتهم ينزلون المطر ويدفعون العدو ويشفون المرضى، ونحو ذلك من الحوادث فهذا معلوم البطلان، وهو شرك عظيم. كما تقدم بيانه بالأدلة والبراهين. إلى أن قال:

ومن أطلق على النبي ﷺ أنه لا يسمع ولا يعلم فظاهر هذا اللفظ نفي ذلك عنه وهو كذب ظاهر. ثم قد يكون في سياق نفي علمه بالدين وسمعة لما أوحي إليه وهو كفر صريح. وقد يكون في سياق أنه لا يسمع ولا يعلم إلا ما أسمعه الله وأعلمه إياه؛ وإنه من تلقاء نفسه ليس له علم بشيء بل الله الذي أسمعه وأعلمه، كما قال تعالى ﴿ ٤: ١١٣ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ وقال تعالى ﴿ ٤٢: ٥٢ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ١٢: ٣ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا

القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ وكما قال تعالى ﴿٩٣ : ٧ ووجدك ضالاً فهدى﴾ فهذا المعنى ليس بكفر بل هو صحيح.

وقد يكون في سياق ان الله تعالى هو المختص بكمال السمع والعلم وأن غيره لا يبلغ مبلغه في ذلك. فهذا أيضاً صحيح فأما إطلاق أنه لا يسمع ولا يعلم فهو كذب وكفر؛ بخلاف إطلاق أنه لا ينفع ولا يضر. ولهذا يقول المسلم لا ينفعني ولا يضرني إلا الله؛ ولا يقول: لا يسمع ولا يعلم إلا الله، بل يقول: لا يعلم ما في نفسي إلا الله ولا يسمع كلام العباد كلهم إلا الله.

وأدلة هذا في القرآن كثير كقوله تعالى ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

فإذا كان يدعي أن ما يدل على تجريد التوحيد من هذه الألفاظ سوء عبارة في حق النبي ﷺ، وأن ذلك كفر. فسوء العبارة في حق الله أعظم كفراً كقولهم: إنه يستغاث بالمخلوق في كل ما يستغاث فيه بالخالف، فهذا يشعر أنه جعل المخلوق نداً للخالق وما يفهم الشرك كان من أسوأ العبارة. فيجب أن يكون كفراً يلزم هذا القائل. وقد قال رجل للنبي ﷺ «ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله نداً– بل ما شاء الله وحده» وقال «من حلف بغير الله فقد أشرك» ومثل هذا كثير كقوله تعالى ﴿١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ فمن جعل الرسول ﷺ يطلب منه الناس ما يطلبونه من الله فقد عصى الله ورسوله وآذى الرسول وأساء في حقه، وسلط عليه العامة على اختلاف أعراضهم: هذا يطلب منه إنزال المطر، وهذا يطلب منه النصر على الأعداء، وهذا يطلب منه أن يتزوج، وهذا يطلب منه الولد؛ وهذا يطلب

منه جارية حسناء؛ وهذا يشتكي إليه ظهور البدع فنزلوا المخلوق منزلة الآله وطلبوا منه من جلب المنافع ودفع المضار ما لا يقدر عليه إلا الله.

فمن سلط الناس على الرسول ﷺ يطلبون هذا كله منه فهو من أعظم الناس إساءة إليه إلى أن قال:

ثم إنه إذا كان الكلام في توحيد الرب، ونفى خصائصه عما سواه لم يجز أن يقال: هذا سوء عبارة في حق من دون الله من الأنبياء والملائكة؛ فإن المقام أجل من ذلك، وكل ما سوى الله يتلاشى عند تجريد توحيده. والنبي ﷺ كان من أعظم الناس تقريراً لهذا. كما في الصحيحين من حديث الإفك «لمانزلت براءة عائشة من السماء أخبرها النبي ﷺ بذلك، فقالت لها أمها: قومي إلى رسول الله ﷺ. فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي» وفي رواية «نحمد الله ولا نحمدك» فأقرها النبي ﷺ وأبوها على هذا الكلام الذي نفت به أن يحمد رسول الله ﷺ وأن لا يحمد إلا الله؛ ولم يقل أحد إن هذا سوء أدب عليه وسوء الأدب عليه كفر.

قال البيهقي: حدثنا أبو عبدالله الحافظ ـ وساق السند إلى حبان صاحب ابن المبارك ـ قلت لعبدالله بن المبارك: قول عائشة «بحمد الله لا بحمدك، إني لأستعظم هذا القول. فقال عبدالله ولت الحمد أهله» وكذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: عرف الحق لأهله» إلى أن قال:

وأيما أبلغ؟ قول عائشة «لا أحمدك ولا أحمد إلا الله» وقول الأسير «أتوب إلى الله لا إلى محمد» وقول القائل لا يستغاث بالرسول بل بالله تعالى ـ

أو: لا يدعي الرسول وإنما يدعي الله، ونحو ذلك؟ إلى أن قال صفحة ٣٧٦.

وهذا الرجل لا تمييز له في أقوال الناس. وبيان حقها من باطلها، ولا له معرفة بطرق الاستدلال فلا هو ذاكر لكلام منقول، ولا مبين لمعنى مقبول، ولا أثر منقول.

والعلم شيئان: إما نقل مصدق، وأما بحث محقق. وماسوى ذلك فهذيان مسروق وكثير من كلام هؤلاء فهو من الهذيان وما يوجد فيه من نقل فمنه ما لا يميز صحيحه من فاسده، وفيه ما لا ينقله على وجهه ومنه ما يضعه في غير موضعه، ولا يحقق جنس بالأدلة حتى يميز بين ما يدل وما لا يدل. ولهذا كان أصول الفقه مقصودها معرفة الأدلة الشرعية وقد قيل إن ما يفسد الناس نصف متكلم؛ ونصف فقيه، ونصف نحوي ونصف طبيب. هذا يفسد الأديان. وهذا يفسد البلدان. وهذا يفسد اللسان. وهذا يفسد الأبدان، لا سيما إذا خاض هذا في مسألة لم يسبقه إليها العالم، ولا هي من مسائل النزاع بين العلماء، فيختار أحد القولين؛ بل يهجم على ما يخالف دين الإسلام بالضرورة.

وقد علم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعو أحداً من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة، ولا بلفظ الاستعانة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت، ولا إلى ميت ونحو ذلك. بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك. حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه. ولهذا ما بينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الإسلام إلا تفطن، وقال:

هذا أصل دين الإسلام.

وكان بعض الأكابر العارفين يقول: هذا أعظم ما بينته لنا، لعلمه بأن هذا أصل الدين: وكان هذا وأمثاله في ناحية أخرى، يدعون الأموات ويسألونهم، ويستجيرون بهم ويتضرعون إليهم، فيدعونهم دعاء المضطر، راجين قضاء حاجاتهم بدعائه أو بالدعاء به، وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله. وهو الظلم المذكور في قوله تعالى ﴿ ٦ : ٨٢ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ قالوا «يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟ قال: إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم» وهو الذنب العظيم الذي هو أعظم ذنب عصى الله به، فمن فعله ولم يتب منه ارتفع الأمن والاهتداء في حقه؛ فلم يبق له أمن ولا اهتداء.

وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على النهي عنه، والوعيد عليه بالنار.

وقد تقدم من الأدلة على ذلك ما يكفي ويشفي لمن أراد الله هدايته. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ولنختم الجواب بآيتين عظيمتين الأولى قوله ﴿ ٢٢ : ٧٣، ٧٤ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولا اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴾.

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل؛ ويتدبره حق تدبره. فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه.

وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده واعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه. فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدرون على انتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه. فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوان؛ بل ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه.

فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها ـ فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله سبحانه في بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم؛ وأن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة. كيف أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغني عن جميع المخلوقات، وأن يعهد إليها في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات، فأعطوها صوراً وتماثيل تمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها. ولو اجتمعوا على الذباب وتعاونوا عليه لدل ذلك على عجزهم، وانتفاء آلهتهم. ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز، بقوله ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود. فهو عاجز متعلق بعاجز.

فمن جعل هذا إلهاً مع القوي العزيز؛ فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه. انتهى.

وتأمل قول الله تعالى ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك، فألقوا إليهم القول: إنكم

لكاذبون، وألقوا إلى الله يومئذ السلم، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ فرجع الأمر يوم القيامة إلى أن كل معبود ينكر عبادة من عبده ويكذبه فيما به قصده.

فرحم الله هذا الشيخ فلقد أتى بما يشفي العليل ويروي الغليل ويهدي ببيانه وكشفه إلى سواء السبيل.

خاتمة

تقدم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ما يكفي ويشفي في الرد على من غلا في الدين، وأشرك مع الله في ربوبيته وإلهيته، ونزل المخلوق منزلة الخالق والعبد منزلة المعبود، والمربوب منزلة الرب العظيم، الذي له الأمر كله وله الحمد كله وله الملك كله. وبيده الخير كله. وإليه يرجع الأمر كله. فعظم هؤلاء المشركون المخلوق بما نهى رسول الله ﷺ أن يعظم به أحد غير الله، وسد الذرائع الموصلة إلى هذا الشرك بقوله ﷺ لمن قاله له «أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا» قال «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله» وقال «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله» وقال «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل» وأمثال هذا في السنة كثير.

وكان ﷺ أعظم الناس عبودية لله، وخضوعاً وتذللاً ومحبة له سبحانه.

وكلما كان العبد أعظم محبة لله وعبوديته وتذللاً له فهو إلى سنة النبي ﷺ أقرب وبالعمل بالسنة أكمل.

فأبى هؤلاء المشركون الناقصون المنقوصون إلا الوقوع في الغلو الذي

أخبر به النبي ﷺ أنه وقع في النصارى، ونهى عنه أمته بقوله «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» فصار في هؤلاء المجادلين في الدين بالباطل والظن والهوى شبه من النصارى في الغلو الذي نهى الله عنه أهل الكتاب بقوله ﴿ ٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ وبقوله ﴿ ٥ : ٧٥، ٧٦ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلام الطعام ـ إلى قوله ـ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا﴾ وهذا في سياق النهي عن عبادة المسيح وأمه عليهما السلام، كما في قوله تعالى ﴿ ١٧ : ٥٦ قد ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾ وقد تقدم في هذا أن المعنى بهذا عيسى وأمه والعزير والملائكة[1].

ومقام الربوبية والإلهية لله وحده لا يشركه فيه أحد من خلقه وكل هذا هو الذي دعت إليه الرسل، وأنزلت به الكتب.

ومعلوم أن الدعاء والاستغاثة من أعظم العبادات ؛ ولا يجادل فيها إلا مماحل مكابر معاند .

إذا عرفت ذلك فاعلم أن النبي ﷺ قال «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدا. فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس» وهم طائفة من ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة، كما في الحديث. وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة. وتقدم الحديث من أوله. وهم أهل السنة والجماعة وقال ﷺ في حديث ثوبان «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان».

---

(١) وغيرهم من كل من اتخذ إلهاً مع الله قديماً وحديثاً كنبينا ﷺ والمؤمنين الذين يعبدون اليوم من دون الله. والقرآن لا يخبر عن الماضين فقط. وإنما يحدث عن كل إيمان وكفر وتوحيد وشرك إلى يوم القيامة.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن غربة الإسلام استحكمت في القرن السادس وما بعده، حتى آل الأمر إلى أن ناساً ممن يشار إليهم بالعلم والفهم قد وضعوا تصانيف في جواز الشرك في العباد، وغلطوا في مسمى التوحيد وظنوا أن الغاية في التوحيد هو ما أقرّ به مشركو قريش والعرب ومن بعدهم، كلهم أقروا بهذا التوحيد الذي ظن من ظن أنه هو الغاية في التوحيد[1].

إذا تبين أن الإسلام عاد غريباً كما بدا، كما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، وقد وقع ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه.

قلنا جواب ما تقدم عما أدعاه هذا العراقي من الإجماع على الاستشفاع بالأموات والغائبين.

فيقول: نعم اجمع على هذا الشرك وما هو أعظم منه الهمج الرعاع الطغام والأنعام أتباع كل ناعق الذين يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا إلى ركن وثيق كما أخبر عنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما رواه عنه كميل بن زياد إذ ضرب لهم أصدق مثل وشبههم بالأنعام السائمة.

فليس إجماع هؤلاء حجة، وليسوا من أهل العلم، بل ليسوا من بني

---

(١) وهو ما فتن به الناس من كتب السنوسية والجوهرة والخريدة والعقائد النسفية ونحو هذه الكتب التي ملأت سمومها الجو الإسلامي، وزعمت أن التوحيد هو العشرين صفة وأضدادها، وانحرف الناس بها عن التوحيد الحق الذي جاء به الرسل جميعاً، وهو توحيد العبادة والإلهية الذي لا يمكن مطلقاً أن يعرف على وجهه إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولقد جرت هذه الكتب على الناس بلاء عظيماً فوق ما تقدم. ذلك أنها جعلت التوحيد عندهم صناعة جدلية؛ ثم تمادى الأمر بهم في تصنع وتكلف هذه الجدليات حتى أوقعتهم في فلسفة أرسطو وأفلاطون وما ضلوا به من المنطق وسواه من الفلسفات التي فتن الناس بها فقست قلوبهم وأكثرهم فاسقون.

الإنسان حتى يكون من أهل الإجماع الذي يؤخذ به ويعتمد عند العقلاء[1] في الأحكام لمخالفته ما تقتضيه الإنسانية العاقلة والفطرة السليمة فضلاً ان مناقضته ما جاءت به الرسل من توحيد الله وما بعث به خاتم النبيين محمداً ﷺ من النهي عن الشرك وقتال أهله واستحلال دمائهم وأموالهم وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها، من إنكار الشرك ومعاداة أهله وقتالهم.

فإجماع الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها هو الإجماع الصحيح. وما خالفه فباطل لا يلتفت إليه. ولا يحتج به إلا الأنعام.

ولو لم يكن في هذا الإجماع الذي ادعاه هذا المفتري إلا مصادمته للوحيين، ومخالفته لما جاءت به الرسل من دين الله لكفي به بطلاناً.

ويبطل أيضاً ببقاء الفرقة الناجية التي أخبر بها النبي ﷺ «أنها لاتزال على الحق إلى قيام الساعة» فهم أتباع الرسل. وإجماعهم هو الحجة أيضاً وهم وإن كانوا هم الأقلون عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً. وأما الهمج الرعاع الذين اشتدت بهم غربة الإسلام، الذين وقع فيهم من الشرك ما وقع. فهم وإن كانوا هم الأكثر عدداً فهم الأقلون عند الله قدراً لظهور الشرك فيهم والبدع والفساد المخالف لما شرعه الله ورسوله. ولهذا كان أهل

---

(١) وأعجب العجب؛ بل أشد ما يضحك العقلاء: أن يسمى هؤلاء الأنعام علماء؛ ويوصف نعيقهم بما لم يفهموا ولم يعقلوا إجماعاً، يشبه بإجماع الصحابة وإجماع مالك والشافعي وأبي حنيفة والثورى وابن عيينة وإخوانهم من أئمة الهدي الذين كانوا يؤمنون بإنسانيتهم وآيات الله فيهم وفي الآفاق وآياته العلمية ويؤمنون بالكتاب والرسول على هدي وبصيرة.

يا سبحان الله. ماذا أصيبت الإنسانية بهؤلاء الإنعام الذين يلبسون مساليخ الإنسانية زوراً وبهتاناً. يتمادى بالناس ألغى والفساد؛ والتقليد الأعمى والجاهلبة الجهلاء أن يسموا أمثال عثمان بن منصور وداود بن جرجيس ويوسف النبهاني والدجوى وأشكالهم ممن هم أضل من الأنعام سبيلاً ـ يسموهم علماء، ثم يذهبون في الكفر والجهل إلى أبعد من ذلك فيسمون ثغاءهم ورغاءهم ونعيقهم إجماعاً! لاحول ولا ة إلا بالله . إنها والله الطامة الكبرى والداهية الدهياء ،، وما هي إلا من طاغوت التقليد الذي نسأل الله أن يطهر الأرض والعباد والقلوب من رجسه فإنه رأس كل شر وبلاء وفساد لحق الإنسانية في جميع أدوارها.

الحق فيهم غرباء كما قال النبي ﷺ «فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس» فسماهم غرباء لقلتهم وقلة أتباعهم على الحق، وكثرة معاديهم. كما قال الشاطبي.

وهذا زمان الصبر، من لك بالتي كقبض على جمر؟ فتنجو من البلا

فكم من جاهل اغتر بما عليه الهمج الرعاع، وظن أن كثرتهم تدل على صحة ما هم عليه من الشرك والبدع على اختلاف آرائهم ومذاهبهم. فالاحتجاج بهم والاقتداء بهم يشبه ماذكره الله تعالى عن المشركين حين قالوا لرسلهم وقد دعوهم إلى الحق ﴿٤٣: ٢٢، ٢٣ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ الآيتين.

فما احتج به المشركون من أعداء الرسل احتج به هؤلاء على ما أحدثه الجاهلون فما أشبه الليلة بالبارحة. كما قال النبي ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذّة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» وفي رواية «شبراً بشبر وذراعاً بذراع» وفي رواية «حتى لوكان فيهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك» فوقع ما أخبر به النبي ﷺ، وصار علماً من أعلام نبوته ﷺ فإنه قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة؛ وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة علي ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قالوا من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم».

وهذا الذي ذكره هذا العراقي من أن الاستشفاع بالأموات: مجمع

عليه، ليس في شريعة أحد من الأنبياء جوازه. وأما شريعة النبي ﷺ في الكتاب والسنة من النهي عن ذلك وأنه هو الشرك الذي كان يفعله أهل الجاهلية ومن قبلهم من الأمم المكذبة للرسل.

ومما يدل على فساد هذا الإجماع الذي حكاه أيضاً مارواه الدارمي في مسنده: قال حدثنا سعيد بن منصور حدثنا أبو عوانة عن بيان هو ابن بشر الأحمسي عن قيس عن مرداس الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ «يذهب الصالحون أسلافاً، ويبقى حثالة كحثالة الشعير».

وقد أخبر العلماء رحمهم الله تعالى كالصرصري كما تقدم في شعره وغيره من العلماء أن ذلك وقع في زمنهم وهم كانوا في القرن السادس قبله وبعده: إن الصالحين مضوا وذهبوا وبقيت الحثالة التي اشتدت بها غربة الإسلام؛ وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة. نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير، وهؤلاء هم الذين ذكر العراقي إجماعهم. وبهم اشتدت غربة الإسلام.

وبهذا يحصل الجواب عما ذكره هذا العراقي: أن فلاناً وفلاناً شرحوا البردة وهؤلاء كلهم ليسوا من أهل العلم ولا من أهل السنة وإن كان لهم دراية في علم المعقول وأما علم المنقول فليسوا من أهله.

وقد أخطأ في هذا الأمر أناس قبلهم لهم ذكاء ومصنفات ظهر فيها خطؤهم كالفخر الرازي، وأبي معشر البلخي، وابن الأخنائي وابن البكري وابن المفيد. وقبلهم الغزالي وغيره من أكثر المتكلمين. كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والآمدي، وغيرهم من المتكلمين.

وقد اشتدت بهم غربة الإسلام لإعراضهم عن الوحيين كما لا يخفى على

من عرف أحوالهم، وماذكروه في مصنفاتهم، وخالفوا به أهل السنة في توحيد الأسماء والصفات أيضاً فإذا كان التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه قد أخطأ في معرفته من هو أفضل من هؤلاء المتأخرين الذين هم حثالة الحثالة، فكيف يحتج بهم؟ وقد قال ابن عباس «كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ» وقال الأئمة كذلك فلا حجة في قول أحد ولا فعله ممن يجوز عليه الخطأ، فكيف إذا تبين خطأه ومخالفته للكتاب والسنة في هذا الأصل العظيم؟.

فمن تتبع ما ذكره هذا العراقي لم يجد فيه كلمة تقوم بها حجة، بل كل ماذكره مردود بصريح القرآن والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها. وكل من خالف الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح ـ وهم الذين إجماعهم حجة ـ فقوله مردود عليه في أي مسألة كانت. فكيف إذا كان في أصل دين الإسلام الذي بعث الله به المرسلين؛ وأظهر براهينه في كتابه المبين، وبينه رسوله ﷺ الصادق الأمين.

فما أشبه هذا المجادل الماحل بمن قال الله فيهم ﴿ ٤٠ : ٣٥ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ وقال تعالى ﴿ ٤٠ : ٥٦ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه، فاستعذ بالله، إنه هو السميع البصير﴾ وقد قال تعالى ﴿ ٦ : ١٥٧ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة. فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾.

فيا خيبة من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واتبع الأغلوطات والشطحات.

خاتمـــة

قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿ ٦ : ١٥٣ وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ قال: وهذا الذي وصاكم به ربكم أيها الناس في هاتين الآيتين، من قوله ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ وأمركم بالوفاء به هو صراطه يعني طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده مستقيماً، يعني قويماً لا اعوجاج به عن الحق ﴿ فاتبعوه ﴾ يقول: فاعملوا به. واجعلوه لأنفسكم منهاجاً تسلكونه ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ يعني لا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهاجاً غيره، ولا تتبعوا ديناً خلافه: من اليهودية والنصرانية والمجوسية، وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل. فإنها بدع وضلالات ﴿ فتفرق بكم عن سبيله ﴾ يقول: فتشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان فإنها بدع وضلالات ﴿ فتفرق عن سبيله ﴾ يقول: فيشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان ـ إتباعكم إياها ﴿ عن سبيله ﴾ يعني عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصاكم به ربكم من قوله ﴿ إن هذا صراطي مستقيماً، فاتبعوه ولاتتبعوا السبل ﴾ وصاكم به ﴿ لعلكم تتقون ﴾ يقول: لتتقوا الله في أنفسكم فلا تهلكوها وتحذروا ربكم فيها. فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نقمته وعذابه.

وذكر عن مجاهد: أن السبل هي البدع والشهوات، وذكره عن ابن أبي نجيح وعن ابن عباس ﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾

وقوله ﴿ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ونحو هذا في القرآن. قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة. وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات. وعن ابن عباس «لا تتبعوا الضلالاتٌ ثم قال حدثنا المثنى حدثنا الحماني قال حدثنا حماد عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله، يعني ابن مسعود قال «خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطا. فقال: هذا سبيل الله؛ ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً فقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها. ثم قرأ هذه الآية ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾.

وذكر بالإسناد عن ابن زيد قال «سبيله: الإسلام. وصراطه الإسلام. نهاهم أن يتبعوا السبل سواه، فتفرق بكم عن سبيله عن الإسلام».

وبسنده أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال «تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة؛ وعن يمينه جوادّ، وعن يساره جوادّ. وثمّ رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد[1] انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً ـ الآية ﴾ انتهى.

فتأمل هذه الآيات ومادلت عليه، وما أخبر به النبي ﷺ من اتباع السبل والخروج بها عن الصراط المستقيم.

ومن تدبر أحوال الأمة بعد القرون الثلاثة علم أن السبل تفرقت بأكثر هذه الأمة وتشعبت بهم، حتى إن منها ما وقع في القرن الأول والثاني والثالث، لكن الإسلام في هذه الثلاثة أظهر؛ وأهل السنة والجماعة فيها أكثر؛ وهم للبدع أنكر: ولأهلها أهجر. كبدعة الخوارج والرافضة

(١) الجواد: جمع جادة وهي الطريق.

والجهمية. يعرف ذلك من له اطلاع على ما ذكره أهل السير والتاريخ وغيرهم من أهل الحديث والتفسير.

فإذا كانت مبادىء هذه الأمور قد وقعت في القرون الثلاثة ففي ما بعدها أعظم كما دل عليه قوله ﷺ «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون ـ الحديث» والوا قع يشهد لذلك، كما في حديث أنس «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ.

وقد علم ما آلت إليه تلك السبل بكثير من الأمة، حتى عاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً. نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير.

وقد حفظ الله على الأمة دين نبيها محمد ﷺ وشرعه الذي بعثه به بطائفة الحق كما صح عن النبي ﷺ أنه قال بعد إخباره بما يقع من الأمة «ولاتزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك».

فأخبر ﷺ أن الحق لايزال موجوداً في طائفة من ثلاثة وسبعين فرقة. كلها من هذه الأمة. وكل هذه الفرق قد وجدت كما أخبر به النبي ﷺ فيما صح عنه من طرق معروفة، وكلها في النار إلا فرقة أهل السنة؛ وهي الفرقة الناجية وذلك علم من أعلام نبوته ﷺ، كما ترى ذلك في أكثر من ينتسب إلى الإسلام، وقد خرجوا من الإسلام رأساً كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الضرب «اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح وفي لفظ مع كل صايح ـ لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤا إلى ركن وثيق» أي من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو ضلال. فإنهم لا

علم لهم بالذي يدعون إليه أحق هو أم باطل؟ فهم مستجيبون. وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان. فإنهم الأكثرون عدداً الأقلون عند الله قدراً. وهم حطب كل فتنة؛ بهم توقد ويشب ضرامها. فإنها يعتزلها أولوا الدين ويتولاها الهمج الرعاع.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فما سلم من الأمة إلا من سلم له دينه، وقوى إيمانه ويقينه، من المتمسكين بالكتاب والسنة المتبعين للحق الداعين إليه. وهم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً فمن كان كذلك فما أعطى أحد نعمة أعظم مما أعطى. فلا سلامة للعبد إلا بالعلم. وهو معرفة الهدى بدليله.

نسأل الله الثبات والاستقامة على الإيمان الذي هو مركب الأمان، وعلى الإسلام الذي هو مركب السلامة. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ولا يخفى أنه قد حدث في أواخر القرون المفضلة دول شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله وألحدوا فيه وبدلوا التوحيد بالشرك، والسنة بالبدعة.

فمنها دولة الروافض في المشرق. ودولة القرامطة، ودولة بني عبيد القداح في مصر والمغرب وظهرت فيها الإسماعيلية والنصيرية.

وكل هذه الدول أظهروا من الكفر ما لا يخفى على من عرف أحوالهم. كما بين ذلك أهل السير والتاريخ من علماء المسلمين وظهرت فيها الفلسفة، وألقوا من الشبهات ما تلقوه عن الصابئة والمشركين فاشتدت غربة الإسلام بما أظهره هؤلاء من البدع والشرك.

وأما أهل الكلام ممن ينتسب إلى السنة، فاختلفت أقوالهم، وتشتت

آراؤهم وصنفوا كتب الكلام. وفيها من الانحراف عن التوحيد ما لا يخفى على من له معرفة بالسنة فاستحكمت الغربة، وبنيت المساجد على القبور: وحدث من البدع والشرك بأهل القبور ما لا يخفى على من له عقل ودين. واتخذوا ذلك دينا وقربة. وزعم أكثر هؤلاء أن الغلو في الأنبياء والصالحين وعبادتهم هو الدين الذي يحبه الله ويرضاه. واشتد تكفيرهم على من دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك ما كانوا عليه من الشرك الذي لا يغفره الله.

كل العداوة قد ترجى مودتها   إلا عداوة من غداك في الدين

وقد تقدم أن النبي ﷺ أخبر أن هذه الأمة تأخذ مأخذ القرون قبلها شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع. وأخبر أنهم فارس والروم. وفي حديث آخر «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال فمن».

وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ مما قدمنا الإشارة إليه وأعظم. وقد أخبر علماء أهل السنة من المتقدمين والمتوسطين أن هذه الأمور التي أخبر بها الصادق المصدوق قد وقعت في تلك القرون المتقدمة وقد قال عبدالله بن المبارك رحمة الله تعالى:

وهل أفسد الدين إلا الملو   ك وأحبار سوء ورهبانها

وباعوا النفوس ولم يربحوا   ولم يغل في البيع أثمانها

لقد رتع القوم في جيفة   تبين لذي العقل إنتانها

وفي حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المتقدم ما يشير إلى ذلك.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل «أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: نعم، إذا كثر الخبث».

وقد تقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله في حقيقة الشفاعة؛ ونرجع إلى ذكره مبسوطاً من كتاب الإيمان فإنه قال:

وقال تعالى ﴿ ٣٤:٢٢، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون. فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك، أو يكون عوناً لله. ولم يبق إلا الشفاعة. فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى ﴿ ٢: ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال عن الملائكة ﴿ ٢١: ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال ﴿ ٥٣: ٢٦ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن.

وأما ما أخبر به النبي ﷺ أنه يكون، فأخبر أنه «يأتي فيسجد لربه ويحمده» لا يبدأ بالشفاعة أولاً فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه «يقال له: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع وسل تعطه، واشفع تشفع. فيقول: أي رب أمتي فيحد له حداً. فيدخلهم الجنة» وكذلك في الثانية. وكذلك في الثالثة. وقال له أبو هريرة «من أسعد الناس بشفاعتك؛ يا رسول الله يوم القيامة؟ قال: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعة هي لأهل الإخلاص بإذن الله ليست لمن أشرك بالله ولا تكون إلا بإذن الله.

وحقيقته: أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك وينال

به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ كما كان في الدنيا يستسقي لهم، ويدعو لهم. وتلك شفاعة منه لهم. فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته.

وإذا كان كذلك فالظلم ثلاثة أنواع. فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه، وظلم الناس بعضهم بعضاً لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه، لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها. ولكن قد يعطي المظلوم من الظالم، كما قد يغفر الظالم نفسه بالشفاعة.

فالظالم المطلق ماله من شفيع مطاع. وأما الموحد فلم يكن ظالماً مطلقاً، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه. وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاصه لله، وبه صار من أهل الشفاعة.

ومقصود القرآن بنفي الشفاعة: نفي الشرك، وهو أن أحداً لا يعبد إلا الله ولا يدعي ولا يسأل غيره، ولا يتوكل على غيره؛ لا في شفاعة ولا غيرها. فليس لأحد أن يتوكل على أحد في أن يرزقه، وإن كان الله يأتيه برزقه بأسباب. كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة؛ وإن كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها.

فالشفاعة التي نفاها القرآن مطلقاً: ما كان فيها شرك. وتلك منفية مطلقاً. ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع وتلك قد بين الرسول ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. فهي من التوحيد، ومستحقها أهل التوحيد ـ إلى أن قال رحمه الله في قوله تعالى ﴿٢٦ : ٩٧ إذ نسويكم برب العالمين﴾ لم يريدوا بهم أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه. فإن هذا لم يقله أحد من بني آدم؛ ولا نقل عن قوم من المكذبين. وكذلك مشركوا

العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض، بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وما بينهما، كما أخبر الله عنهم في غير آية ومنها قوله تعالى ﴿ ٢٩ : ٦١ ـ ٦٣ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، فأنى يؤفكون؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له. إن الله بكل شيء عليم. ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله. قل الحمد لله، بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ وقال ﴿ ٤٣ : ٩ ـ ١٤ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون الآيات ﴾ وقال تعالى ﴿ ٦ : ٤٠، ٤١ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة؛ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء، وتنسون ما تشركون ﴾ وكذلك قوله (٢٧ : ٦٠ ـ ٦٤ آلله خير أما يشركون؟ أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله؛ بل هم قوم يعدلون أم من جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله ﴾ أي أإلـه مع الله فعل هذا؟ وهذا إستفهام إنكار، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله.

ومن قال من المفسرين إن المراد: هل مع الله إله آخر، فقد غلط. فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى. كما قال تعالى ﴿ ٦ : ١٩ أأنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ﴾ وقال تعالى ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ﴾ وقال تعالى عنهم ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب ﴾ وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في

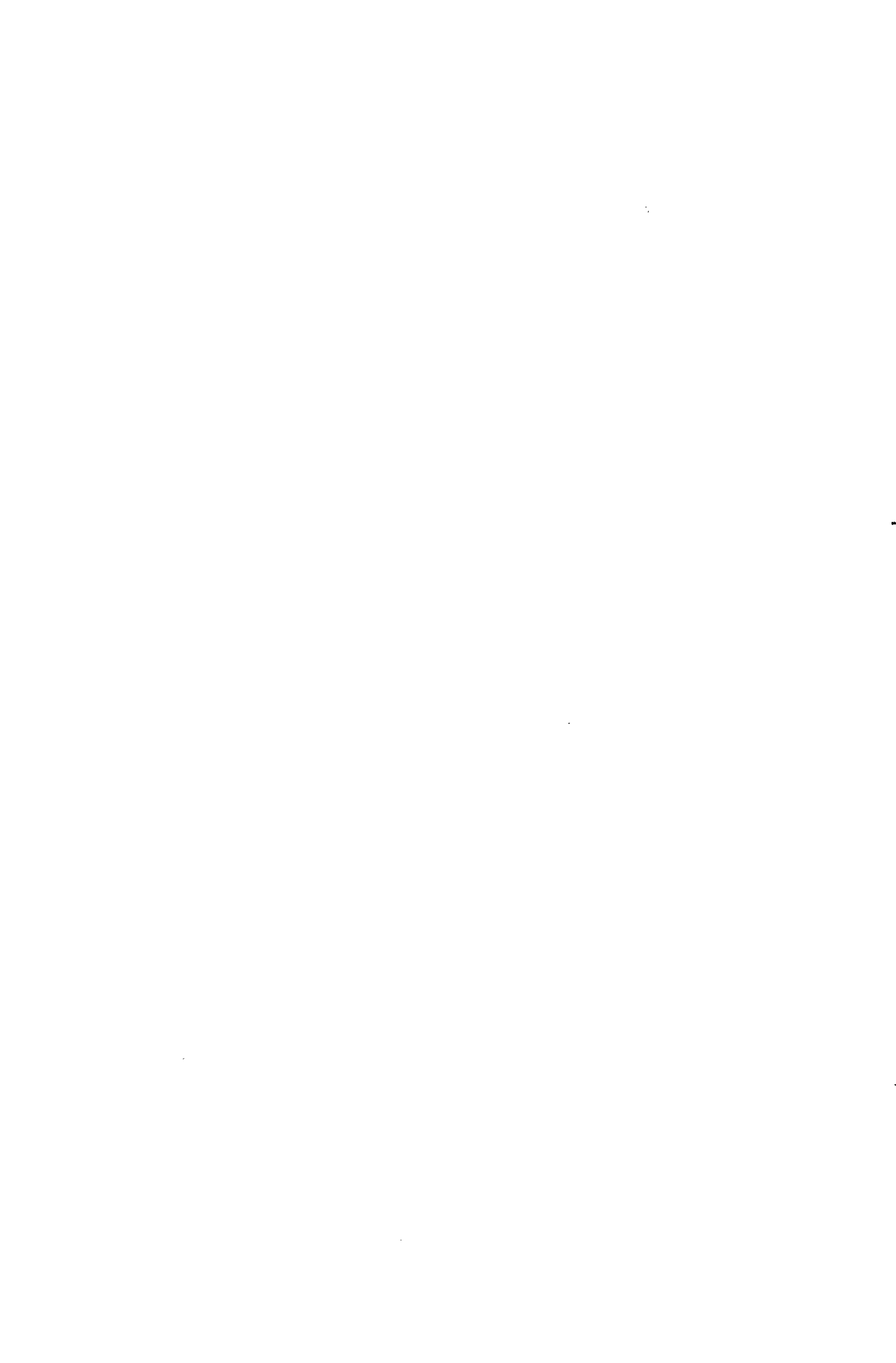
خلق السموات والأرض؛ ولا خلق شيء بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى ﴿ ١٠ :١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وقال صاحب يس ﴿ ٣٦: ٢٢ ـ ٢٤ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردني الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ وقال ﴿ ٦: ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ وقال ﴿ ٣٢: ٤ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع. أفلا تتذكرون؟ ﴾ انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

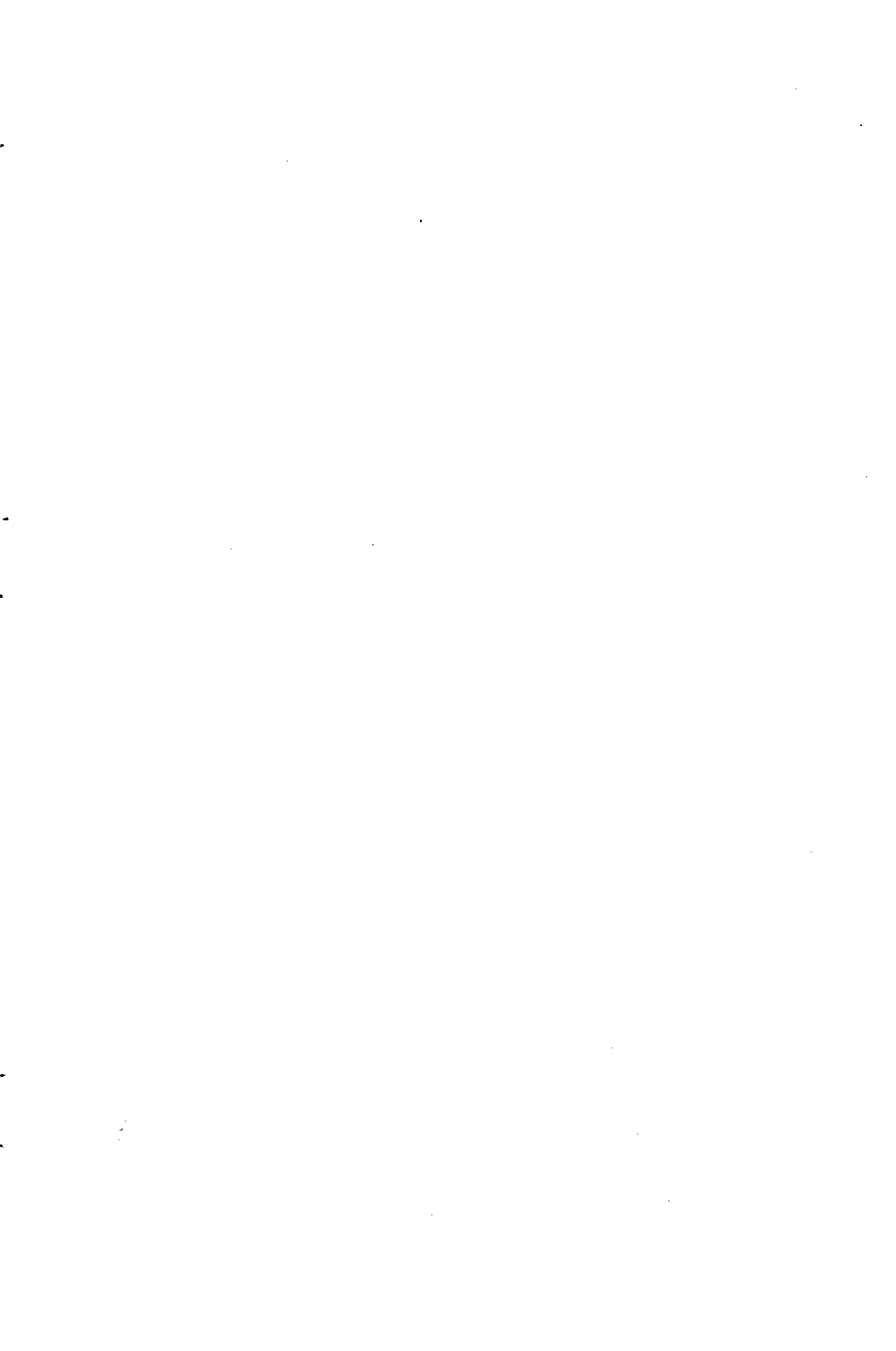
وقد أتى على كشف كل شبهة يوردها مبطل فيما ينافي التوحيد والإخلاص كما قال تعالى ﴿ ١٠: ١٠٥ ـ ١٠٩ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً، ولا تكونن من المشركين. ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده. وهو الغفور الرحيم. قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها. وما أنا عليكم بوكيل واتبع ما يوحي إليك، وأصبر حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين ﴾.

وبهذه الآيات العظيمة حصل الختام.

فلله الحمد، لا نحصى ثناء عليه.

والله أسأل أن يجعل ما كتبناه من هذا الرد وغيره خالصاً لوجهه الكريم، موجباً للفوز لديه بجنات النعيم.

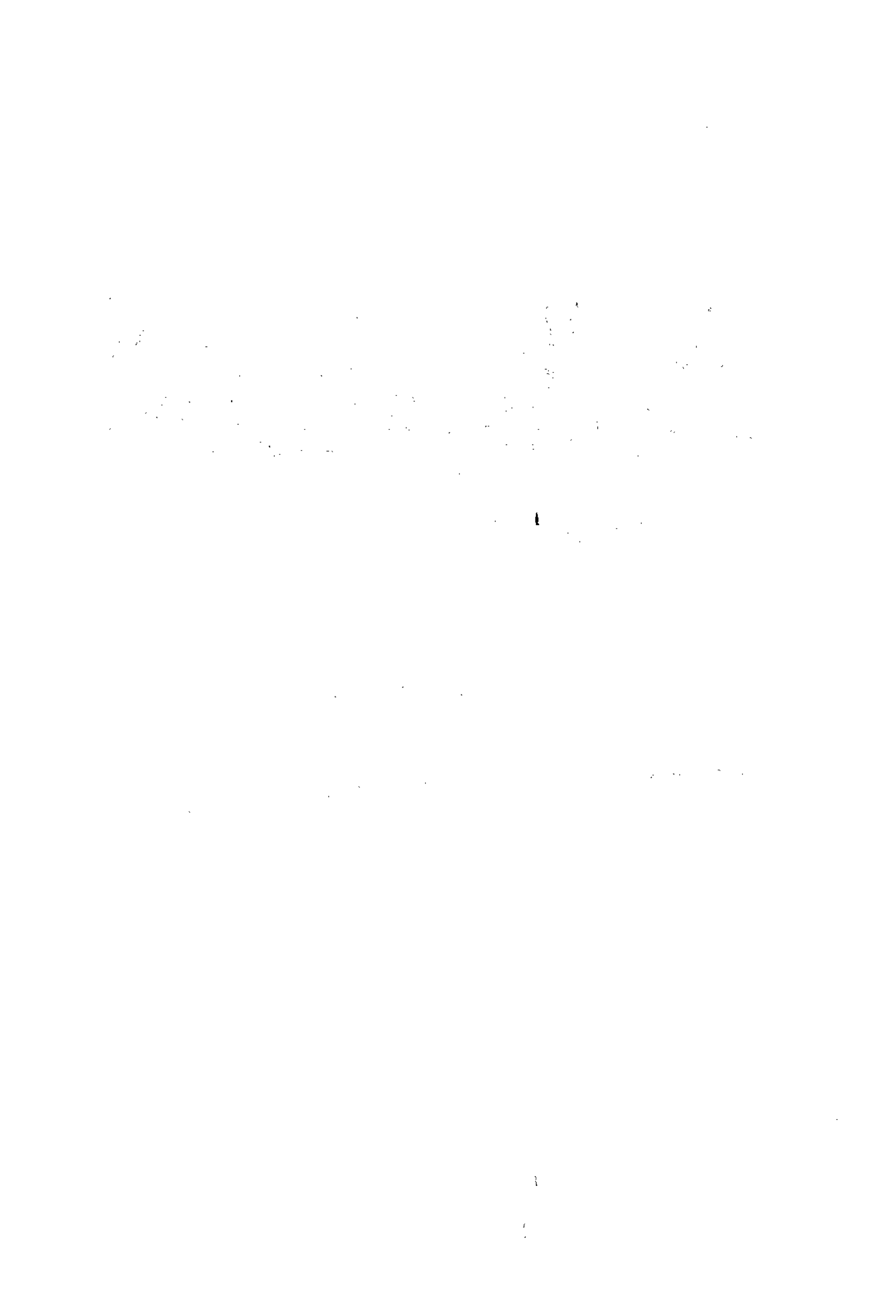






للعلامة المجدد الثاني

الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدلله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره. ومصرِّف الأمور بأمره، ومستدرج العاصين بمكره، الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانَع، الظاهر على خلقه فلا ينازَع، الحكيم فيما يريد فلا يدافَع.

أحمده على إعزازه لأوليائه، ونصرته لأنصاره، وخفضه لأعدائه، حمد من استشعر الحمد باطن سره، وظاهر جهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة مَن طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى بالمعاداة فيه والموالاة ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك وخافض الشرك، وقامع الكذب والإفك.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً، وبعد: فاعلم أيها الطالب للسلامة، الساعي في أسباب تحصيل الفوز والكرامة، أني وقفت على رسالة لمن لم يُسَمِّ نفسه، مشعرةً بأنه من بلاد الخرج، متضمنة لأنواع من الكذب والمرج، جامعة لأمور من الباطل لا يسع مسلماً السكوت عليها، خشية أن يفتتن بها بعض الجاهلين فيعتمد عليها، فإن كل عصر لا يخلو من قائل بلا علم، ومتكلم بغير إصابة ولا فهم، وقد جعل الله في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم، كما قال الإمام أحمد رحمه الله في كتابه الرد على الجهمية: «الحمدلله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون مَن ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويُبَصِّرُون

بدين الله أهلَ العمى، يحيون بكتاب الله الموتى، فكم من قتيل لإبليس قد أحْيَوه، وتائه ضالٌّ قد هَدَوهُ، فما أحسَنَ أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، وقد عنَّ لي الجواب، لتمييز الخطأ من الصواب، فلا بد من ذكر مقدمة نافعة لتكون هي المقصودة بالذات رجاء أن تكون سبباً موصلاً إلى رضوان الله، يستبصر بها طالب الهدى من عباد الله، وذلك بتوفيق الله الذي لا إله سواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

. اعلم أيها المنصف أن دين الله القويم، وصراطه المستقيم، إنما يتبين بمعرفة أمور ثلاثة عليها مدار دين الإسلام، وبها يتم العمل بأدلة الشريعة والأحكام، ومتى اختلت وتلاشت وقع الخلل في ذلك النظام.

الأول ـ أن تعلم أن أصل دين الإسلام وأساسه، وعماد الإيمان ورأسه، هو توحيد الله تعالى الذي بعث به المرسلين، وأنزل به كتابه الحكيم المبين.

قال تعالى: ﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللهَ إنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * ﴾.

وهذا هو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله.

فإن أصل دين الإسلام ألا يعبد إلا الله، وألا يعبد إلا بما شرع، لا بالأهواء والبدع.

وقد قال شيخنا رحمه الله إمام الدعوة الإسلامية، والداعي إلى المِلَّة الحنيفية:

أصل دين الإسلام وقاعدته أمران:

* الأمر بعبادة الله والتحريض على ذلك والموالاة فيه، وتكفير من تركه

والنهي عن الشرك في عبادة الله والتغليظ فيه، والمعاداة فيه وتكفير من فعله. والمخالف في ذلك أنواع ذكرها رحمه الله. وهذا التوحيد له أركان ومقتضيات وفرايض ولوازم، لا يحصل الإسلام الحقيقي على الكمال والتمام إلا بالقيام بها علماً وعملاً، وله نواقض ومبطلات تنافي ذلك التوحيد. فمن أعظمها أمور ثلاثة:

الأول: الشرك بالله في عبادته، كدعوة غير الله ورجائه والاستعانة به والاستغاثة والتوكل، ونحو ذلك من أنواع العبادة. فمن صرف منها شيئاً لغير الله كفر ولم يصح له عمل. وهذا الشرك هو أعظم محبطات الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إلَيكَ وإلى الَّذِينَ من قَبْلِكَ لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ من الخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. ففي هذه الآية نفى للشرك وتغليظه والأمر بعبادة الله وحده. ومعنى قوله: ﴿بلِ الله فاعبُد﴾ أي لا غيره، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر عند العلماء.

الأمر الثاني: إنشراح الصدر لمن أشرك بالله، وموادة أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلٰكِنْ من شَرَحَ بالكُفْرِ صدراً فعلَيهِم غَضَبٌ من اللهِ ولهُم عَذَابٌ عَظيم﴾ الآية. إلى قوله: ﴿إنَّ الله لا يَهْدِي القَومَ الكافِرينَ﴾. فمن فعل ذلك فقد أبطل توحيده، ولو لم يفعل الشرك بنفسه. قال الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوَادُّونَ مَن حادَّ اللهَ ورسوله﴾ الآية.

قال شيخ الإسلام: أخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يوادُّ كافراً، فمن وادَّه فليس بمؤمن. قال: والمشابهة مظنَّة الموادَّة فتكون محرمة.

وقال العماد بن كثير رحمه الله في تفسيره: قيل نزلت في أبي عبيدة حين قَتَلَ أباه يوم بدر، أو «أبناءهم» في الصدِّيق يومئذ همَّ بقتل ابنه عبد الرحمن، أو «إخوانهم» في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير، أو «عشيرتهم» في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وحمزة وعليّ وعبيدة ابن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ. قال: وفي قوله: ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ سرٌّ بديع، وهو أنهم لما سخطوا على القرايب والعشاير في الله، عوِّضهم الله بالرضا عنهم ورضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم.

ونوَّه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما ذكر عن أولئك من أنهم حزب الشيطان ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾. قلت: هم الذين والَوا أهل الضلال وسخطوا على أهل الإيمان.

الأمر الثالث: موالاة المشرك والركون إليه ونصرته وإعانته باليد أو اللسان أو المال، كما قال تعالى: ﴿ ولا تكوننَّ ظهيراً للكافرين ﴾، وقال: ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهم ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون ﴾.

وهذا خطاب الله تعالى للمؤمنين من هذه الأمة، فانظر أيها السامع أين تقع من هذا الخطاب وحكم هذه الآيات.

ولما أعانت قريش بني بكر على خزاعة سرًّا وقد دخلوا في صلح رسول الله ﷺ، انتقض عهدهم وغضب رسول الله ﷺ لذلك غضباً لله وتجهز لحربهم ولم ينبذ عليهم. ولما كتب حاطبٌ كتابا يخبرهم بذلك إخباراً أنزل الله تعالى في ذلك هذه السورة، ابتدأها بقوله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا

عَدُوِّي وعَدوَّكم أولياءَ تُلْقونَ إلَيهم بالمودَّة ﴾ إلى قوله: ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾.

ثم أمر تعالى بالتأسِّي بخليله عليه السلام وإخوانه من المرسلين بالعمل بدينه الذي بعثهم به، فقال:

﴿ قد كانت لكم أُسْوَة حسنة في إبراهيم والذين معه ﴾ أي من إخوانه من المرسلين ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا بُرَآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبَدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾.

فذكر خمسة لا يقوم التوحيد إلا بها علماً وعملاً.

وعند القيام بهذه الخمسة ميَّز الله الناس لما ابتلاهم بعدوهم، كما قال تعالى: ﴿ الٓم * أحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون * ولقد فَتَنَّا الَّذينَ من قَبلِهم فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صدقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾.

رحذَّر الله تعالى عباده عن تولِّهم عدوهم، قال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تَتَّخذوا الذين إتَّخذوا دينكم هُزُواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكُفَّار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾.

وقال تعالى: ﴿ بَشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين * أيبتغون عندهم العزَّة فإن العزَّة للهِ جميعاً ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ تَرَى كثيراً منهم يَتَوَلَّونَ الذين كفروا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أنْ سَخِطَ الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * وَلَو كانوا يُؤمِنُونَ باللهِ والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إليهِ ما اتَّخَذُوهم أولِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

فتأمل ما في هذه الآيات، وما رتَّب الله سبحانه وتعالى على هذا العمل من سخطه والخلود في عذابه وسَلْبِ الإيمان وغير ذلك. قال شيخ الإسلام في معنى قوله: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ الآية.

فثبوت ولايتهم توجب عدم الإيمان، وقال الله تعالى:

﴿إنَّ الذين ارتَدُّوا على أدبارِهم من بعد ما تَبَيَّن لهم الهدى﴾ إلى قوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نَزَّلِ الله سَنطيعكم في بعض الأمر﴾.

والسِّين حرف تنفيس تفيد استقبال الفعل، فدلَّ على أنهم وعدوهم ذلك سرًّا بدليل قوله تعالى: ﴿والله يعلم إسرارهم * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضوَانَهُ فأحْبَطَ أعْمَالَهُم﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، والمقصود بيان عظم هذا الذنب عند الله وما رتّب عليه من العقوبات عاجلاً وآجلاً نسأل الله الثَّبات على الإسلام والإيمان، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان.

وقد ذكر شيخنا رحمه الله في مختصر السِّيرة له عن سيرة الواقدي، أن خالد بن الوليد لما قدم العرض قدم مائتين فارس فأخذوا مجاعة بن مرارة في ثلاثة عشر رجلاً من قومه بني حنيفة، فقال لهم خالد بن الوليد: ما تقولون في صاحبكم؟

فشهدوا أنه رسول الله.

فضرب أعناقهم حتى إذا بقِي سارية بن عامر قال: يا خالد إن كنت

تريد بأهل اليمامة خيراً أو شراً فاستَبْقِ نجاعة.

وكان شريفاً فلم يقتله.

وترك سارية أيضاً فأمر بهما فأوثقا في مجامع من حديد، فكان يدعو نجاعة وهو كذلك فيتحدث معه وهو يظن أن خالداً يقتله، فقال:

- يابن المغيرة، إن لي إسلاماً والله ما كفرت.

فقال خالد: بين القتل والترك منزلة وهي الحبس حتى يقضي الله في أمرنا ما هو قاض.

ودفعه إلى أم متمم زوجته وأمرها أن تحسن إساره.

فظن نجاعة أن خالداً يريد حبسه ليخبره عن عدوِّه، وقال: يا خالد لقد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام، وأنا اليوم على ما كنت عليه بالأمس، فإن يك كذاباً قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

فقال: يا نجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه، وكان رضاك بأمر هذا الكذَّاب وسكوتك عنه - وأنت من أعز أهل اليمامة - إقرارٌ له ورضاءٌ بما جاء به. فهل أبديت عذراً فتكلمت فيمن تكلم. فقد تكلم ثمامة فردَّ وأنكر، وتكلم اليشكري فإن قلت أخاف قومي فهلا عمدت إليَّ أو بعثت رسولاً!.

فتأمل كيف جعل خالد سكوت نجاعة رضاء بما جاء به مُسَيْلِمَة وإقراراً، فأين هو ممن أظهر الرضا وظاهر وأعان وجدَّ وشمَّر مع أولئك الذين أشركوا مع الله في عبادته وأفسدوا في الأرض، فالله المستعان.

* **الأمر الثاني**: من الامور التي لا يصلح الإسلام إلا بها العمل بشرائعه وأحكامه، وبالقيام بذلك يقوم الدين وتَسْتَقِيمُ الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ الآية.

وقال تعالى:

﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أَهْلِها وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾.

وقال تعالى:

﴿ وما أختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وما كان لِمؤمن ولا مُؤمنةٍ إذا قضَى اللهُ ورسوله أمراً أن يكونَ لهُمْ الخيَرَةُ من أمْرِهم ومن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فقد ضَلَّ ضَلالاً مبيناً ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وإذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الحَقُّ يأْتُوا إِلَيهِ مُذْعِنِينْ * أفي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أم ارْتَابوا أَمْ يَخَافُونَ أنْ يَحِيفَ اللهُ علَيهِم ورَسُولُهُ بل أُولَئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

وقال تعالى:

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ * ومَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَومَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيهِ وَكيلاً * أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلا كالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً ﴾.

وفي هذا المعنى قال أبو تمَّام شعراً:

وعبادة الأهواء في تطويحها بالدين مثل عبادة الأوثان

وهذا هو الغالب على كثير من الناس رد الحق لمخالفة الهوى ومعاوضته بالآراء، وهذا من نقص الدين وضعف الإيمان واليقين.

* **الأمر الثالث**: وهو تخصيص من عموم ما قبله. أداء الأمانات، واجتناب المحرمات والشهوات، والجد في أداء الفرائض والواجبات والعبادات، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله. وقد وقع الخلل العظيم في ذلك كما قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوفَ يَلْقُونَ غَيًّا ﴾ الآية.

وبذلك وقعت الغفلة والإعراض عن كتاب الله تعالى، واشتغل أكثر الناس بدنياهم عن طاعة مولاهم، وزهدوا في كل ما يعود نفعه إليهم في دنياهم وأخراهم مما يوجب رضا ربهم ومولاهم، كما قال تعالى: ﴿ ومن أظلمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيَاتِ ربِّهِ فأعرضَ عَنها ونَسيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ الآية.

فيجب على من نصح نفسه ممن جعل اللهُ له القدرة والسلطان ونفوذ الكلمة أن يهتم بحفظ هذه الثغور الثلاثة، فإنها ثغور الإسلام، وقد سعى في نقضها من ليس له فيه رغبة.

ومن أسباب حفظها الإخلاص لله، والصدق والملجأ إليه، وتعظيم أمره ونهيه، والتوكل عليه، وتمييز الخبيث من الطيب، فإن الله تعالى ميزهم

لعباده لما ابتلاهم. فعليك ببغض أعداء الله والاهتمام بما يرضيه، ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه، وخشيته ومراقبته فإنه أوثق عرى الإيمان، والله المستعان.

فصـــل

في الإشارة إلى ما تضمنته لا إلٰه إلا الله من نفي الشرك وإبطاله، وتجريد التوحيد لله تعالى، والإشارة إلى بعض ما تنقض به عُرى الدين

والباعث على ذلك ما بلغني عن رجل كان قبل طروق الفتن يغلو في التكفير ويكفر بأشياء لم يكفر بها أحد من أهل العلم، ثم إنه قال بعد ذلك لما غرق في الفتن ـ أعاذنا الله من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن ـ: من قال لا إلٰه إلا الله فهو المسلم المعصوم، وإن قال من قال.

فأقول وبالله التوفيق:

اعلم أن لا إلٰه إلا الله كلمة سلام، ومفتاح دار السلام، وقد سماها الله كلمة التقوى والعروة الوثقى، وهي كلمة الإخلاص التي جعلها إبراهيم عليه السلام باقية في عقبِهِ، ومضمونها نفي الإلٰهية عما سوى الله، وإخلاص العبادة بجميع أفرادها لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ وإذ قالَ ابراهِيمُ لأبِيهِ وقومِهِ إنني بَرَاءٌ مما تعبدون * إلاَّ الذي فَطَرَني فإنَّهُ سَيَهْدِينَ ﴾.

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ واتَّبعْتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ما كان لنا أن نُشرِكَ بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يشكرون ﴾ إلى قوله: ﴿ إن الحُكْمُ إلا لله أمَرَ

ألا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغيرَ اللهِ أتَّخذُ وَليًّا فاطِرَ السَّموَاتِ والأرْضِ وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمْ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغي رَبًّا وهو رَبُّ كل شيءٍ ﴾.

وقال: ﴿ قُلْ أَفَغيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾.

وقال: ﴿ قُلْ إنَّمَا أُمِرْتُ أنْ أَعْبُدَ اللهَ ولا أُشْرِكَ بِهِ إلَيهِ أدْعُو وَإِلَيهِ مَآب ﴾.

والقرآن من أوله إلى آخره يقرِّرُ أن دين الله الذي بعث به رُسُلَهُ وأنزل به كتُبه هو إخلاصُ العبادة بجميع أنواعها لله وحده دون كل ما سواه، والبراءة من الشرك وأهله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لا تكون فتنة ﴾ أي شرك. وهذا لا يخفى على من له أدْنَى بصيرة، فهذا هو مدلول لا إله إلا الله. وقد عرف ذلك كفار قريش فما انقادوا له، فإنهم لمَّا دعاهُم رسول الله ﷺ إلى أن يقولوا لا إلـه إلا الله قالوا: * أجعَلَ الآلِهَةَ الـهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشيءٌ عُجَاب * وانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُم أن امْشُوا واصْبَروا على آلِهَتَكُم إنَّ هٰذا لَشيءٌ يُرَاد ﴾.

وقد تفاوت الناس في هذا التوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله فهماً وعلماً واعتقاداً وعملاً أعظم تفاوت، فمنهم من يقولها عن علم ويقين صادقاً مخلصاً من قلبه، وأدَّى حقوقها وعمل بمقتضاها من المعاداة لأهل الشرك بالله والموالاة لأهل التوحيد متقدِّمهم ومتأخرهم، واستقام على ذلك ولم يأت بما يبطلها. وهؤلاء هم المسلمون المؤمنون الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، فأدُّوا شكر ما أنعم الله به عليهم بالإخلاص له والبراءة من كل دين يخالف ذلك، كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ﴾ الآية.

والمراد الربوبية الخالصة، وهي أن يتخذوا خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم معبوداً دون كل ما سواه. أخرج ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إنَّ الذينَ قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: «قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم».

ومنهم من يقول لا إله إلا الله ولا عرف مدلولها من النفي والإثبات، فيثبت بفعله ما دلت هذه الكلمة العظيمة على نفيه بإشراكه بالله في الإلهية، وينفي ما دلت على إثباته من إفراده الرب تعالى بالإلهية وينكر ذلك، ويعادي من دعا إلى التوحيد وعرَّف به، وذلك من فرط جهله بمعنى ما يقول كما هو الغالب على أكثر من يقول لا إله إلا الله، فإذا قال الموحِّد: لا تجوز العبادة إلا لله تعالى فلا يدعىٰ إلا الله ولا يرجى ولا يتوكل إلا عليه، وأمثال ذلك من أنواع العبادة، أنكرته قلوبهم وألسنتهم.

قال النووي في شرح حديث سعد في شأن الرجل الذي قال فيه سعد لرسول الله ﷺ: مالك عن فلان إني لأراه مؤمناً؟ قال: أو مسلماً. قال: وفيه دلالة لمذهب أهل الحق في قولهم إن الإقرار باللسان لا ينفع إلا إذا اقترن به الاعتقاد بالقلب خلافاً للكرامية وغُلاة المُرْجِئَة في قولهم يكفي الإقرار. وهذا خطأ ظاهر يرده إجماع المسلمين والنصوص في إكفار المنافقين وهذا صفتهم، انتهى.

قلت: فإذا دان المرءُ بالشرك بالله وأنكر التوحيد فهذا أعدل شاهد على أنه ليس في قلبه من الإيمان شيء، كما قاله تعالى: ﴿وإذا ذُكِرَ الله وحده اشمأَزَّت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخِرةِ وإذا ذُكِرَ الذين من دُونِهِ إذا هم يستبشرون﴾ وأمثال ذلك من الآيات صح.

فليتأمل الناصح لنفسه ما قرره الله تعالى في كتابه من أدلة التوحيد

كقوله:

﴿ فَأَقِمْ وجهك للدين حنيفاً فِطْرَة الله التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون * مُنيبِين إليه واتَّقُوهُ وأقِيموا الصَّلاةَ ولا تَكُونُوا من المُشركين * من الذين فرقُوا دينَهُم وكانوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهم فَرِحُونَ ﴾.

ومنهم المنافقون وقد كانوا مع المسلمين يقولون لا إله إلا الله ويشهدون أن محمداً رسول الله، ويُصَلُّون ويُزَكُّون ويصومون ويجاهدون مع المسلمين ولم يظاهروا عليهم عدوًّا، ومع هذا وغيره أكذبهم الله لما جاءوا رسوله وقالوا: ﴿ نشهد إنَّك لرسول الله ﴾ فأكَّدوا شهادتهم بالمؤكدات إنَّ واللام، فقال الله عز وجل: ﴿ والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتَّخَذوا أيْمَانَهُم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيل الله إنهم ساءَ ما كانوا يَعْمَلُونَ * ذٰلِكَ بأَنَّهُم آمَنُوا ثم كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُم لا يَفْقَهُون ﴾.

ووجه الدلالة من هذه الآيات أن شهادتهم وأعمالهم لم تنفعهم مع قيام المنافي لذلك، فإنهم قام بهم من الجهل والشك والريب وغير ذلك ما صاروا به كفاراً في الدرك الأسفل من النار، ومن صفاتهم ما ذكر الله في سورة البقرة: ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ ــ إلى قوله ــ ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون ﴾ الآية.

وقال في سورة النساء: ﴿ مُذَبْذَبِين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿يقولون بألْسِنَتهم ما ليْس في قلوبهم﴾.

وقال: ﴿يُرْضُونَكُمْ بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾.

والمقصود من القول، لا ينفع إلا مع علم القلب وإيمانه ويقينه، والأعمال تُصدِّقُ ذلك إذا كانت على مقتضى الإيمان، وأما مع الإتيان بالمَنَافي فإنه أعدل شاهد على كذب ذلك القول، إذ لو كان صدقاً لعمل بمدلول ذلك. ومدلول اللفظ هو المعنى المطابق للدال وهو اللفظ، وكل قول يستعمل دال ومدلوله المعنى الذي وضع ذلك اللفظ للدلالة عليه، إذا عرف ذلك فإن منهم من يقول لا إله إلا الله عارفاً بمدلولها لكن قد يعرض له ما يمنعه من الاستقامة على العلم، كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئِنْ جاء نصرٌ من ربك ليقولنَّ إنَّا كنا معكم أوَلَيس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾.

فتأمل ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآيات ـ وكان يمنعني من سياق كلامهم وجوده وشهرته مع أن قصدي الاختصار.

ولما توفى رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب ولم يتركوا قول لا إله إلا الله، ومنهم بنو حنيفة كفروا بتصديق مسيلمة في كذبه، وقصة عمر مع أبي بكر مشهورة في الصحاح والسنة والمسانيد. وتأمل قول الله تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾.

وسبب نزولها وفيمن نزلت مشهور في كتب التفسير والحديث.

وكان أولئك النفر مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك يصلون وينفقون

ويجاهدون فكفرهم الله تعالى بما قالوه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ الآية.

وسبب نزولها ومن نزلت فيهم معروف لا يحتاج إلى أن نذكره.

وقوله تعالى: ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لَنصدَّقَنَّ ولَنَكُوْنَنَّ من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وَتَولَّوا وهم مُعْرِضَونَ * فأعقبَهُم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يَلْقُونَهَ بما أخْلَفُوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾. فليتق الله المرء في نفسه ويخاف من عقوبات الذنوب.

وكذلك قول الله تعالى عن أهل مسجد الضِّرار: ﴿ والَّذِين اتَّخذُوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾.

وهو أبو عامر الفاسق. وهؤلاء ومن قبلهم يقولون لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وفي الظاهر هم كانوا في عداد الأنصار قبل أن يُظْهِرَ الله ما أسرُّوهُ من الكفر، وقال الله في شأنهم: ﴿ لايزالُ بُنيانُهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ أي بالموت. والكتاب والسنة مملوءان بمثل هذه الأدلة وفيما ذكرناه كفاية للمسترشدين، وبالله التوفيق.

أيظن من وقع منه مثل ما وقع من أولئك أنه يسلم من هذه العقوبات، وليس معه براءة من الله، وهو يعلم أن ما كُلِّفَ بِهِ أولئك كلَّف به من بعدهم، وما عوقبوا به عوقب به من بعدهم إذا عمل بأعمالهم ونسج على منوالهم؟ نسأل الله الثبات في الدين واتباع سبيل المؤمنين. ومن تدبَّر القرآن مسترشداً مصيخاً مصغياً علم أن الرسل إنما بعثوا إلى الناس بالدعوة إلى أن يعملوا بالتوحيد، ويؤدوا ما افترض الله عليهم، ويجتنبوا ما نهاهم عنه من

عبادة ما سواه، ويخلصوا أعمالهم لله وحده.

والقرآن العظيم من أوله إلى آخره يقرر هذا التوحيد وينهي عن الشرك بالله في عبادته التي لا يصلح أن يُتَعَبَّد بها غيره. فانظر واستمع تجده يقرر الإخلاص وشرايعه، وينفي الشرك وتوابعه بأوضح بيان. وكذلك الأحاديث والسِّيَر ترشد إلى ذلك وتقرِّرُه على أكمل الوجوه وأحسن البيان، لكن لما اشتدت غربة الدِّين بعموم المفسدين وقع الريب والشك بعد الإيمان، وانتقض أكثر عُرَى الإسلام بانقراض عصر الأئمة الأعلام، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقص عُرَى الإسلام عُرْوَةً عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية». ومما انتقض من عراه الحب في الله والبغض في الله والمعاداة والموالاة لله وفي الله، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»، وأنت ترى حال الكثير حبه لهواه وبغضه لهواه، ولا يسكن إلا لمن يلائمه في طبعه وهواه، وأن غرَّة وأغراه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحاصل أن كل قول وعمل يحبه الله ويرضاه فهو من مدلول لا إله إلا الله، إمَّا مطابقة وإمَّا تضمُّناً وإمَّا التزاماً، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى، والتقوى أن يتقي العبد سخط الله وعقابه وعذابه بترك الشرك والبراءة منه ومن أهله، وإخلاص العبادة لله تعالى وامتثال ما أمر الله به وترك مانهى الله عنه، متبعاً في ذلك كله ما شرعه الله ورسوله. وقد عرفها السلف رضي الله عنهم. قال مطلق بن حبيب: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وأخرج الترمذي وابن ماجه بالإسناد عن عبد الله بن يزيد عن النبي

ﷺ، قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس». قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾، قال أبو بكر الصديق: فلم يلتفتوا عنه يمنةً ولا يَسْرَةً، أي لم يلتفتوا بقلوبهم إلى ما سواه بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون إلا الله ولا يحبون إلا له.

وقال شيخنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: سألني الشريف عما نُقاتِلُ عليه وما نكفِّر به؟ فقال في الجواب: إنا لا نقاتل إلا على ما أجمع عليه العلماء كلهم، وهو الشهادتان بعد التعريف إذا عرف ثم أنكر، فنقول: أعدانا معنا على أنواع:

الأول: من عرف من التوحيد دين الله ورسوله، وأن هذه الاعتقادات في الحجر والشجر والبشر الذي هو دين غالب الناس أنه الشرك الذي بعث الله رسوله بالنهي عنه، وقاتل أهله ليكون الدين كله لله، ولا يلتفت إلى التوحيد ولا يعلمه ولا دخل فيه ولا ترك الشرك فهذا كافر نقاتله، لأنه عرف دين الرسول فلم يتبعه، وعرف دين المشركين فلم يتركه، مع أنه لم يبغض دين الرسول ولا من دخل فيه ولا يمدح الشرك ولا يزينه.

الأمر الثاني: من عرف ذلك ولكن تبين في سب دين الرسول مع ادعائه أنه عامل به، وتبين في مدح من عبد يوسف والأشقر وأبو علي والخضر وفضلهم على من وحَّد الله وترك الشرك، فهذا أعظم كفراً من الأول، وفيه قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾. الآية، وعمن قال الله فيهم: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر﴾ الآية.

الثالث: من عرف التوحيد وأحبه واتبعه، وعرف الشرك وتركه، ولكن يكره من دخل في التوحيد ويحبُّ من بقي على الشرك، فهذا أيضاً كافر، وفيه قوله تعالى: ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾.

النوع الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهل بلده يصرحون بعداوة التوحيد واتباع أهل الشرك ويسعون في قتالهم، وعذره أن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه، فهذا أيضاً كافر، فإنهم لو أمروه بترك صيام رمضان ولا يمكنه ذلك إلا بفراق وطنه فعل، ولو أمروه أن يتزوج امرأة أبيه ولا يمكنه مخالفتهم إلا بذلك فعل، وأما موافقتهم على الجهاد بماله ونفسه مع أنهم يريدون قطع دين الله ورسوله ﷺ فأكبر مما ذكرنا بكثير، فهذا كافر ممن قال الله فيهم: ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردُّوا إلى الفتنة أُرْكِسُوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويُلْقُوا إليكم السَّلَمَ ويكُفُّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتُموهم ﴾ الآية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فصــــل

وهذا شروع في الجواب المشار إليه سابقاً وقد كنت عزمت على أن أتتبع كلامه وأجيب عنه تفصيلاً، ثم إنه عَرَضَ لي ما يجب أن يكون هو المقصود بالذات مما قدمته حمايةً لجانب التوحيد والشريعة، ثم بدا لي أن أقتصر في جواب الرجل لما في الاقتصار من رعاية الصبر والاصطبار لأنا لو أجبناه بكل ما يليق في الجواب لم نسلم من أمثاله ممن نسج على منواله، كما هو الواقع من أكثر البشر قديماً وحديثاً مع كل من قام بالحق ونطق بالصدق. فكل من

كان أقوم في دين الله كان أذى الناس إليه أسرع، والعداوة له أشد وأفظع، وأفضل خلق الله رسله وقد عالجوا من الناس أشد الأذى حكمة بالغة. قال الله تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾. والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة جداً ينبيك عن تفصيل هذا ما ذكره الله في كتابه عن أنبيائه لما دعوا أممهم إلى التوحيد كيف قيل لهم وما خوطبوا به، وتأمل ما جرى لخيار هذه الأمة كالخلفاء الراشدين وسادات أصحاب سيد المرسلين من أعدائهم كالروافض والخوارج، ونحوهم وما جرى لأعيان التابعين ومن بعدهم من أعيان الأئمة كالإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزاعي وأمثال هؤلاء ممن لا يمكن حصرهم، ولو ذكرنا جنس ما جرى لهؤلاء من الأذى لطال الجواب، والقصد الاقتصار، ومن أراد الوقوف على ذلك فعليه بالسِّيَر والتاريخ ولله در أبي تمام حيث يقول شعراً:

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلة طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حسُودِ

وقال أبو الطيب شعراً:

وثبات صدْقكَ عند الناس كذبهم وهَلْ يُطَابَق مُعْوَجٌّ بمعْتَدِلِ

إذا علمت ذلك فإن هذا الرجل ذكر عن الشيخ عبد الرحمن بن حسين أنه لا يصلي بهم، ولا يقدم من يهدونه، ولا يقطع خصومة، وعَدُّوه من نظر في كتاب، أو نطق بصواب.

هذا كلامه فيه عد هذه الأمور من المثالب، والبصير إذا تأمل رآها من المناقب لأن المسلم لا يجوز أن يحمل إلا على الخير فيما خفي عذره فيه حتى يتبين ما يدفع الاحتمال. وهذه العيوب الخمسة محتملة لأمور:

الأول: منها يحتمل أنه فعله تأثماً من الصلاة بالناس لعذر خفي عليهم أوجب ذلك.

وأما **الثاني**: فيحتمل أنه إنما فعله نصحاً لهم وطلباً للسلامة من تبعة ذلك، ولا يخفى أن نظره لهم خير من نظرهم لأنفسهم فإن جهّال العامّة لا يهتدون غالباً إلى ما يصلح دينهم.

و أما **الثالث** ففيه التثبُّت في الفتيا، فإن الإفتاء في دين الله بلا علم حرام، فلا بد للمفتي والقاضي من التأمُّل والمراجعة، وإلا أصيبت مقاتله، والعامة لا يعجبهم ذلك، والعالم عندهم من يبادرهم بالحكم والإفتاء من غير تأنّ ولا مراجعة، وهذا من فرط جهلهم وعدم علمهم كما يتبين من حال هذا المعترض.

وأما **الرابع والخامس** ففيه حماية جانب العلم وصيانته عن مثل هؤلاء الجهّال الذين لا يعلمون، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، فإن صيانة العلم عن تخبيط الجاهلين أمر لا بدَّ منه.

فانظر كيف وقع من أمثالهم ممن تتبَّع الرخص، أعاذنا الله من ذلك؛ وما أحسن ما قال بعض العلماء رحمه الله:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس خُلْفٌ فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفَاهةً ... بين الرسول ورأى كل فقيه

وهذا الضرب من الناس أفسدوا بدعواهم العلم على كثير من العامة دينهم، لما قلدوهم لهواهم وأحسنوا بهم الظن وفاقاً لدنياهم، فتأمل تجد ما ذكرته واقعاً ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فلفرط عداوة هذا الرجل عدَّ هذه الأمور الخمسة من المثالب، وهي كما

ترى صالحة لأن تعد من المناقب . كما قيل :

إذا كان من فيهم قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب

ثم إنه أخذ يحذرُ الإمام من أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأنه لا يجوز له أن يصغي إليهم ولا يأخذ منهم ولا يلين لهم جانبه إلى غير ذلك، ويحلف جهد يمينه أن الحامل له على ذلك هذا القول محض النصيحة بلا عدل.

فأقول: يكفيك دليلاً على كذب هذا وغشّه وسخافة عقله وقلة دينه وكثرة جهله، ما عبَّر به في هذا القيل، أما كان يعرف ما عليه المسلمون وما كانوا ينصحون به الإمام، فإن كل من يُعرف بإسلام حسن يوصيه بضد هذا، ولا ريب عندهم أن هذا كلام لا يقوله إلا رجل سوء، فسل من شئت من غير أهل الفساد وكل إناء بالذي فيه ينضح، وفيما قص الله عن أنبيائه تسلية لعبده المسلم إذا كان له أعداء، كما قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾.

فيؤخذ من هذا أن من قال الحق ودعا إليه فلا بد أن يتصدَّى له من يوقع الأذى عليه، وماذاك إلا لصعوبة الحق على النفوس ومخالفته الأهواء، وإيثار الشهوات على التقوى، نسأل الله الثبات على الإيمان والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

ولقد أحسن من قال في مثل هذه الحال شعراً:

يُقْضى على المرء في أيام محنته حتَّى يرى حسناً ماليس بالحسَنِ

وقائل هذا إنما أخذه من كتاب الله تعالى وهو مذكور في عدة آيات من الكتاب ترشد إلى أن من لم يُرد الله به خيراً يرى أن نفس الخطأ هو عين الصواب. ثم إن هذا المعترض زعم أن ابن ثنيان يطعمهم الحرام. فالجواب

أن يقال: وهذا من جهله، وقلة دينه وعقله، لأن هذا الكلام شاهد على قائله أنه لا يعرف شيئاً من الأحكام، ولا يتصور الواقع وذلك لا يخلو إما أن يكون صدر عن سوء طويَّة وفساد رويَّة، أسوة أمثاله ممن لم يستضيء بنور التوحيد، الذي هدى الله إليه الكثير من أهل نَجْد وغيرهم أحرارهم والعبيد، أو أنه مُغْفل عن هذا الشأن لحال أهل المهن وأرباب الدنيا في كل زمان. فلو سألت أحدهم عن الدين الذي بعث الله به المرسلين، لما أحسن التعبير عنه ولا عرف حقيقة الإسلام بيقين، ولا ريب أن هذا قصارى حال المشار إليه لدلالة كتابه عليه. فإن هذا كلام من لا يدري ما يقول، من غير تصور ولا معقول، فلا بد والحالة هذه من بيان يكشف ما قد يلتبس على بعض الجهال من ذلك الهَذَيان.

فأقول: من المعلوم عند الموافق والمخالف أن أئمة المسلمين الذين أقام الله بهم هذا الدين، بعد ما اشتدَّت غربته من بين الظلمة والمفسدين، أن الله بفضله ورحمته أقامهم بالحق المبين، فدعوا إلى التوحيد وأنكروا كل شرك وشك وتنديد، ونشروا أعلام الجهاد حتى أدخل الله بدعوتهم كل حاضر من قومهم وباد، فأخذوا تلك الأموال من أهل البغي والفساد، بسيف الحق والجهاد، فهو بحمد الله من طيب الحلال بلا تردد ولا إشكال. فقد أحل الله لرسوله ﷺ ولأمته الغنائم، وقد غنم الصحابة رضي الله عنهم أموال من ارتد من العرب، أو شكَّ في الحق واضطرب، وكل ما لا يؤيد بالدليل، فلا التفات إليه ولا تعويل، على أن الكثير من تلك الأموال، التي أخذت على هذا الوجه الحلال، وصارت من جملة بيت المال، قد تركت في أيدي الغاصبين لها حين تبدلت الحال. فلما قام هؤلاء الولاة، واجتمع عليهم الناس في هذه الأوقات، لم يبق في أيديهم من أموال الفَيء إلا القليل، لتغلُّب

الناس عليها من ظلمة ذلك الجيل، فإن كان «ابن ثنيَّان» استولى عليها فقد فاته منها الكثير، وذلك أمر بيِّن شهير، وإن كان قد أخذ غير ذلك بتأويل الجهاد، أو ممن يمنع زكاته من أهل تلك البلاد، أسوة أمثاله من الولاة المتقدمين، كالأمويين والعباسيين، وعلى هذا فدعوى أن مجموع ما أخذه كله حرام من جملة الهذيان في الكلام، فإن القول بحلِّها هو الصواب المقرر في كتب الأحكام، كما نصَّ عليه الصحابة والأئمة بعدهم في جوايز السلطان، فإنها أحبّ إلى بعضهم من صلاة الإخوان، ولأنها حلال لآل رسول الله ﷺ دون الزكاة في المأثور والمنقول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية وامتد الضلال في الأرض لأهل الأهواء من اتخاذ دين لم يشرعه الله، أو تحريم ما لم يحرمه الله.

إذا عرف ذلك فلا يخفى حال من سلف من الولاة، المتغلبين على هذه الجهات قبل أن يظهر عليها أهل الإسلام، إنهم يقاتلون عليها بغير الحق المبين، ويأخذون الأموال ظلماً وعدواناً بيقين، وفي تلك المدة وقفوا الأوقاف وليس بأيديهم إلا تلك الأموال، فهل يصح والحالة هذه ما كان هذا أصله من تلك الأوقاف، وكذا أموال التجار، فإنهم يعاملون فيها بالربا في جميع القرى والأمصار، ويكون لتلك الأموال والمعاوضة بها امتداد وانتشار من غير سؤال عنها ولا إستفسار، ومثل هذا ما يأخذه الأعراب المعتدون من أموال الغير وبها يمتارون، فما قال هذا المجترىء على شيء من ذلك أنه حرام أو أن فيه إشكالاً في حال من الأحوال، وكذلك ما وقع في هذه الديار من المعاملات الربوية، ولا ريب أنها بليَّة وأي بليَّة، وأمر خامس ظاهر في أناس من ظهور أمارات الخيانة عليهم، ونسبتها لقوة القرينة إليهم، وكل ذلك لا عتب فيه ولا بأس وأما الثلب والسب منه والعتاب فإنما

يتوجه إلى خصوص أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإن لم يكن لهم مدخل في الأموال، ولا عمل لهم فيها بحال.

أعوذ برب الناس من كل طاعن ‏ علينا بسوء أو مُلِحٍّ بباطل

والعارف لا يخفى عليه موجب هذه العداوة، فإن قيل ما قولكم في حكم ما ذكرتموه من هذه الأموال، أمن الحرام هي أم من الحلال، قلنا: القول فيها يتوقف على البحث عن كل فرد منها والاستفصال، ولكن من حيث عدم العلم بأعيانها على طريق الإجمال، فالمأثور عن السلف والأئمة في جوايز السلطان، وما كان على هذا المنوال أنه من قسم الحلال إلا ما علم أنه بعينه حرام وما لا فلا يمنع من أخذه ممن أعطاه إياه، إذا كان الآخذ يستحقه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: ليس أحد من المسلمين إلا وَلَهُ في هذه الدراهم حق، وكيف أقول إنها سحت والحسن والحسين وعبدالله بن جعفر وكثير من الصحابة يقبلون جوائز معاوية؟ قال: ولأن جوايز السلطان لها وجه في الإباحة والتحليل، فإن لها وجهات كثيرة من الفيء والصدقة وغيرها.

قال ابن رجب انتهى من المغني. قال ابن رجب: ورُوى في ذلك آثار كثيرة عن السلف، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعاملون المشركين وأهل الكتاب مع علمهم أنهم لا يجتنبون الحرام كله. وقال ابن مسعود: «الهناء لكم، والوزر عليهم» قلت: ومازال العلماء في كل عصر يقبلون جوائز الأمراء، ويأخذون حقهم من بيت المال، فلم ينكر ذلك أحد من أهل الورع ولا غيرهم من العلماء، إذا عرف ذلك فهنا أمر ينبغي الإشارة إليه، وهو أن يقال: ما حكم هذه الأموال لما كانت بأيدي أناس تغلبوا عليها بغد

أئمة المسلمين، وجاروا على الناس وصدوهم عن الحق وأفسدوا في الأرض بالمعاصي؟ فإن عُلِمَ أن ما بأيديهم هو عين ما غصبوه فالحكم فيه كالحكم في الأموال المغصوبة، وكذا ما علم أن صاحبه أخذه على وجه الخيانة، فينبغي أن يجتنب. فينظر حال هذا الرجل المعترض فإن كان متحاشياً من أخذ هذه الأموال، ويتباعد عمن كانت في يده ولم يبق إلا أنه جهل حكم تلك الأموال، فالأمر أهون، وإن كان لا يتحاشى من الحرام الذي هذا وجهه، ويحرم الحلال الذي عرف وجهه، صار محلاً لإساءة الظن به، خصوصاً إذا عرف أنه لا سبب بينه وبين أولاد الشيخ يقتضي هذه العداوة إلا الدين الذي يعرفون به ويدعون إليه، فقد كان بعض أهل نجد لما أخرج الله ضغائنهم توصلوا إلى مسبَّة دين الله بمسبَّة أهله، كما فعل أشباههم من الماضين ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ثم إن هذا المعترض قال في أولئك الذين وجَّه الطعن إليهم: نظروا إلى سد باب القبلة ومصر ولم ينظروا إلى أبواب السماء. يعني أنهم رضوا لمتولى أمرهم أن يداهن أهل تلك الجهات. فالجواب: أين أنت يا هذا لما كان أهل مصر ببلاد نَجْد، هل صحبتهم وأقمت فيهم أم فارقتهم وخالفتهم؟فأرجع العيب إلى نفسك، إن كنت إذ ذاك في عدادهم. ونقول أيضاً في الجواب: لا يخلو هذا الرجل من حالتين، إما أن يكون من أبْلَه الناس وأشدهم غباوة وأجهلهم بالناس وأحوالهم، ولا معرفة له بالواقع أصلاً، وإما أنه يتعمَّد الكذب ولا يبالي، ويظن أن ولي الأمر لا يعرف الحال، فلعله أن ينقدح في قلبه من ذلك شك، أو إشكال، وإلا فمن المعلوم من رأيهم لولاة الأمر ونصحهم لهم التنبيه على أن هذا الأمر لا يصلح مع حاله، وأن الموازرة لا تصل إلى هذا الحد الذي يفعلونه، وأنه كان يكفيهم

ما فعلوه معهم كف أيديهم، وقد كانوا يوصون الأئمة بتقوى الله والعمل بكتابه وسنة رسوله، واتباع شرعه وتنفيذ أحكامه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من فضل الله تعالى عليهم وعلى الناس. ومن ادّعى ما ليس فيهم كذَّبته شواهد الامتحان، ومن كانت هذه حالهم فلا يتعرض لسبِّهم وعداوتهم إلا من يكره هذه الأفعال فإن العداوة لها أسباب أعظمها اختلاف الدين، والناس إنما يتميزون بأعمالهم لا بأقوالهم، فرب ناطق بالحق وهو لا يحبه ولا يقبل أهله، بل ربما نطق بالحق وهو لا يعرف حقيقة ما يقوله، فعلى من نصح نفسه من أئمة المسلمين أن يبذلوا الجهد في إقامة الدين، ويصرفوا الهمَّة إلى معرفة التوحيد بالصدق واليقين، وأن يحملوا الناس على ذلك ويجاهدوهم على ما هنالك، وأن يحبُّوا في ربهم ويبغضوا فيه، ويعادوا لأجله ويوالوا فيه. وليحذروا من أمور ثلاثة توجب الذم والإثم والعقوبة:

الأول: ترك الحق بعد ظهوره وتبيُّنِهِ.

والثاني: التقصير في طلبه ليتبين له.

والثالث: الإعراض عن طلب معرفته لهوى أو كسلاً أو نحو ذلك.

وهذه الثلاثة الأشياء هي الآفة العظمى، ومن أجلها يضيع الدين. وقد انقسم الناس في هذا الزمان إلى هذه الأقسام، وكل قسم منهم معجب بنفسه ويظن أنه في رتبة الكمال من العلم والدين. وهذا من خدع الشيطان وغروره فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد قال الله تعالى: ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبِعها ولا تتَّبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يُغنُوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين

بعضهم أولياء بعض والله وليُّ المتقين﴾.

فتأمل هذه الآية وما فيها من الامتنان والترغيب في اتباع ما جعله الله عليه مما شرعه له، وما فيها من التحذير والإنذار، فما أعظم خطر هذا، وما أحوج العبد إلى ذلك خصوصاً إن نظر العبد بعين البصيرة إلى ما انتحله أكثر الناس من الشرك بالله في عبادته، وما جروا عليه من أنواع الظلم والفساد، فما أكثر المغرورين بالجهل والأهواء وطاعة النفس والشيطان، وقد حدثت هذه الأمور في هذه الأمة في زمن من سلف من الأئمة وبينوا ذلك وأنكروا وحذروا وأنذروا، رحمة الله عليهم، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى وعفا عنه:

ولقد رأينا من فريق يدعى الـ ... إسلام شركا ظاهر التِّبيان
جعلوا له شركاء وَالُوهم وسا ... ووهم به في الحب لا السلطان
والله ما ساووهمُ بالله بل ... زادوا لهم حبا بلا كتمان

وكل من تدبر القرآن وفهم أدلة التوحيد وعرف حقيقة الشرك الذي بعث الله الرسل بإزالته والنهي عنه، وألهمه الله رشده، علم يقيناً أنه هو الذي عليه أكثر الجهال من هذه الأمة، حيث جعلوا أرباب القبور من الأموات. محطاً لرحالهم في طلب الحاجات وتفريج الكربات، وتألفهم قلوبهم بالخشية والإجلال والتعظيم، والالتجاء إليهم والتوكل عليهم، وغير ذلك من العبادة التي لا تصلح إلا لفاطر الأرض والسمٰوات، كما قال تعالى: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدِّين ألا لله الدين الخالص﴾. ثم بيَّن ضدَّ ذلك وهو ما عليه أهل الإشراك فقال: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زلفى﴾ إلى قوله: ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفَّار﴾.

فأقام الحجة على هذه الأمة، وبين دينه الذي رضيه لنفسه ورضيه لعباده، وبين الدِّين الذي انتحله المشركون وأخبر عن ضلالهم وسوء مآلهم وأبان أنهم ما أرادوا مما عبدوا إلا القربة والشفاعة، وبين أنواع العبادة التي صرفها المشركون لآلهتهم وأخبر أن ذلك لا ينبغي إلا للواحد القهار، فأقام الحجة على عباده وقطع بهذا البيان كل حجة واعتذار، وأعذر إليهم على لسان البشير النذير ﷺ: ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويَجْزِيَ الذين أحسنوا بالحسنى﴾، قال الله تعالى: ﴿آلم أحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يُفْتَنُون * ولقد فَتَنَّا الَّذِينَ من قبلهم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ومِن النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِيَ في الله جعلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله﴾، إلى قوله: ﴿وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وَلَيَعْلَمَنَّ المُنَافِقَينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميزَ الخَبيثَ من الطيِّب﴾.

وقال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خبيرٌ بما تعملون﴾.

وقد بلا الله أخبار الناس بما جرى في هذه الأعوام، وميَّز بها من قاتل أهل الإسلام وسبهم ممن والاهم وأحبهم، والله يعلم أنا لم نرد بهذا تشيين أحد أو عداوته، ولكنا تأثمنا من كتمان العلم، ورغبنا في إرشاد العباد إلى طاعة ربهم ومعبودهم لما ابتلينا بأناس من أهل نجد يقولون على الله بلا علم، ويتكلمون في أشياء من غير دراية ولا فهم، فكان الواجب على من منحه الله علماً أن ينشر منه ما تيسَّر وقت الاحتياج إليه، وخصوصاً في هذه

الأزمنة لمَّا قلَّ العلم وكثر الجهل وغلبت الأهواء واشتغل الناس فيه بمحبة دنياهم وإيثارها على طاعة مولاهم والعمل لأخراهم، والله تعالى هو المرجوّ المسئول أن يرفع عنا وعن المسلمين العقوبة، وأن يكتب لنا المثوبة بتحري رضاه، وأن يوفقنا للاستقامة على طاعته وتقواه، وأن يحقق لنا ولإخواننا ما طلبناه ورجوناه، إنه هو البر الرحيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

واعلم أن هذا الرجل وأمثاله لما امتلأت قلوبهم بالعداوة والبغضاء ظهرت على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم وأتوا بكل بلِيَّةٍ ورميَّة كما تقدم، طمعوا فيما هو أعظم من ذلك، وأكبر ضرراً مما هنالك، فأوردوا على الجُهَّال شُبُهات تحسينا لما قد فعلوه وتزيينا لسبيلهم الذي سلكوه أسوة بمن مضى من أمثالهم.

قال العِمَادُ في التفسير: قال قتادة في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ إذاً والله لا يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبَّرهُ القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك».

والعارف إذا نظر إليها علم أنهم قد أقرُّوا على أنفسهم وعلى الذين وَالوهم وزادوهم بما قد لا يصرح به غيرهم فيهم ابتداء.

فمن ذلك قول بعضهم إن الله تعالى يقول: ﴿فلولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أنْ تطأوهم فتصيبَكُم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم﴾ الآية. يشير إلى أنه معذور بإقامته مع هؤلاء كما عذر من أقام من المؤمنين بمكة مع المشركين.

فيقال له: **أولا**: إن هؤلاء الذين سماهم الله مؤمنين لم يظاهروا على المؤمنين مشركاً ولا منافقاً ولا باغياً ولا ظالماً، ولا سبُّوا مؤمناً ولا عادوه،

ومنهم مَن قيَّده أهله بمكة ومنعوه من الخروج كأبي جندل بن سهيل، فإنه خرج يوم الحديبية من مكة يَرْسُفُ في قيوده. فلو أن أحداً منهم سبَّ المسلمين أو غلبهم أو أعان عدوَّهم انتقض إسلامه بلا ريب، لكن الله تعالى حفظهم من هذه الأمور وعذرهم باستضعافهم وعجزهم. ولهذا ثبت في الصحيح وغيره أن رسول الله ﷺ كان يدعو لهم في الفريضة، كما أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحدٍ أو يدعو لأحدٍ قنَتَ بعد الرجوع، وربَّما قال إذا قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين» قوله: «والمستضعفين من المؤمنين» هو من عطف العام على الخاص بلا ريب، ومن المحال أن يسمِّيهم الله ورسوله مؤمنين وقد وقع منهم ما ينافي الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ اللهَ ورَسُولَهُ ولو كانوا آباءَهُم أو أَبْنَاءهم أو إخوانَهُم أو عَشيرَتَهم﴾ فَعُلِمَ من هذه الآية أن أولئك المستضعفين من المؤمنين لما كانوا بمكة مع قريش أنهم لم يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين، ولم يطمعوا منهم بموادة ولا ركون وحاشاهم من ذلك، كما قال تعالى: ﴿والمستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدَان الذين يقولون ربنا أخرِجْنَا من هذه القرية الظالِم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾.

فلهذا وصفهم الله بالإيمان، وقد أخبر تعالى عن أن الإيمان ينتفي بموالاة أعدائه، كما قال: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيِّ وما أُنْزِل إليه ما اتَّخَذُوهُم أولِياءَ ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون﴾.

قال بعض المفسرين في الآية الأولى: الممتنع أن تجد قوماً من المؤمنين يُوَادُّون من حَادَّ الله ورسولَهُ، وقد تقدَّم ذلك في كلام شيخ الإسلام ابْنِ تَيْمِيَّة رحمه الله.

ويقال أيضاً: إن الله تعالى بيَّن حال الذين عذرهم عن الهجرة وميزهم بالوصف ممن لم يعذرهم، فقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ توفَّاهم المَلائكةُ ظالِمي أَنْفُسِهِم﴾.

قال في شرح البخاري: والسؤال للتوبيخ، أي لم تركتم الجهاد والهجرة والنصرة؟ قالوا: ﴿كُنَّا﴾ ... ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه، فلقيني عكرمة فأخبرته فنهاني أشد النهي وقال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يأتي السهم فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله، فأنزل الله تعالى: ﴿إنَّ الذين توفَّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ الآية.

فتأمل كيف ترتَّبَ عليهم هذا الوعيد وأوجب لهم النار، وقد روى أنهم مكرهون على تكثير سواد المشركين فقط، فكيف بمن كثر سوادهم بغير إكراه وإيمان، وظاهَرَ وقاال وفعل من غير استضعاف؟ أترى بقي مع هذا شيء من الإيمان والحالة هذه؟ ثم إن الله تعالى بيَّن في هذه الآية من خرج من هذا الوعيد بأوصاف لا تخفى على البليد، فقال: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولٰئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًّا غَفُوراً﴾.

فذكر أنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً وهم العاجزون عن الهجرة من كل وجه، وهؤلاء هم الذين دعا لهم رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة المتقدم، بخلاف من لم يعجز عن الهجرة بل اختارهم ورغب فيهم وسكن إليهم ووافقهم وتأيد به واستنصر، مثل عبدالله بن أبي سرح ومقيس بن صبابة الليثي وأمثالها، ممن تزين له الباطل كَجَبَلَةَ بن الأيهم الغساني، وأمثال هؤلاء كثيرون نسأل الله الثبات على الإسلام والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

الأمر الثاني: استدلالهم على جواز الإقامة مع المشركين وتركهم الهجرة، بأن الصحابة هاجروا إلى الحبشة وفيها نصارى، فيقال أولاً لا يجوز عند أدنى من له معرفة أن يستدل على ترك الهجرة بأن الصحابة هاجروا، وكيف يجوز في عقل من له أدنى مسكة من عقل أن يستدل لترك شيء بأن ذلك الشيء الذي ترك قد فعله غيره، وقد عرفت أن الله امتجل[1] على من ترك الهجرة بالوعيد الشديد وبرىء منه رسوله ﷺ، وأثنى على من هاجر ووعدهم على الهجرة بخير الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوِّئنَّهُم في الدنيا حسنة ولأجرُ الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

وقال: ﴿والذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾.

وأي جهل أعظم من جهل مَن يُسَوِّي بين حسنات المقربين والأبرار، وسيئات العصاة الأشرار! ﴿أفَمَنْ كان مؤمِناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾.

(١) ملأ ـ هدد.

وأيضاً فإن الصحابة رضي الله عنهم هاجروا إلى الحبشة لما لم يجدوا إذ ذاك دار إسلام، ففعلوا ما أمكنهم فعله من طاعة الله وتقواه، وأهل الحبشة وإن كانوا نصارى فهم أقرب مودَّة للذين آمنوا من اليهود والذين أشركوا ثم إنَّه حصل بتلك الهجرة من سلامة دينهم وظهوره والدعوة إلى الله وإسلام النجاشي وبعض أساقفته وإكرامهم إياهم، وغيظ عدوهم من المشركين ومراغمتهم ما هو من مقاصد الدين، فتأمل، وهذا سياق قصة مهاجرة الحبشة. قال أبو نعيم منتقاة من سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق: حدثنا محمد بن مسلم الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن، عن الحارث بن هشام، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النَّجاشي آمنَّا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤ ذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهبوا للنجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدْم، فجمعوا له أُدْماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهْدُوا إليه هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هدية قبل أن تكلِّما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه ثُمَّ أسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، عند خير جار. إلى أن قالت: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، وقال له:

أيها الملك، كنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف، وكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته

وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمَرَنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمَرَنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قالت فعدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدَّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحللْنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا وعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجَوْنا ألا نُظْلَمَ عندك أيها الملك.

قالت:

ـ فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: اقرأ عليَّ.

فقرأ عليه صدر آية (كهيعص).

قالت:

ـ فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلو مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد...

ثم ساقت القصة.

قال ابن اسحاق: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت: لما مات النجاشي كان يُتحدث أنه لايزال على قبره نور. انتهى.

وذكر ابن إسحاق في قوله عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ إلى قوله: ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ الآية.

وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت، فقال: مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه، والآيات في سورة المائدة: ﴿ذٰلك بأن منهم قسيسين﴾ إلى قوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

قال ابن إسحاق: وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وَوُلِدَ بها ثلاثة وثمانون رجلاً، فعبدوا الله وحمدوا جوار النجاشي، فقال عبدالله بن الحارث بن قيس السهمي:

يا راكباً بَلِّغَا عَنِّي مُغَلْغَلَةً	من كان يرجو بلاغ الله والدين
إنا وجدنا بلاد الله واسعة	تنجي من الذل والمخزاء والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز	ى في المات وعبد غير مأمون
إنا تبعنا نبيَّ الله واطَّرحوا	قول النبي وغالوا في الموازين
فاجعل عذابك في القوم الذين غلوا	وعائذا إن يعلوا فيضعون

قال السهيلي رحمه الله: وفي هذا من الفقه الخروج من الوطن وإن كان الوطن مكة على فضلها، إذا كان الخروج فراراً بالدين. فإن الحبشة كانوا نصارى وسُمِّيَ الصحابة بهذه الهجرة مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى الله عليهم بالسَّبق فقال: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾.

وجاء في التفسير أنَّهم الذين صَلُّوا القبلتين وهاجروا الهجرتين، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة لما كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم، وأن يخلي بينهم وبين عبادة ربهم آمنين مطمئنين.

وهذا حكم مستمر، متى غلب المشركون على بلد وأوذى على الحق مؤمن، ورأى الباطل ظاهراً قاهراً للحق، ورجا أن يكون في بلد آخر، أي بلد كان يبين فيه دينه، ويظهر فيه عبادة ربه، فإن الخروج على هذا الوجه حتم على المؤمنين وهذه الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة. انتهى ملخصاً.

وكل من له أدنى معرفة ألا يفهم من هذه القصة إلا أنها حجة عظيمة على من ترك الهجرة الواجبة من وجوه لا تخفى على البليد، اللهم إلا من ابتلي بسوء الفهم وفساد التصور وكابَرَ العقلَ والشرع فلا حيلة فيه، يا ربنا نسألك الثبات على الإسلام.

وأورد أيضاً حديث: «أنا بريء من مسلم بين أظهر المشركين».

لمقامه فيهم، والحجة منه أنه سماه مسلماً، فيفيد أن إقامته بين أظهر المشركين لا تخرجه عن الإسلام، فالجواب أن براءة النبي ﷺ ممن جلس بين ظهرانيهم إنما كان عقوبة له على مجرد الإقامة بين أظهرهم، وأما إيواؤهم ونقض العهد لهم، ومظاهرتهم ومعاونتهم والاستبشار بنصرهم، وموالاة وليهم ومعاداة عدوهم من أهل الإسلام، فكل هذه الأمور زائدة على الإقامة بين أظهرهم، وكل عمل من هذه الأعمال قد توعَّد الله عليه بالعذاب والخلود فيه، وسلب الإيمان وحلول السخط به، وغير ذلك مما هو مضمون الآيات المحكمات التي تقدمت.

وكل ذنب من هذه الذنوب له عقوبة تخصه، وكل ماازداد منه زاد الله

له في العقوبة، فإن من لم يؤمن بتلك الآيات المحكمات ويعتدي بصدور تلك الأعمال منه، فما أشبه حاله بحال من قال الله فيهم: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾.

واعلم أن هؤلاء المشركين لم يرضوا من هذا وأمثاله بمجرد الموالاة والنصرة، دون عبادتهم وتسويتهم لهم بالله في التعظيم والإجلال والتَّودُّد إليهم، فمن ذلك الانحناء لهم، والإشارة باليد إلى أشرف أعضاء السجود وهو الجبهة والأنف، وكل ذلك من خصائص الإلهية وذلك أمر لا محيد لهم عنه، كما قال تعالى عن أهل الكهف: ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في مِلَّتِهم ولن تُفلحوا إذاً أبداً ﴾ ولهذا لم يجدوا من مفارقتهم بدًّا حتى ذهبوا إلى غار في رأس جبل خوفاً من ذهاب دينهم، فآثروا الله على كل ماسواه، قال شيخنا في هذه القصة فيه اعتزال أهل الشرك واعتزال معبوداتهم وقوله: ﴿ فأْوُوا إلى الكَهْفِ ﴾ فيه شدة صلابتهم في دينهم حيث عزموا على ترك الرياسة الكبرى والنعمة العظيمة واستبدلوا بها كهفاً في رأس جبل، قلت: ومثل ذلك ما ذكره الله عن سحرة فرعون لما استنارت قلوبهم بالإيمان قالوا لفرعون لعنه الله. ﴿ لن نُؤْثِرك علىَ ما جاءنا من البينات والذي فَطَرَنا فاقْض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾.

واعلم أن حقيقة هؤلاء المشبهة أن الله تعالى أمرهم بقتال المشركين فقاتلوا معهم، وأمرهم بالبعد عنهم فآووهم وقربوا منهم، وأمرهم بمعاداتهم فوالوهم، وأمرهم ببغضهم فوادُّوهم، وأمرهم بأن ينصروا أهل الإسلام،

فنصروا الكفرة عليهم، ونُهُوا عن مداهنتهم فداهنوهم، ونهاهم عن كتمان ما أنزل الله في هذا وغيره فكتموا وشبهوا كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشرون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم ﴾.

وقال: ﴿ ومن أظلم مِمَّن كتَم شهادة عنده من الله ﴾.

وقال: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيِّنات والهدى ﴾ الآية.

فجمعوا بين الكتمان والردّ على مَن بيَّن ولم يكتم والتشبيه والمجادلة بالباطل، فتركوا ما أوجبه الله عليهم وارتكبوا ما حرَّم عليهم، وهذا ظاهر جداً لا يرتاب فيه من له أدنى معرفة بالناس وما وقع منهم فلا يأمنهم ويقربهم بعد هذه العظائم إلا من سَفِهَ نفسه. ولهم شبهة أخرى، وهي أن أبا بكر استأجر عبدالله بن أُرَيْقِط في طريق الهجرة إلى المدينة وكان هادياً خريتا[1] يدلهم على الطريق، فأحسن رسول الله ﷺ صحبته. فتكون صحبته للعسكر، وإعانتهم على المسلمين ونصرتهم لا بأس بها. فيقال أولاً قد ذكرت في الشبهة التي قبل هذه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا بريء من مسلم بين أظهر المشركين» وهذا يناقض ما استدللت به هنا، وحاشا رسول الله ﷺ أن يبرأ من صاحب عمل وهو يفعله، ومثل هذا قوله: «من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله»، والآيات المحكمات صريحة في التحذير من موالاتهم ناطقة بالوعيد الشديد على موادتهم ونصرتهم.

إذا عرفَ هذا فالفرق بين الدليل والمدعي أبعد مما بين المشرق والمغرب، وذلك أن ابن أُرَيْقط أعان رسول الله ﷺ على أبرِّ البر بعد الإسلام،

---

(١) عالما بالطرق.

وأفرض الفرائض بعد الإيمان، وسعى لرسول الله ﷺ في مصالحه التي يتوصل بها إلى رضا مولاه، ومراغمة أعداه ولا ريب أن هذا لو صدر من ابن أريقط بنية كان من أفضل الأعمال، فإذا أسلم كتب له ذلك من أفضل حسناته على حديث حكيم: «أسلمت على ما أسلفت من خير» يخالف من أوى المشركين ورضي بهم بدلاً من المسلمين وأعانهم واستنصر لهم، وفرح بنصرهم وظهورهم ودعا الناس إلى متابعتهم. فالفرق بين الفعلين كالفرق بين فعل أبي طالب من النصرة والحياطة والحماية، وفعل أبي جهل وأمثاله من أعظم الكفر الموصل إلى الدركات في العذاب، وحلول المثلات. فأين من أعان الباطل ووادَّ أهله ونصرهم وظاهرهم، ممن أعان المسلمين وسعى في مصالحهم وراغم عدوهم؟

سارت مُشَرِّقَةً وسِرْتُ مُغَرِّباً ... شتَّانَ بين مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

فابن أريقط فعل كما فعل سراقة بن مالك، فقد فعل من النصيحة في حال كفره ما يُحْمَدُ به باطناً وظاهراً، بخلاف من والي المشركين ونصح لهم وعادى المسلمين وولب عليهم. فإنه قد وقع في الوعيد والسخط والمقت وفساد الدين ومفارقة المؤمنين، والله أعلم بما يؤول إليه حال أعيان أولئك، لكنه يخشى عليهم أن يصيبهم مثل ما قص الله في شأن بلعام وأهل مسجد الضِّرار فقد كانوا قبل ذلك في عداد الأنصار، فيا مُقَلِّب القلوب ثبت قلوبنا على الإيمان، ولا ريب أن عدول هذا المستدل عن الآيات المحكمات وصحيح الأخبار، ترك للمحكم واتباع للمتشابه كما قال تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زَيغٌ فيتَّبِعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ الآية.

وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه

فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم».

وحاصل ما قدمنا من الجواب عما أورده المشبه هنا يتضمن خمسة أوجه:

الأول: أبن ابن أُرَيْقِط أجير. ومن شأن الأجير أن يخدم المستأجر؛ لأنه ملك منافعه بعقد الإجارة، والأجير تحت المستأجر.

الوجه الثاني: أن ذلك الرجل مُستأجَر في مصلحة دينية هي من أكبر مصالح الدين، فإعانته المسلم وقت الحاجة إليه لا محذور فيها لكونه مصلحة محض، فكيف يجوز أن يستدل بذلك على ما هو أعظم المفاسد في الدين من موالاة المشركين وإعانتهم على باطلهم والصدِّ عن سبيل الله؟.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدَّانِ يجتمعان

الوجه الثالث: أن استئجار الكافر للمصلحة نظير استرقاق الكافر، وذلك جائز بخلاف العكس فإنه لا يجوز، لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. وهذا المشبه كأمثاله صاروا لأهل الباطل كالمماليك في طاعتهم ومتابعتهم وإعانتهم اختياراً منهم لا إضطراراً.

الوجه الرابع: أن ما فعله ابن أريقط لا يُعاب عَليه عقلاً وشرعاً، بل قد يثاب عليه في حال كفره بالدين إن لم يكن أسلم، ولعله والله أعلم صار سبباً لإسلامه لقربه من الإسلام بإعانته أهله على طاعته ربهم، فإنه يتروح لذلك بقول الجن في شعرهم:

هما نزلاها بالهدى فاهتدت به فقد فاز من أمسى رفيق محمد

وهذا بخلاف من أعان على معصية الله والصدّ عن سبيله، فأين من كان

مع اهل الحق ممن كان مع عدوهم؟ وهل سمعت بتفاوت أعظم من هذا التفاوت؟

والله ما استويا ولن يتلاقيا حتى تشيب مفارق الغربان

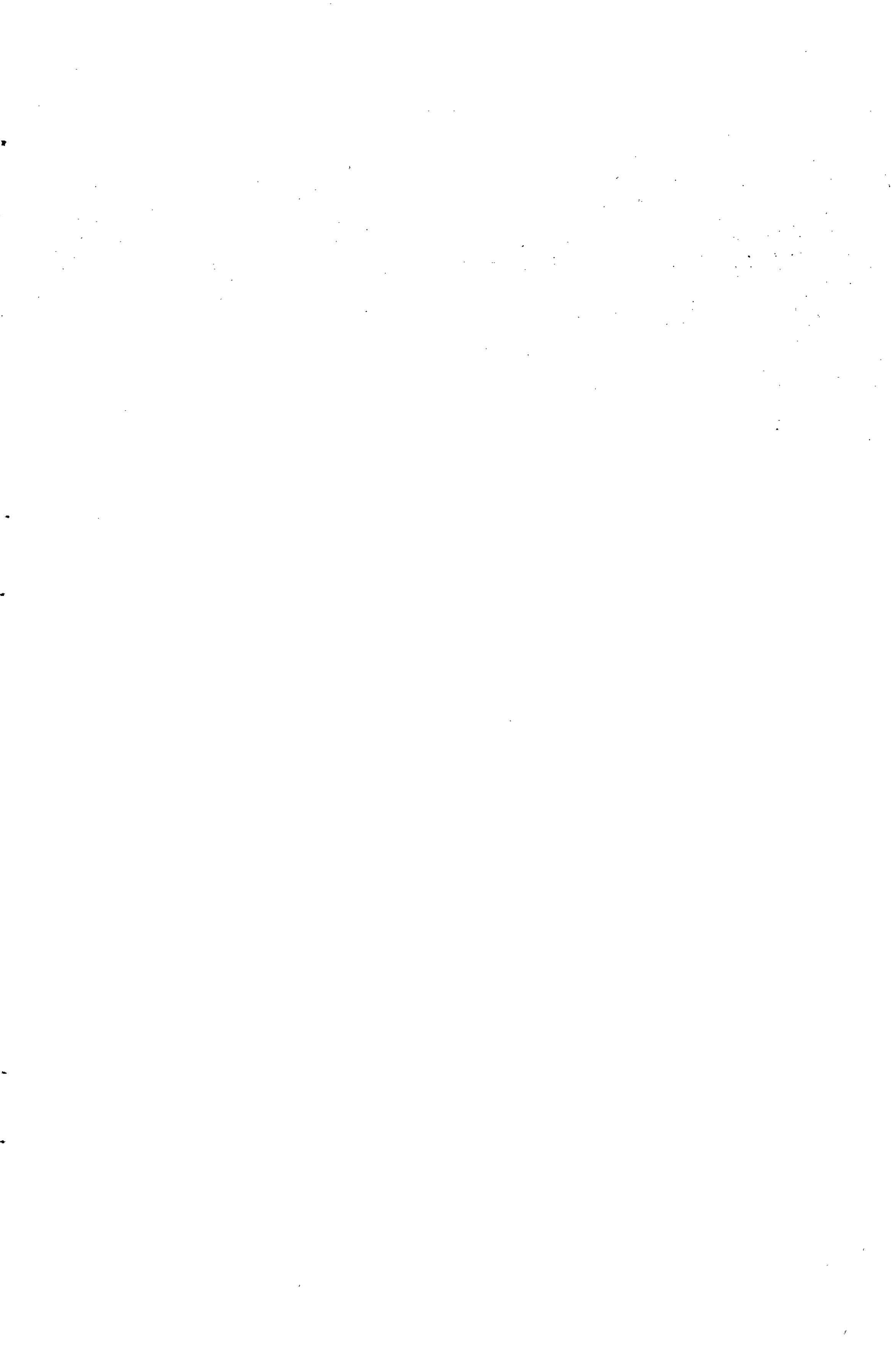
الوجه الخامس: أن ما فعله ابن أُرَيْقط يغيظ كفار قريش وإغاظة الكفار يحبها الله، بخلاف من يفعل معهم ما يسرهم ويغيظ عدوهم من المؤمنين، فأين هذا من هذا لو كانوا يعلمون؟ والبصير يعلم أن هذا التشبيه من هؤلاء على العوام، صد لهم عن سبيل الله، وإنه من آثار عقوبات تلك الأعمال.

اللهم إنا نعوذ بك أن نفتن عن ديننا أو نُرَدّ على أعقابنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمدلله رب العالمين، وصلّى الله على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلّم تسليماً كثيراً. وهذا آخر ما تيسَّر جمعه، والله أسأل أن يعمَّ نفعه.

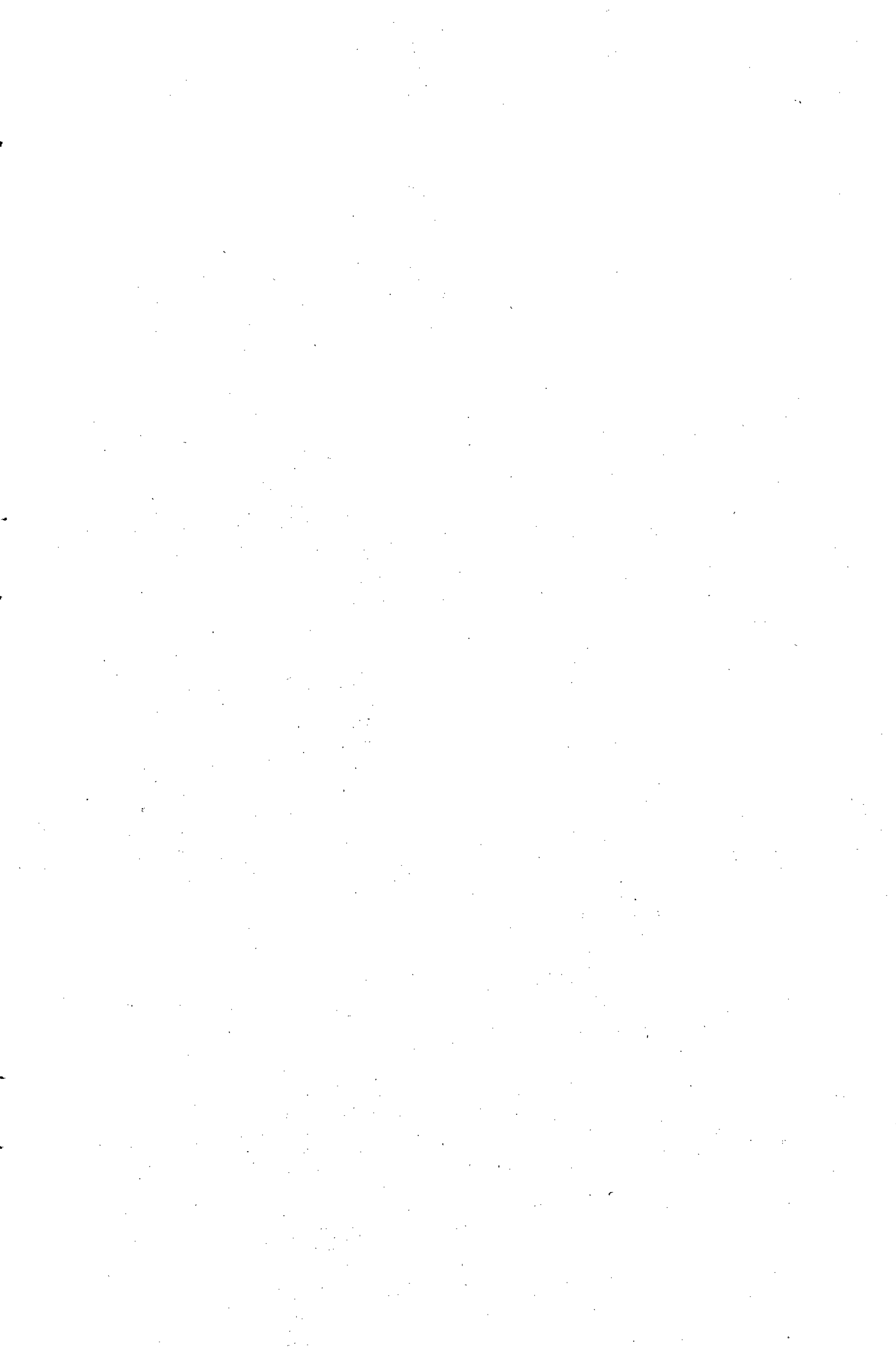
أملاه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أجزل الله لهم الصواب.

وكتبه الفقير إلى الله تعالى حمد بن عتيق.

تمت كتابته يوم الخميس أول يوم من جمادى الأولى سنة واحد وستين ومائتين وألف.



ملخص منهاج السنة
لأبي العباس بن تيمية رحمه الله
والملخـص
للشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين هذه زبدة مختصرة لمنهاج السنة لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني انتخاب شيخنا عبد الرحمن بن حسن ..

قال رحمه الله بعد كلام سبق وأما المثبتون للقدر فهم جمهور الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم باحسان وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا في إثبات عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وفي تعليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك فقالت طائفة أن الظلم ممتنع من غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين الضدين وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلم وهؤلاء الذين قصدوا الرد عليهم وهم الذين يقولون أنه لو عذب المطيعين ونعم العاصين لم يكن ظالماً وقالوا الظلم التصرف فيما ليس له والله تعالى له كل شي أو هو مخالفة الأمر والله تعالى الأمر له وهذا قول كثير من أهل الكلام والمثبتين للقدر ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وقالت طائفة بل الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه عنه لا يفعله لعدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئاً والمدح إنما يكون بترك المقدور لا بترك الممتنع قالوا وقد قال الله تعالى ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما ﴾ وقالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم من حسناته وقال تعالى ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكوا بذنوبهم وقال تعالى ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ فدل على أن القضا بينهم بغير القسط ظلم والله منزه عنه وقال تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي لا ينقص

من حسناتها ولا تعاقب بغير سيآتها فدل على آن ذلك ظلم ينزه الله تعالى عنه وقال تعالى ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن ممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينصف بين العباد ويقضي بينهم بالعدل وإن القضا بينهم بغير عدل ظلم ينزه الله تعالى عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره ولا تزر وازرة وزر أخرى وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فقد حرم الله على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة لما قضى الله الخلق كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدوراً له. فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه وهذا القول الذي يجب اعتقاده وهو قول كثير من أهل السنة المثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقه والكلام والتصوف وعلى هذا القول فهؤلاء هم القائلون بعدل الله وإحسانه دون من يقول من القدر به وهم المعتزلة أن من فعل كبيرة حبط إيمانه فإن هذا النوع من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه وهو القائل ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وكذلك الحكمة أجمع المسلمون على أن الله تعالى موصوف بالحكمة لكن تنازعوا في تفسير ذلك فقالت طائفة الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم بل هو حكيم في خلقه وأمره والحكمة ليست مطلق المشيئة والإرادة إذ ولو كانت كذلك لكان كل مريد حكيماً ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى مذمومة وممدوحة بل الحكمة ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة والقول بإثبات هذه الحكمة ليس هو قول المعتزلة ومن

وافقهم من الشيعة فقط بل هو قول جماهير طوائف المسلمين من أهل الحديث والتفسير والفقه والتصوف والكلام فأئمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكم والمصالح في أحكامه الشرعية وإنما تنازع في ذلك طائفة من نفاة العباس وغير نفاته وكذلك ما في خلقه من المنافع والحكم والمصالح لعباده معلوم وأصحاب القول الأول كالأشعري وجهم ومن وافقهما من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم يقولون ليس في القرآن لام تعليل في أفعال الله تعالى بل ليس فيه الا لام العاقبة وأما الجمهور فيقولون بل لام التعليل داخلة في أفعال الله تعالى والقاضي أبو يعلى وأبو الحسن بن الزغواني ونحوهما من أصحاب أحمد وإن كانوا يقولون بالأول فهم يقولون بالثاني أيضاً في غير موضع وكذلك أمثالهم من الفقهاء وأما ابن عقيل والقاضي في بعض مواضع وأبو حازم وأبو الخطاب الصغير فيصرحون بالتعليل والحكمة في أفعاله تعالى موافقة لمن قال ذلك من أهل النظر والحنفية هم من أهل السنة القائلين بالقدر وجمهورهم يقولون بالتعليل والمصالح والكرامية وأمثالهم هم أيضاً من القائلين بالقدر المثبتين لخلافة الخلفاء المفضلين لأبي بكر وعمر وعثمان وهم أيضاً يقولون بالتعليل والحكمة وكثير من أصحاب أحمد والشافعي يقولون بالتعليل والحكمة وبالتحسين والتقبيح وأهل السنة يقولون بالتعليل يقولون إن الله يحب ويرضا كما دل عليه الكتاب والسنة ويقولون إن المحبة والرضى أخص من الإرادة وأما المعتزلة وأكثر أصحاب الأشعري فيقولون إن المحبة والإرادة والرضى سوا فجمهور أهل السنة يقولون إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه وإن كان داخلاً في مراده كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة وهو إن كان شراً بالنسبة إلى الفاعل فليس كل ما كان شراً بالنسبة إلى شخص يكون عديم الحكمة بل لله في مخلوقاته حكم قد يعلمها الناس وقد لا يعلمها

إن كان رحمه الله في بحثه مع أهل الكلام في صفات الفعل فلا يلزم قدم جميع الحوادث ولا حدوث جميعها بل يلزم قدم نوعها وحدوث أعيانها كما تقول أئمة السنة إن الرب لم يزل متكلماً إذا شاء ويقولون إن الفعل من لوازم الحياة والرب لم يزل حياً فلم يزل فعالا وهذا معروف من قول الأئمة كأحمد بن حنبل والبخاري ونعيم بن حماد والخزاعي وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم ممن قبلهم كابن عباس وجعفر الصادق وغيرهما ومن بعدهم وهم يتلقون ذلك عن أئمة السنة ويقولون إن من يخالف هذا القول فهو مبتدع ضال وهؤلاء وأمثالهم عندكم هم أئمة السنة والحديث وهم أعلم الناس بمقالة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ومن اتبع الناس لهؤلاء وغيرهم كسفيان بن عينيه احتجوا على أن كلام الله غير مخلوق بأن الله لم يخلق شيئاً إلا بكن إلى أن قال كما إذا قيل لايكون خالقاً إلا بعلم وقدرة امتنع أن يكون العلم والقدرة مخلوقين فيجب أن يكون متقدماً على كل مخلوق ـ قال الله تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ فالخالق سبحانه يمتنع أن يكون مقارناً له في القدم شيء من العالم كائناً ما كان سواء قيل يخلق بمشيئته وقدرته كما يقوله المسلمون وغيرهم أولاً والأقوال المخالفة للحق كلها باطلة وكان الناس لما بعث الله محمداً ﷺ في ضلال عظيم كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وان ربي قال لي قم في قريش فانذرهم فقلت أي رب إذا يشلقو رأسي ويدعوه خبزة قال إني مبتليك

ومبتل بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظانا فابعث جنداً أبعث إليك مثلهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك وانفق أنفق عليك وقال إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً الحديث بطوله ثم استطرد في رده على أهل الكلام فذكر قول الكلابية في القرآن فالقديم معنى واحد هو الأمر بكل مأمور والخبر بكل مخبر وهو معنى التوراة والإنجيل والقرآن وهو معنى آية الكرسي وآية الدين وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق ولم يقولوا إنه يتكلم بمشيئته وقدرته وأكدوا أن يكون الكلام العربي كلام الله والحزب الثاني قالوا بل الحروف والأصوات قديمة أزلية الأعيان وقالوا الترتيب في ذاتها لا في وجودها وفرقوا بين الحقيقة وبين وجود الحقيقة كما يفرق كثير من أهل الكلام بين وجود الرب وبين حقيقته وكثير منهم ومن الفلاسفة يفرقون بين وجود الممكنات وبين حقيقتها وقالوا الترتيب هو في حقيقتها لا في وجودها بل هي موجودة ازلاً وأبداً لم يسبق منها شيء شيئاً وإن كان حقيقتها مرتبة ترتيباً عقلياً لا كترتيب الذات على الصفات وكترتيب المعلول على العلة وهؤلاء يجعلون التقدم والتأخر والترتيب نوعين عقلياً ووجودياً ويدعون إن ما أثبتوه من الترتيب والتقدم والتأخر هو عقلي لا وجودي قال الملخص وفقه الله وهذان القولان شر من قول الجهمية في القرآن لأن الجهمية لهم شبهة في قولهم إن القرآن مخلوق وهؤلاء لا شبهة لهم وليس معهم إلا القول على الله بلا علم تعالى الله عما يقول هؤلاء علواً كبيراً انتهى وأما جمهور العقلاء فينكرون هذا ويقولون إن قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة وإن الترتيب والتقدم والتأخر لا يعقل إلا بوجود الشيء بعد غيره لا يمكن كونه معه ولا يكون إلا بعده كما يقولون إن المعلول لا يكون إلا بعد علته ولا يكون معها والمقصود إن هذه الطريقة الكلامية التي ابتدعها الجهمية والمعتزلة وأنكرها

سلف الأمة وأئمتها صارت عند كثير من النظار والمتأخرين هي دين الإسلام بل يعتقدون أن من خالفها فقد خالف دين الإسلام مع أنه لم ينطق بما فيها من الحكم والدليل لا أية من كتاب الله ولا خبر عن رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين فكيف يكون دين الإسلام مما لم يدل عليه لا كتاب ولا سنة ولا قول لأحد من سلف الأمة ثم حدث في الإسلام الملاحدة من المتفلسفة وغيرهم حدثوا وانتشروا بعد انقراض الأعصار المفضلة وصار كل زمان ومكان يضعف فيه نور الإسلام يظهرون فيه وكان من أسباب ظهورهم أن دين الإسلام ليس إلا ما يقوله أولئك المبتدعون فرأوا دين الإسلام المعروف فاسداً وكان غلاتهم يطعنون في دين الإسلام باليد واللسان فيقال لهؤلاء الملحدين من أين لكم قدم شيء من العالم وليس في العقل ما يدل على ذلك فيخاطبون أولاً بالمطالبة بالدليل وليس على ذلك دليل صحيح قال رحمه الله تعالى وجمهور العالم من جميع الطوائف يقولون بأن كل ما سوى الله مخلوق كائناً بعد أن لم يكن وهذا قول الرسل واتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم وقد تكلم علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في أول هذه المخلوقات على قولين حكاهما أبو العلا الهمداني وغيره أحدهما أنه هو العرش والثاني أنه هو القلم ورجحوا القول الأول لما دل عليه الكتاب والسنة إن الله لما قدر مقادير الخلق بالقلم الذي أمره أن يكتب في اللوح كان عرشه على الماء فكان العرش مخلوقاً قبل القلم والواجب في الأدلة الإلهية أن يسلك هذا المسلك فيعلم أن كل كمال كان لمخلوق فالخالق أحق به فإن كمال المخلوق من كمال خالقه فإذا كان أحق بثبوت الكمال كان أحق بنفي النقص وهذه القضية برهانية يقينية وهم يسلمونها قال تعالى ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ الآية وإذا كان كذلك فمن

المعقول أن الفاعل الذي يفعل بقدرته ومشيئته أكمل ممن لا قدرة له ولا مشيئة له ولا إرادة له ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من الصفات وينفون عنه مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير رد على المعطلة والمقصود أن إثبات الأسماء والصفات لله لا يستلزم أن يكون سبحانه مشابهاً مماثلاً لخلقه ثم يقال ثانياً الذي جاء به الكتاب بأن الله مخصوص بالإلهية فلا إله إلا هو فهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه كما قال تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تتخذوا إلـهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ مثل هذا في القرآن كثير كقوله ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وقوله ﴿ أنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ وبالجملة فهذا أول ما دعى إليه الرسول ﷺ حيث قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وقال لعمه أبي طالب يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وقال لقنوا موتاكم لا إله إلا الله وكل هذه الأحاديث في الصحاح وهذا من أن أظهار ما يعلم من دين النبي ﷺ وهو توحيد الإلهية أن لا إله إلا هو والأقوال نوعان فما كان منصوصاً في الكتاب وجب الإقرار به على كل مسلم وما لم يكن له أصل في النص والإجماع لم يجب قبوله ولا رده حتى يعرف معناه وأما قوله وماسواه محدث فهذا حق والضمير فيما سواه عائداً إلى الله سبحانه وهو إذا ذكر اسم مظهراً أو مضمر داخل في مسماه اسم

صفاته فهو لا يخرج عن مسمى أسمائه فمن قال دعوت الله أو عبدته فهو إنما دعى الحي العليم القدير الموصوف بالعلم والقدرة وسائر صفات الكمال وأما قوله لأنه واحد ليس بجسم فإن أراد بالواحد ما أراد الله ورسوله مثل قوله ﴿ وإلهكم إله واحد﴾ ﴿وهو الله الواحد القهار﴾ فهذا حق وإن أراد بالواحد ما تريده الجهمية نفات الصفات من أنه ذات مجردة عن الصفات فهذا الواحد لا حقيقة له في الخارج وإنما يقدر في الأذهان لا في الأعيان ويمتنع وجود ذات مجردة عن الصفات ويمتنع وجود حي عليم في قدير لا حياة له ولا علم ولا قدرة فإثبات الأسماء دون الصفات سفسطة في العقليات وقهمطة في السمعيات إلى أن قال وتمام ذلك أن نقول إن الناس عليهم أن يؤمنون بالله ورسوله فيصدقوه فيماأخبر ويطيعوه فيما أمر فهذا أصل السعادة وجماعها والقرآن كله يقرر هذا الأصل قال تعالى ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ إلى قوله ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ فقد وصف الله سبحانه بالهدى والفلاح المؤمنين الموقنين في هذه الآيات وقال تعالى لما أهبط آدم من الجنة ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ﴾ إلى قوله تنسى فقد أخبر أن من اتبع الهدى الذي أتى منه وهو ما جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى وهو الذكر الذي أنزله وهو كتبه الذي بعث بها الرسل بدليل أنه قال بعد ذلك ﴿ كذلك اتتك آياتنا فنسيتها ﴾ إلى أن قال فالله سبحانه بعث الرسل بما يقتضي الكمال من إثبات أسمائه وصفاته على وجه التفصيل والنفي على طريق الإجمال للنقص والتمثيل والرب سبحانه موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها منزه عن النقص بكل وجه فيمتنع أن يكون له صفة مثل في شيء من صفات الكمال فأما صفات النقص فهو منزه عنها مطلقاً وأما صفات الكمال فلا

يماثله بل لا يقاربه فيها شيء من الأشياء والتنزيه يجمعه نوعان نفي النقص ونفى مماثلة غيره في صفات الكمال كما دل على ذلك سورة قل هو الله أحد وغيرها مع دلالة العقل على ذلك وإرشاد القرآن إلى ما يدل على ذلك من العقل بل لقد أخبر الله أن في الآخرة من أنواع النعيم ما ليس له شبه كأنواع المطاعم الملابس والمشارب والمناكح وغير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فحقائق تلك أعظم من حقائق هذه بما لا يعرف قدره وكلاهما مخلوق وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل إني أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فإذا كان هذان المخلوقان متفقين في الإسم مع أن بينهما تفاوت في الحقيقة وتباين لا يعرف قدره في الدنيا فمن المعلوم أن مايتصف به الرب من صفات الكمال مباينة الصفا خلقه أعظم من مباينة مخلوق لمخلوق ولهذا قال أعظم الخلق معرفة بالله في الصحيح لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال ما أصاب عبداً هم أو حزن قط فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكان حزنه فرحاً قال يا رسول الله أفلا نتعلمهنّ؟ قال بلا ينبغي لكل من سمعهن أن يتعلمهن وتبين أن لله اسماءاً استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك ولا نبي وأسمائه تتضمن صفاته ليست أسماء أعلام محضة كإسمه العليم والقدير والرحيم والكريم والمجيد والسميع والبصير وسائر أسمائه الحسنى سبحانه

وتعالى وهو سبحانه مستحق للكمال المطلق لأنه واجب الوجود بنفسه يمتنع العدم عليه ويمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق فالخالق الواجب بنفسه أحق بالكمال إلى أن قال فللرب سبحانه وتعالى الكمال على وجه التفصيل كما أخبرت به الرسل فإن الله أخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير وأنه عليم قدير عزيز حكيم غفور رحيم ودود مجيد وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويرضى عن المؤمنين الذين آمنوا أو عملوا الصالحات ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كلم موسى تكليماً وناداه وناجاه إلى غير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة وقال في التنزيه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ﴿هل تعلم له سمياً﴾ ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ إلى أن قال فاسمه الصمد يتضمن صفات الكمال كما روي عن ابن عباس أنه قال العليم الذي كمل في علمه والقدير الذي كمل في قدرته والسيد الذي كمل في سؤدده والشريف الذي كمل في شرفه والعظيم الذي كمل في عظمته والحليم الذي كمل في حلمه والحكيم الذي كمل في حكمته والذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد هو الله الذي هذه صفته والأحد يتضمن نفي المثل له والتنزيه الذي يستحقه من صفات الكمال له مع نفي مماثلة غيره له بجميع ذلك كما دلت عليه هذه السورة قال رحمه الله تعالى لما ذكر هذا الأمامي عن طائفته أنهم المصيبون في التوحيد دون غيرهم احتجنا إلى التنبيه على ذلك فنقول ما ذكره من لفظ الجسم وما يتبع ذلك فإن هذا اللفظ في صفات الله تعالى لم ينطق به لا كتاب ولا سنة لا نفياً ولا إثباتاً ولا تكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين وتابعيهم لا أهل البيت ولا غيرهم وأما قوله ولا أنه ليس في جهة

فيقال للناس في إطلاق الجهة ثلاثة أقوال فطائفة تنفيها وطائفة تثبتها وطائفة تفصل وهذا النزاع موجود في المثبتة للصفات من أصحاب الأئمة وأمثالهم من أهل الكتاب والسنة الخاصة في ذلك، وإثباته نزاع لفظي ليس هو معنوي وذلك أن لفظ الجهة قد يراد به ما هو موجود وقد يراد به ما هو معدوم ومن المعلوم أنه لا يوجد إلا الخالق والمخلوق فإذا أريد بالجهة أمر بوجود غير الله تعالى كان مخلوقاً والله تعالى لا يحصره ولا يحيط به شيء من المخلوقات فإنه باين من المخلوقات وإن أريد بالجهة أمر عدمي وهو ما فوق الفلك فليس هناك إلا الله سبحانه فإذا قيل أنه في جهة كان معنى الكلام أنه هناك فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليه وإذا كان كذلك فهو قد استدل على عدم الروية بكونه ليس في جهة وهذا الموضع تنازع فيه مثبتوا الروية فقال الجمهور بما دل عليه القول قوله ﷺ إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤيته وهذا الحديث منقول من طرق كثيرة مستفيض بل متواتر عند أهل العلم بالحديث اتفقوا على صحته مع أنه قد جاء من وجوه كثيرة وقد جمع طرقها أهل العلم بالحديث كأبي الحسن والدارقطني وأبي نعيم الأصبهاني وأبي بكر الأجرى وغيرهم وقد خرج أصحاب الصحيح كالبخاري ومسلم ذلك من وجوه متعددة توجب لمن كان عارفاً بها العلم القطعي بأن الرسول ﷺ قال ذلك وجمهور الخلق على أن الله تعالى فوق العالم وإن كان أحدهم لا يلفظ بلفظة الجهة فهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم أن ربهم فوقهم ويقولون إن هذا أمر فطروا عليه وجبلوا عليه كما قال الشيخ أبو الفضل الهمداني لبعض من أخذ ينكر الاستواء ويقولون لو استوى على العرش لقامت به الحوادث فقال له أبو الفضل ما معناه إن الاستواء علم بالسمع ولو لم يرد به لم نعرفه فدعنا من هذا وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فإن ما قال

عارف قط با الله إلا قبل ينطق لسانه يجد في قلبه معنى يطلب العلو لا يلتفت عنه يمنة ولا يسرة فهل عندك من حيلة في دفع هذه الضرورة عن قلوبنا فلطم المتكلم رأسه وقال حيرني الهمداني حيرني الهمداني ومضمون كلامه أن دليلك على النفي لو صح فهو نظري ونجد علماً ضرورياً بهذا فنحن مضطرون إلى العلم بالإثبات وإلى هذا القصد فهل عندك حيلة في دفع هذا العلم الضروري والقصد الضروري الذي يلزمنا لزوماً لا يمكننا دفعه عن أنفسنا قال رحمه الله تعالى وقد تقدم النقل عن الإمامية هل أفعال العباد خلق لله تعالى على قولين وكذلك الزيدية قال الأشعري اختلفت الزيدية في الأفعال وهم فرقتان الأولى يزعمون أن أفعال العباد مخلوقة لله خلقها وأبدعها واخترعها بعد أن لم تكن فهي محدثة له مخترعة والفرقة الثانية يزعمون أنها غير مخلوقة لله ولا محدثة وأنها كسب للعباد أحدثوها واخترعوها وفعلوها وأبدعوها بل غالب الشيعة الأولين كانوا مثبتين للقدر وإنما ظهر إنكاره في متأخريهم كإنكار الصفات فإن غالب متقدميهم كانوا يقرون بإثبات الصفات والمنقول عن أهل البيت في إثبات الصفات لا يكاد يحصى إلى أن قال الوجه الثاني أن يقال نقله عن الأكثرين أن العبد لا تأثير له في الكفر والمعاصي نقل باطل بل جمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون إن العبد فاعل لفعله حقيقة وإن له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية وهم لا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون إن القوى والطبايع الموجودة في الخارج لا تأثير لها بل يقولون أن لها أثر لفظاً ومعنى حتى أنه جاء لفظ الأثر في مثل قوله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم وإن كان التأثير هناك أعم منه في الآية لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب

في مسبباتها والله تعالى خالق السبب والمسبب ومع أنه خالق السبب والمسبب فلا بد له من سبب آخر يشاركه ولا بد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له بأن يخلق السبب الآخر ويزيل الموانع ولكن هذا القول الذي حكاه هو قول بعض المثبت للقدر كالأشعري ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد والشافعي حيث لا يثبتون في المخلوقات قوى ولا طبايع ويقولون إن الله فعل عندها لا بها ويقولون قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل وأبلغ من ذلك قول الأشعري إن الله فاعل العبد وإن فعل العبد ليس فعلاً للعبد بل كسباً له وإنما هو فعل الله فقط وجمهور الناس من أهل السنة من جميع الطوائف على خلاف ذلك وعلى أن العبد فاعل الفعلة حقيقة وأما ما نقله من نفي الغرض الذي هو الحكمة وكون الله لا يفعل لمصلحة العباد فهذا قول قليل منهم كالأشعري وطائفة يوافقونه في موضع ويناقضون قولهم في موضع آخر وجمهور أهل السنة يثبتون الحكمة في أفعال الله وأنه لنفع عباده ومصلحتهم وأما قوله وأنه تعالى يريد المعاصي من الكافر ولا يريد الطاعة منه فهذا قول طائفة منهم وهم الذين يقولون الإرادة نوعاً واحداً ويجعلون المحبة والرضا والغضب بمعنى الإرادة كما يقول ذلك الأشعري في المشهور عنه وأكثر أصحابه وطائفة ممن يوافقهم من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأما جمهور أهل السنة من جميع الطوايف وكثير من أصحاب الأشعري وغيرهم فيفرقون بين الإرادة والمحبة والرضى ويقولون وإن كان يريد المعاصي فهو لا يحبها ولا يرضاها بل يبغضها ويسخطها وينهي عنها وهؤلاء يفرقون بين مشيئته ومحبته وهذا قول السلف وقد ذكر أبو المعالي الجويني أن هذا قول القدماء من أهل السنة وأن الأشعري يخالفهم فجعل الإرادة هي المحبة فيقولون ماشاء الله كان وما لم يشاء لم يكن وكلما شاء فقد

خلقه وأما المحبة فمتعلقة بأمره فما أمر به فهو يحبه والمحققون يقولون الإرادة في كتاب الله نوعان إرادة شرعية دينية وإرادة كونية قدرية فالإرادة الشرعية الدينية هي المتضمنة للمحبة والرضا والكونية هي الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهذا كقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ وهذا كقوله ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ فهذه الآية تعلقت بالضلال والأغواء وهذه هي المشيئة فانه تعالى ما شاء كان وأما الدينية فكقوله تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وقوله ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ وقوله ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم ﴾ وقوله ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ فهذه الإرادة في هذه الآيات ليست هي بحيث يجب مرادها كما في قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وقول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن وهذا التقسيم في الإرادة قد ذكره غير واحد من أهل السنة وقد ذكروا أن المحبة والرضى ليست هي الإرادة الشاملة لكل المخلوقات كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أحمد وأبي حنيفة وغيرهما كأبي بكر عبد العزيز وغيره وإن كان طائفة يجعلون المحبة والرضى هي الإرادة والأولى أصح ثم قال رحمه الله تعالى بعد ذكر كلام صاحب المنازل وما فيه من حق وباطل.

قال باب التوحيد قال الله تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو
قال والتوحيد على ثلاثة أوجه .

الأول: توحيد العامة الذي يصبح بالشواهد.

والثاني: توحيد الخاصة وهي الذي يثبت الحقائق.

والتوحيد الثالث: توحيد قائم بالقديم وهو توحيد خاصة الخاصة إلى آخره.

قال رحمه الله تعالى فنقول أما التوحيد الأول الذي ذكره هو التوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وبه بعث الله الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . قال سبحانه ﴿ واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدون﴾ وقال عز من قائل ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ۝ وقال ﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقد أخبر الله عن كل من الرسل مثل نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم أنهم قالوا لقومهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهذا أول دعوة الرسل وآخرها قال النبي ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وقال في الصحيح من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة والقرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد والدعوة إليه وتعليق النجاة والفلاح بحصوله ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه وحقيقته إخلاص الدين كله والغنا في هذا التو حيد مقرون بالبقاء وهو أن تثبت إلهية الحق في قلبك وتنفي إلهية ماسواه فتجمع بين النفي والإثبات فتقول لا إله إلا الله فالنفي

هو الفنا والإثبات هو البقاء وحقيقته أن تغني بعبادته عما سواه وبمحبته عن محبة ماسواه وبالاستعانة به عن الاستعانة بما سواه وبخشيته عن خشية ماسواه وبطاعته عن طاعة ماسواه وبموالاته عن موالاة ماسواه وبسؤاله عن سؤال ماسواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ماسواه وبالتفويض إليه عن التفويض إلى ماسواه وبالإنابة إليه عن الإنابة إلى ماسواه وبالتحكم إليه عن التحاكم إلى ماسواه وبالتخاصم إليه عن التخاصم إلى ماسواه كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قام يصلي.

وقد روى أنه كان يقوله بعد التكبير اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق اللهم لك أسلمت وبك أمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ذنوبي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .. وقال تعالى ﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ﴾ وقال ﴿ أفغير الله تبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾ وقال تعالى ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ وقال تعالى ﴿ قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وهذا التوحيد كثير في القرآن وهو أول الدين وآخره وظاهره وباطنه وذروة سنام هذا التوحيد لأولى العزم من الرسل للخليلين محمد وابراهيم فقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال إن الله اتخذني

خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ ابراهيم كما في الصحيح أنه قال عن خير البرية أنه ابراهيم وهو الإمام الذي جعله الله إماماً وهو الأمة والأمة القدوة الذي يقتدى به لأنه حقق التوحيد وهو الحنيفية ملة إبراهيم قال تعالى ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم أنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله﴾ إلى قوله ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ إلى غير ذلك من الآيات الحاكية توحيد إبراهيم الخليل والخليل هو الذي تخللت محبته خلال قلبه فلم يكن فيه مسلك لغيره كما قيل

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمى الخليـــل خليـــلا

ولما كانت الخلة تستلزم كمال المحبة واستيعاب القلب لم يصلح للنبي ﷺ أن يخالل أحداً بل قال لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله ولهذا امتحن الله إبراهيم بذبح ولده والذبيح على القول الصحيح ابنه الكبير اسماعيل كما دلت عليه سورة الصافات وغير ذلك فانه سئل ربه أن يهب له من الصالحين فبشره بالغلام الحليم اسماعيل فلما بلغ معه السعي أمره أن يذبحه لئلا يبقى في قلبه محبة مخلوق تزاحم محبة الخالق والمقصود أن الخليلين أكمل خاصة والخاصة توحيداً فلا يجوز أن يكون في أمة محمد ﷺ من هو أكمل توحيداً من نبي من الأنبياء فضلاً عن الرسل فضلاً عن أولى العزم فضلاً عن الخليلين وكمال توحيدهما التحقيق أفراد الألوهية وهو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً بل يبقى العبد موالياً لله في كل شيء يحب ما أحبه ويبغض ما أبغضه ويسخط بما يسخطه ويأمر بما يأمر به وينهي عما ينهي عنه.

وأما التوحيد الثاني الذي ذكره وسماه توحيد الخاصة فهو الفناء في توحيد

الـربـوبـيـة وهـو أن يشـهـد ربوبية الرب لكل ماسواه وهو أنه رب كل شيء ومليكه والـفـنـاء إذا كـان في تـوحـيـد الإلهية وهو أن يستولي على القلب شهود معبودة وذكره ومحبتـه حتـى لا يحس بشيء آخـر مـع الـعـلـم بثبوت ما أثبته من الأسباب والحكم وعبـادتـه وحـده لا شريك له بالأمر والنهي وأما الفنا الذي يذكره صاحب المنازل فـهـو الـفـنـا في تـوحـيـد الـربـوبـيـة لا في تـوحـيـد الألـوهـيـة وهـو يـثـبـت الـربوبية مع نفي الأسباب والحكم كما هـو قـول الجبريـة المجبرة كالجهم ومن تبعه والأشعري إلى أن قـال وأهـل الملل كـلـهـم مـتـفـقـون على أن الله تـعـالى يـثـيـب على الطاعات

ويعاقب على المعاصي وإن كانت المعصية شاملة للنوعين فهم يسلمون الفرق بالنسبة إلى العباد والمدعون للمعرفة والحقيقة والفنا يطلقون أن لا يكون لهم مراد بل يريدون مايريد الحق تعالى فيقولون الكمال أن تفنى عن إرادتك وتبقى مع إرادة ربك وعندهم أن جميع الكائنات بالنسبة إلى الرب سواء فلا يستحسنون حسنة ولا يستقبحون سيئة قلت وهذا الذي قالوه ممتنع عقلاً محرم شرعاً لكن المقصود هنا بيان قولهم ولهذا قال في توحيدهم وهو التوحيد الثاني أنه إسقاط الأسباب الظاهرة فإن عندهم لم يخلق الله شيئاً سبباً بل يفعل عنده لأنه قال والصعود عن منازعات العقول وعن التعلق بالشواهد وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً ولا في التوكل سبباً ولا في النجاة وسيلة وذلك عندهم ليس في الوجود شيء يكون سبباً لشيء أصلاً ولا لشيء جعل لأجل شيء ولا يكون شيء بشيء فالشبع عندهم لا يكون بالأكل ولا العلم الحاصل في القلب بالدليل ولا ما يحصل للمتوكل من الرزق والنصر له سبب أصلاً لا في نفسه ولا في نفس الأمر ولا الطاعات عندهم سبب للثواب ولا المعاصي سبب للعقاب فليس للنجاة وسيلة بل محض الإرادة الواحدة يصدر عنها كل حادث ويصدر مع الآخر مقروناً به اقتراناً عادياً لأن أحدهما معلق بالآخر أو سبب له أو حكمة له لأجل ماجرت به العادة من اقتران أحدهما

بالآخر يجعل أحدهما إمارة ودليلاً على الآخر بمعنى أنه إذا وجد أحد المقترنين عادة كان الآخر موجوداً معه وليس العلم الحاصل في القلب حاصلاً بهذا الدليل بل هذا أيضاً من جملة الاقترانات العادية وكثير من أهل هذا المذهب يتركون الأسباب الدنيوية ويجعلون وجود السبب كعدمه ومنهم قوم يتركون الأسباب الآخروية فيقولون أن سبق العلم والحكم أنا سعداء فنحن سعداء وإن سبق أنا أشقياء فنحن أشقياء فلا فائدة في العمل ومنهم من يترك الدعاء بناء على هذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين مخالف لصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة وقد سئل النبي ﷺ عن إسقاط الأسباب نظراً إلى القدر فرد ذلك كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل و نتكل على الكتاب قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي الصحيح أنه قيل يا رسول الله أرأيت يا رسول الله ما يكدح فيه اليوم أشيء قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلونه مما أتاهم فيه الحجة فقال بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل أو نتكل على كتابنا قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن عنه ﷺ أنه قيل له أرأيت أدوية نتداوى بها ورقاً نسترق بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله وقال تعالى ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات وقال تعالى ﴿ وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعدموتها ﴾ وقال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ فكيف لا يشهد الدليل قال تعالى ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ وقال تعالى

﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ وقال تعالى ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وقال تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ وقال تعالى ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ وأمثال ذلك في القرآن كثير فكيف يمكن أن يشهد أن الله لم يجعل على توحيده دليلا ولا للنجاة من عذابه وسيلة ولا جعل لما يفعله بالمتوكل سبباً وهو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه لكن الأسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج ابن الجوزي الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع والتوكل يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع فالمؤمن المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها فانه ليس في الوجود سبب ليتنقل بحكم بل كل سبب مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه وله موانع وعوائق تمنع موجبه وماثمه والعلل التي تتقى نوعان أحدهما أن يعتمد على الأسباب ويتوكل عليها وهذا شرك الثاني أن تترك ما أمرت به من الأسباب وهذا محرم أيضاً عليك بل عليك أن تعتمده بفعل ما أمرك به من الأسباب وعليك أن تتوكل عليه في أن يعينك على ما أمر به وأن يفعل هو ما لا تقدر عليه أنت بدون تسبب منك وهؤلاء أثبتوا القدر ونفوا عمن شاهده أن يستحسن حسنة يأمر بها أو يستقبح سيئة ينهي عنها فأثبتوا القدر وأبطلوا الشرع وهذا القول أشد منافاة لدين الإسلام من قول نفاة القدر إلى أن قال قال صاحب المنازل

فصـــل

وأما التوحيد الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه إلى آخر كلامه وحقيقة قول هؤلاء الإلحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح وهو أن يكون الموحد هو الموحد ولا يوحد الله إلا الله وكل من جعل غير الله يوحد الله فهو جاحد عندهم كما قال ما وحد الواحد من واحد أي من واحد غيره . فكل من وحده جاحد فانه على قولهم هو الموحد والموحد ولهذا قال هو توحيد اختصه الحق لنفسه الخ فيقال أما توحيد الحق نفسه بنفسه وهو علمه بنفسه وكلامه الذي يخبر به عن نفسه كقوله شهد الله أنه لا إله إلا هو وقوله أنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون فذلك صفته القائمة به كما تقدم ساير صفاته من حياته وقدرته وغير ذلك وذلك لا يفارق صفات الرب وينتقل إلى غيره أصلاً كساير صفاته بل صفات المخلوق لا تفارق ذاته ولا تنتقل إلى غيره فكيف بصفات الخالق ولكن هو سبحانه ينزل على أنبيائه من علمه وكلامه ما أنزل كما أنزل القرآن وهو كلامه على خاتم الرسل وقد قال تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط فهو سبحانه يشهد لنفسه بالوحدانية والملائكة يشهدون وأولوا العلم من عباده يشهدون والشهادات متطابقة متوافقة ومن هذا الباب قول القائل بيت الرب وما يذكرونه من الإسرائيليات من قوله ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي اللين فليس المراد أن الله نفسه يكون في قلب كل عبد له بل في القلب معرفته ومحبته وعبادته وقد احتج بعضهم بقول النبي ﷺ فإذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد فإن الله قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده فيقال لهم النبي ﷺ لم يرد ما أردتم من الحلول

والاتحاد ولكن أراد أن يبلغكم هذا الكلام على لسان رسوله وأخبركم أنه سمع دعاء من حمده فاحمدوه أنتم وقولوا ربنا ولك الحمد حتى يسمع الله دعاءكم فان الحمد قبل الدعاء سبب لاستجابة الدعاء وهذا أمر معروف ثم ذكر الشيخ قدس الله روحه في هذا الرد ما ذمه الله في كتابه من اختلاف اليهود والنصارى فقال والاختلاف في كتاب الله على وجهين أحدهما أن يكون من كله مذموماً كقوله تعالى ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق﴾ والثاني أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل كقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ إلى قوله ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ ثم قال ومن هذا الباب أي الاختلاف المذموم قوله تعالى ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ وقد روى عن ابن عباس أنه قال اختصمت يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي ﷺ فقالت اليهود ليست النصارى على شيء ولا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً وكفر بالإنجيل وعيسى وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ولا يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً وكفر بالتوراة وموسى فأنزل الله هذه الآية والتي قبلها واختلاف أهل البدع هو من هذا النمط كالخارجي يقول ليس الشيعي على شيء والشيعي يقول ليس الخارجي على شيء والقدري النافي يقول ليس المثبت على شيء والقدري الجبري يقول ليس النافي على شيء والوعيدية يقولون ليست المرجئة على شيء والمرجئة تقول ليست الوعيدية على شيء والكلابي يقول ليس الكرامي على شيء والكرامي يقول ليس الكلابي على شيء والأشعري يقول ليس السالمي على شيء والسالمي يقول ليس الأشعري على شيء. وصنف السالمي كأبي على الأهوازي كتاباً في مثالب الأشعري وصنف الأشعري

كابن عساكر كتاباً يناقض ذلك من كل وجه وذكر فيه مثالب السالمية وكذلك أهل المذاهب الأربعة لاسيما وكثير منهم قد تلبس ببعض المقالات الأصولية وخلط هذا بهذا والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له وطاعة رسوله يدور على ذلك ويبتغيه أين وجده ويعلم أن أفضل الخلق هم الصحابة فلا ينتصر لشخص انتصاراً عاماً مطلقاً إلا للرسول ﷺ ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً إلا للصحابة فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار ومع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ بل كل قول قالوه ولم يقله غيرهم من الأئمة لا يكون الاخطاء فإن الذي بعث الله به رسوله ليس مسلماً إلى عالم واحد وأصحابه ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيراً لرسوله ﷺ وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول قبل وجود المتبوعين الذين تنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع ويمتنع أن يكون هؤلاء جاؤا بحق يخالف ما جاء به الرسول فإن كل ما خالف الرسول ﷺ فهو باطل ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة فلا بد أن يكون قوله حقاً مأخوذاً عن ما جاء به الرسول ﷺ موجوداً قبله وكل قول قيل في دين الإسلام مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه فهو قول باطل والمقصود هنا أن الله ذكر أن المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وإنما اختلفوا بغياً بينهم ولهذا ذمهم وعاقبهم فإنهم لم يكونوا مجتهدين مخطئين بل كانوا قاصدين البغي عالمين بالحق ونظير

هذا قوله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ قال الزجاج اختلفوا للبغي لا لقصد البرهان وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ إلى قوله ﴿ والله ولي المتقين ﴾ فهذه المواضع من القرآن تبين أن المختلفين ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم والبينات فاختلفوا للبغي والظلم لا لأجل اشتباه الحق بالباطل عليهم وهذا حال أهل الاختلاف المذموم كل منهم يبغي على الآخر فيكذب ما معه من الحق مع علمه أنه حق ويصدق بما مع نفسه من الباطل مع العلم بأنه باطل وهؤلاء كلهم مذمومون في الكتاب والسنة فإن ما منهم إلا من خالف حقاً واتبع باطلاً ولهذا أمر الله الرسل أن تدعوا إلى دين واحد وهو دين الإسلام ولا يتفرقوا فيه وهو دين الأولين والآخرين من الرسل واتباعهم قال تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي كتباً تبع كل قوم كتاباً مبتدع غير كتاب الله فصاروا متفرقين مختلفين لأن أهل التفرق والاختلاف ليسوا على الحنيفية المحضة التي هي الإسلام المحض الذي هو إخلاص الدين لله الذي ذكره في قوله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة

الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ إلى قوله ﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ فنهاه أن يكون من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وأعاد حرف من ليتبين أن الثاني بدل من الأول والبدل هو المقصود بالكلام وما قبله توطئه له وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلفوا فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ إلى قوله ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون وقد ذكروا في موضع آخر أن دين الأنبياء كلهم الإسلام كما قال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ وقال عن ابراهيم ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني أن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ وقال ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ وقال عن السحرة ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ وقال عن يوسف ﴿ فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين ﴾ وقال عن بلقيس ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون ﴾ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحداً وهو الإسلام كالدين الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه دين الإسلام أولا وآخراً وكانت القبلة في اول الامر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة وفي كلا الحالين الدين واحد وهو دين

الإسلام وهكذا سائر ما شرع للأنبياء قبلنا ولهذا جعل الله الحق في القرآن جعله واحداً وجعل الباطل متعدداً كقوله تعالى ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وقوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ السورة وقوله ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ وقوله ﴿ اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ وقوله ﴿ يهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ وقوله ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ وهذا يطابق ما في كتاب الله من أن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي قيل فيه ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل كما قال تعالى ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في حمزة عم رسول الله ﷺ وعلي ابن عمه وعبيدة بن الحارث ابن محمد والمشركين الذين بارزوهم عتبة وشيبه والوليد بن عتبة وقد تدبرت كتب الاختلاف التي تذكر فيها مقالات أما نقلاً مجرداً مثل كتاب المقالات للأشعري وكتاب الملل والنحل للشهريستاني ولأبي عيسى الوراق أو مع انتصار لبعض الأقوال كسائر ماصنفه أهل الكلام على اختلاف طبقاتهم فرأيت عامة الاختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم وأما الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وكان عليه سلف الأمة فلا يوجد فيها في جميع مسائل الاختلاف بل يذكر أحدهم في المسألة عدة أقوال والقول الذي جاء به الكتاب والسنة لا يذكرونه وليس ذلك لأنهم يعرفونه ولا يذكرونه بل لأنهم لا يعرفونه ولهذا كان السلف والأئمة يذمون هذا الكلام ثم أشار إلى قول الفلاسفة واختلافهم في مقالاتهم وأنه لا يختصه أحد لكثرته إلى أن قال والمقصود أنّ كتب أهل الكلام يستفاد منها وبعضهم على بعض وهذا لا يحتاج إليه من لا يحتاج إلى

رد المقالة الباطلة لكونها لم تخطر على قلبه ولا هناك من يخاطبه ولا يطالع كتاباً هي فيه ولا ينتفع به من لم يفهم الرد قد يستنصر به من عرف الشبهة ولم يعرفوا فسادها ولكن المقصود هنا أن هذا هو العلم الذي في كتبهم فإنهم يردون باطلاً بباطل وكلا القولين باطل ولهذا كان مذموماً ممنوعاً منه عند السلف والأئمة وبكل حال فهم يذكرون من عيوب باطل غيرهم وذمه بما ينتفع به وبأمثاله ذلك تنازعهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد فالخوارج والمعتزلة يقولون صاحب الكبائر الذي لم يتب منها مخلد في النار ليس معه شيء من الإيمان ثم الخوارج تقول هو كافر والمعتزلة توافقهم على الحكم لا على الاسم والمرجئة تقول هو مؤمن كامل الإيمان لا نقص في إيمانه بل إيمانه كإيمان الأولياء والأنبياء وكثير من متكلمه المرجئة تقول لا يعلم أن أحداً من أهل القبلة من أهل الكبائر يدخل النار ولا أن أحداً لا يدخلها بل يجوزان يدخلها جميع الفساق ويجوز أن لا يدخلها أحد منهم ويجوز دخول بعضهم ويقولون من أذنب وتاب لا يقطع بقبول توبته بل يجوز أن يدخل النار أيضاً فهم يقفون في هذا كله ولهذا سموا الواقفة وهذا قول القاضي أبي بكر وغيره من الأشعرية وغيرهم فيحتج أولئك بنصوص الوعيد وعمومها ويعارضهم هؤلاء بنصوص الوعيد وعمومها إلى أن قال وعند الجهمية الإيمان مجرد تصديق القلب وعمله وهذا قول جهم والصنابجي والأشعري في المشهور عنه وأكثر أصحابه وعند فقهاء المرجئة هو قول اللسان مع تصديق القلب وعلى القولين أعمال القلب ليست من الإيمان إلى أن قال وأما أهل السنة والحديث من الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين فآمنوا بالكتاب كله ولم يحرفوا شيئاً من النصوص وقالوا نحن نقول ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ويقولون الله خالق كل شيء وربه ومليكه وكل ما سواه مخلوق له

حادث بمشيئته وقدرته لا يكون في ملكه ملكاً ما لم يشاه ويخلق فلا يقدر أحد أن يمنع الله عما أراد أن يخلقه ويكونه فإنه الواحد القهار ما يفتح الله للناس من رحمه فلا يمسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وقالوا إن الله يأمر بالإيمان والعمل الصالح وينهي عن الكفر والفسوق والعصيان ويحب كل ما أمر به ويرضاه ويكره كل ما نهى عنه ويسخطه وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر قالوا وليس كل ما أمر العباد وأراد منهم أن يفعلوه أراد هو أن يخلقه لهم ويعينهم عليه بل أعانتهم على الطاعة لمن أمره بها فضل منه كسائر النعم وهو يختص برحمته من يشاء وقد قال سبحانه

ألا له الخلق والأمر فالرب خالق كل شيء وكل ما خلقه فهو بإرادته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما لم يكن لم يرد أن يخلقه وما كان فقد أراد أن يخلقه وهو لا يريد إلا ما سبق علمه بأنه سيخلقه فان العلم يطابق المعلوم وقد أمر عباده بالحسنات التي تنفعهم ونهاهم عن السيئات التي تضرهم والحسنات محبوبة لله مرضية والسيئات مكروهة له يسخطها ويسخط على أهلها وإن كان الجميع مخلوقاً له فإنه خلق جبريل وإبليس وهو يحب جبريل ويبغض إبليس وخلق الجنة والنار والظلمات والنور والظل والحرور والموت والحياة والذكر والأنثى الأعمى والبصير قال ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات وقال أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ وقال أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار وقد خلق الطيبات والخبائث وليس الطيبات كالخبائث وليس الفواكه والحبوب كالعذرة والبول وهو سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح وهو طيب لا يقبل إلا طيباً وهو نظيف يحب النظافة وجميل يحب الجمال وليس كلما

خلقه يصعد إليه ويكون محبوباً له مرضياً عنده وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان قال رجل يا رسول الله الرجل يحب أن يكون نعله حسنا وثوبه حسنا أفمن الكبر ذاك قال لا إن الله سبحانه جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس وقوله جميل يحب الجمال أي يحب أن يتجمل العبد له ويتزين كما قال تعالى ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ وهو يكره أن يصلي الرجل عرياناً بل يكره أن تصلي المرأة مكشوفة الرأس وقد قال ﷺ لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار ولهذا كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ويقولون إن الله أمرنا بهذا قال تعالى ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ فتحسين النعل والثوب لعبادة الله تعالى من الجمال الذي يحبه الله والمقصود هنا ذكر ما يحبه الله ويرضاه وهو الذي يثاب أصحابه عليه إلى أن قال رحمه الله تعالى والله أرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط وقال تعالى ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وقال ﴿ أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ وقال تعالى ﴿ فان جاؤك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ فأمره أن يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله فدل ذلك على أن القسط هو ما أنزل الله فما أنزل الله هو القسط ولهذا وجب على كل من حكم بين اثنين أن يحكم بالعدل لقوله تعالى ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ فليس لحاكم أن يحكم بظلم أبداً والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم أصلاً بل حكم الله أحسن الحكم والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج فيكون

العدل في كل أشرعة بحسبها ولهذا قال ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله إلى قوله تعالى ﴿ لكل جعلنا شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم ﴾ إلى قوله ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ ذكر سبحانه حكم التوراة والإنجيل ثم ذكر أنه سبحانه أنزل القرآن وأمر نبيه أن يحكم بالقرآن ولا يتبع أهوائهم عما جاءه من الكتاب وأخبر أنه جعل لكل نبي من الأنبياء شرعه ومنهاجاً . فجعل لموسى وعيسى ما في التوراة والإنجيل من الشرعة والمنهاج وجعل للنبي ﷺ ما في القرآن من الشرعة والمنهاج وأمره أن يحكم بما أنزل الله وأخبره أنه من ابتغى غيره فقد ابتغى حكم الجاهلية وقال تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ولا ريب أنَّ من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدل من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم العدل وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم بل كثير من المنتسبين للإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله كسوالف البادية وكأوامر الطواغيث ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية لهم التي يأمر بها الطاغوت فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار وإلا فهم كانوا جهالاً كمن تقدم أمرهم وقد أمر الله المسلمين كلهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول فقال تعالى ﴿ أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون ﴾ بالآية

وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ﴾ الآية فمن لم يلتزم بحكم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن وأما من كان ملتزماً بحكم الله ورسوله باطناً وظاهراً لكان عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة والمقصود أن الحكم بالعدل واجب مطلقاً في كل زمان ومكان على كل أحد ولكل أحد والحكم بما أنزل على محمد هو عدل خاص وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها والحكم به واجب على النبي ﷺ وعلى من اتبعه ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتيادية والعملية قال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ وقال ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ فالأمور المشتركة بين الأمة لا يحكم فيها إلا الكتاب والسنة ليس لأحد أن يلزم الإنسان لقول عالم ولا أمير ولا شيخ ولا ملك ومن اعتقد أن يحكم بين الناس شيء من ذلك ولا يحكم بينهم بالكتاب والسنة فهو كافر إلى أن قال رحمه الله تعالى وقد قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه ﴾ الآية قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة والله تعالى أمر المؤمنين كلهم أن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يتفرقوا وقد فسر حبله بكتابه وبدينه وبالإسلام وبالإخلاص وبعهده وبأمره وطاعته وبالجماعة وهذه كلها منقولة عن الصحابة والتابعين لهم باحسان .فان القرآن يأمر بدين الإسلام

وذلك هو عهده وطاعته وأمره والاعتصام به إنما يكون في الجماعة ودين الإسلام حقيقة الإخلاص وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال أن الله يرضى لكم ثلاثة أن تعبدوه ولا تشركوا به وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تُناصحوا من ولاه الله أمركم.

فصل

وأما قوله عن أهل السنة أنهم يقولون أن النبي ﷺ لم ينص على إمامة أحد فإنه مات عن غير وصية.

فالجواب يقال ليس هذا قول جميعهم بل قد ذهب طوائف من أهل السنة إلى أن إمامة أبي بكر ثبتت بالنص والنزاع في ذلك معروف في مذهب أحمد وغيره وقد ذكر القاضي أبو يعلى في ذلك روايتين عن أحمد إحداهما أنها ثبتت بالاختيار قاله جماعة من أهل الحديث وبكر بن أخت عبد الواحد وقال شيخه أبو عبدالله بن حامد فأما الدليل على استحقاق أبي بكر الخلافة دون غيره من أهل البيت والصحابة فمن كتاب الله وسنة نبيه قال واختلف أصحابنا في الخلافة هل وجدت من حيث النص والاستدلال فذهب طائفة من أصحابنا إلى أن ذلك بالنص وأنه ﷺ ذكر ذلك نصاً وقطع البيان على عينه حتماً ومن أصحابنا من قال ذلك بالاستدلال الجلي قال ابن حامد والدليل على إثبات ذلك أخبار فمن ذلك ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم قال أتت امرأة إلى النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه فقالت أرأيت إن جئت فلم أجدك قال كأنها تريد الموت قال فإن لم تجديني فائت أبا بكر وذكر سياقاً آخر وأحاديث أُخر قال وذلك نص على إمامته قال وحديث سفيان عند عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة بن اليمان قال

قال رسول الله ﷺ اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر قال وأسند البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول بينا أنا بين النائم واليقظان رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب فلم أر عبقرياً يعرفون ثم ضرب الناس بعطن قال وذلك نص في الإمامة قال ويدل عليه ما أخبرنا أبو بكر وروى عن مسند أحمد عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ أيكم رأى رؤيا فقلت أنا رأيت يا رسول الله كان ميزاناً من السماء فتوزنت بأبي بكر فرجحت بأبي بكر ثم وزن أبو بكر بعمر فرجح أبو بكر بعمر ثم وزن عثمان ثم رفع الميزان فقال رسول الله ﷺ خلافه نبوة ثم يؤت الله الملك من يشاء قال ومن ذلك حديث صالح بن كيسان عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت دخل على رسول الله ﷺ اليوم الذي بدى به فيه فقال ادعى لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً ثم قال أبى الله والمسلمون إلا أبا بكر وفي لفظ فلا يطمع في هذا الأمر طامع وهذا الحديث في الصحيح ورواه طريق أبي داود الطيالسي عن أبي مليكه عن عائشة قالت لما ثقل رسول الله ﷺ قال ادعى لي عبد الرحمن بن أبي بكر لأكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه الناس ثم قال معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر وذكر أحاديث تقديمه في الصلاة وقال أبو محمد بن حزم في كتابه في الملل والنحل اختلف الناس في الإمامة بعد رسول الله ﷺ فقالت طائفة أن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً ثم اختلفوا فقال بعضهم لما استخلف أبا بكر على الصلاة كان دليلاً على أنه أولى بالإمامة والخلافة على الأمر وقال بعضهم لا ولكن كان أثبتهم فضلاً فقدموه لذلك وقالت

طائفة بل نص رسول الله ﷺ على خلافة أبي بكر على أمور الناس نصاً جلياً قال أبو محمد وبهذا نقول لبراهين أحدها إطباق الناس كلهم وهم الذين قال الله فيهم ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ فقد اتفق هؤلاء الذين شهد الله عليهم بالصدق وجميع أخوانهم من الأنصار رضي الله عنهم أن سموه خليفة رسول الله ﷺ قال شيخ الإسلام رحمه الله وحينئذ قد بطل قدح الرافضي في أهل السنة بقوله أنهم يقولون أن النبي ﷺ لم ينص على إمامه وإنه مات من غير وصيه والتحقيق أن النبي ﷺ دل المسلمين على خلافة أبي بكر وأرشدهم إليها بأمور متعددة من أقواله وأفعاله وأخبر بخلافته أخبارُ راضي بذلك حامد له فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه النبي ﷺ بياناً قاطعاً فخلافة أبي بكر دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضي الله ورسوله بها وانعقد بمتابعة المسلمين له واختيارهم له اختيار اشتدوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله انتهى ... والله أعلم ... وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه،، وسلم تسليماً كثيراً ... والحمدلله رب العالمين ٢٨ ص ١٢٨٣ هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم هذه جواب أسئلة وردت على شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن وفقنا الله وإياه للصواب:

السؤال الأول: عن حديث كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

فالجواب: الحديث عام في كل بدعة وهي التي ليس لها أصل في كتاب الله ولا سنة رسول الله ولا فعلها أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان فهذا ضابط لها في الجملة والبدع كثرت في أواخر القرون الثلاثة لما افترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة وكلها في النار إلا واحدة كما ورد من طرق وفي حديث العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال أوصيكم بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وقد ذكر النبي ﷺ لأصحابه بعض البدع كبدعة الخوارج والقدرية وغيرهما وأخبر بما سيقع منها جملة كقوله خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون وهي البدع والمحدثات وهي التي لم يفعلها النبي ﷺ ولا أمر بها ولا فعلها الصحابة ولا التابعون مع توفر دواعيهم على نقل السنن ولهذا قال في الحديث في حال الخلوف فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل وهذا معنى قول الله تعالى أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولهذا كثر الشرك في الأمة بعباده الأموات وبناء المساجد على القبور والإلحاد في أسماء الله وصفاته ومازال أهل السنة يصنفون في الرد على

أهل البدع بنصوص الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة كالإمام أحمد رحمه الله تعالى ومن قبله من علماء الحديث والفقه كأبي حنيفة ومالك وابن المبارك وأبي بكر المرذوي بعد الإمام أحمد وابنه عبدالله والخلال وعثمان بن سعيد الدارمي وإمام الأئمة محمد بن خزيمة في كتاب التوحيد واللالكاي والدارقطني والبخاري في صحيحه وفي أفعال العباد وغير هؤلاء مما لا يمكن حصرهم ولقد أحسن من قال:

والناس في هذا ثلاث طوائف ... ما رابع أبداً بذي إمكان
إحدى الطوائف مشرك بإلاهه ... فإذا دعاه دعى إلها ثان
هذا وثانيهما فذلك جاحد ... فإذا دعاه دعى سوى الرحمن
هو جاحد للرب يدعو غيره ... شركاً وتعطيلاً له قدمان
هذا وثالث هذه الأقسام ... غير الخلق ذاك خلاصة الإنسان
يدعو الإله الحق لا يدعوا ... شيئاً سواه قط في الأكوان
يدعوه في الرغبات والرهبات ... والحالات من سر ومن إعلان

قلت وقد عمت البلوى بالطائفتين الأوليتين فملؤ الأرض شركاً وتعطيلاً وتأويلاً حتى اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير حتى أظهر الله نور الإسلام والإيمان بدعوة من قام بالقرن الثاني عشر وهو شيخ الإسلام محمد إبن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فأظهر كتب أهل السنة ونشرها بعد أن كانت مهجورة فظهر العلم بعد خفائه فلله الحمد على ظهور الحق وتمييز الحق من الباطل فلا يميز البدع من السنن إلا من رزقه طلب الحق بجهده وطلب كتب أهل السنة وتأمل أدلة الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ومن أشنع البدع بدعه الرافضة ببناء المساجد على قبور أهل البيت وهم أول من أحدثها وعبدها كما أحدثت الجهمية الإلحاد في الأسماء والصفات وهي

من أشنع البدع ثم ظهرت بدعة الفلاسفة بسبب ابن سيناء والفارابي وهو أعظم البدع ومثلها بدعة أهل الوحدة أحدثها الحلاج فقتل لأجل ذلك ثم صارت إلى ابن عربي وابن سبعين ومن وسائل الشرك قصد القبور للدعاء عندها رجاء الإجابة قال شيخ الإسلام ذلك بدعة لا قربه باتفاق الأئمة وقد ذكرنا الضابط فيما تقدم وهو يغني عن تعدادها لما في ذلك من التطويل وأما قول السائل فإن كان الحديث على ظاهره فما معنى قوله من سن في الإسلام سنة حسنة فله مثل أجرها وأجر من عمل بها الحديث بالمعنى أنه من سبق إلى سنة وفعلها وتبعه غيره فله مثل أجره كالنفقة في الجهاد في سبيل الله مثلاً والصدقة على المحتاج من المسلمين ونحو ذلك وكذلك إذا كانت السنن مهجورة فأراد إحيائها كما كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا أراد أن يحيي سنة قد تركت في خلافه من قبله وعرف أنه يثقل إحيائها على بعض الناس أخرج العطاء لعلهم إذا نفروا من إحيائها سكنوا إلى ما أعطوا من الدنيا فمن أحياها فله مثل أجر من فعلها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ورد ورد الترغيب في إحياء ما أميت من السنن وإن من تمسك بالسنة عند فساد الزمان فله أجر خمسين من الصحابة رضي الله عنهم لصبره على أذى من يخالفه من أهل البدع وقله المعين والناصر وأما قوله في الفرقة الأمامية الاثني عشرية اكفار أم مبتدعون الخ.

فالجواب أما تلقيب الشيعة أنفسهم بالأمامية فهذا اللقب لا يصدق عليهم بل الذي يصدق عليهم أنهم رافضة لرفضهم الحق ومخالفتهم أهل السنة والغالب عليهم الغلو في أهل البيت وبناء المساجد على القبور وعبادتها من دون الله تعالى والغلو هو أصل الشرك وقد قال النبي ﷺ إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو وقال ﷺ لعنة: الله على اليهود والنصارى اتخذوا

قبور أنبيائهم مساجد وقد نهى الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه أن يدعي معه غيره كما قال تعالى ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ وقال تعالى ﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته﴾ فاذا كان النبي ﷺ لا يملك لأحد ضرا ولا رشدا فكيف يعتقد في غيره أنه يضر وينفع ويقصد بما نهى الله عنه من دعائه الذي لم يجعل لأحد غيره فيه نصيبا كما قال تعالى ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك من الظالمين﴾ وقال تعالى ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ وقال تعالى ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ الآية وقال ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح الكافرون﴾ والآيات في النهي عن دعوة غير الله والوعيد على ذلك أكثر من أن تحصر فترك الرافضة كغيرهم ما دل عليه القرآن من النهي عن دعوة غير الله وارتكبوا ما نهى الله عنه واعتقدوا هذا الشرك العظيم من أعظم القربات فتضرعوا عند أرباب القبور وعظموها بما لم يسبقوا لمثله من التعظيم وبذلوا لأرباب القبور نفايس الأموال وأوقفوا لهم الأوقاف تقرباً إليهم ونحروا لهم النحائر وذبحوا لهم الذبائح وعظموا الدنة تعظيماً لصاحب القبر وأعطوهم الأموال تقرباً بها إلى صاحب القبر وحجوا إليها وسموا لسفر إلى عبادتها حجاً وغير ذلك مما يطول ذكره من الشرك الجلي الذي لا يغفره الله ومع ذلك ألحدوا في الأسماء والصفات ووافقوا الجهمية ونحوهم وخالفوا أهل السنة في أكثر السنن وصنف بن المطهر كتاباً منتصراً لهذا الطائفة وذكر كثيراً من شركهم وضلالاتهم لكن رد عليه شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله بكتاب أسماه منهاج السنة في مجلدين كبار

فصار علما للموحدين وحجة على جميع الملحدين من طوائف البدع فرحم الله ذلك الشيخ فلقد أراح أهل السنة برده على صاحب كل بدعة لهذه الطائفة وإن كانوا اثني عشر فرقة في زعمهم فالشرك والبدع هو الغالب عليهم وإن كان بعضهم يزعم أن فيهم فرقة إنما ابتدعوا في تفضيلهم على بن أبي طالب علي أبي بكر وعمر رضي الله عنهم ولا أظنهم سلموا من غيرها وأول من أحدث الشرك في الأمة هذه الطائفة فأنهم اعتقدوا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الإلهية فخد الأخاديد وملأها حطباً وأوقدها بالنار .فقذفهم فيها ومنهم الزيدية الذين هم بصنعاء واليمن ولهم بدع لكنهم يأخذون ببعض أقوال أهل السنة ويقرؤن في كتبهم وفيهم من يميل إلى قول أهل السنة وفيهم من يرجع إليه وأما أهل المشرق من الشيعة فلا علمت فيهم أحداً يقلد أهل السنة وهم أول من أحدث البناء على قبور أهل البيت كما تقدم لما صار لبني بويه ولاية في المشرق في خلافة بني العباس فلما استخلف المتوكل أمر بالمسجد الذي بنى على الحسين فهدم وذلك بوجود من الإمام أحمد وأهل الحديث فاستحسنوا ذلك منه لأن العلماء أفتوه بذلك هذا هو الذي توتر عن الرافضة وعلمه المسلمون من أحوالهم نسأل الله تعالى السلامة والعفو والعافية في الدنيا والاخرة ـ وأما قوله فإن كانوا كفاراً فما معنى قول النبي ﷺ من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.

فالجواب يظهر بمقدمة نافعة وذلك بأن يعلم أن هذه الكلمة العظيمة هي أصل دين الإسلام وعليها تنبني الشريعة والأحكام ويتميز الحلال من الحرام وهي دعوة الرسل وملة ابراهيم دين محمد ﷺ الذي دعى إليه أمته وجاهدهم عليه وذلك أنها بلفظها دلت على أمرين لا يحصل الإسلام ولا إيمان إلا بحصولها علماً وعملاً واعتقاداً نفى الشرائع في الإلهية وهي العبادة

والبراءة منه وإخلاص العبادة بجميع أفرادها لله تعالى كما قال تعالى عن خليله عليه السلام ﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ إلى قوله ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ أي لا إله إلا الله فهذا معناها مطابقة وقال تعالى ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ من إخوانه من المرسلين كما قاله ابن جرير الطبري في تفسيره ﴿إذ قالوا لقومهم إنا بُرآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ الآية فمن كفر بالشرك الذي نفته لا إله إلا الله ونفاه بلسانه وقلبه وتبرأ ممن فعله وأخلص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى قولاً واعتقاداً وعملاً فهذا الذي قال لا إله إلا الله فاستجاب للرسل فيما يدعوا إليه فإذا قال لا إله إلا الله فقد قالها صدقاً من قلبه كما في الحديث والقرآن من أوله إلى آخره ويقرر هذا المعنى كما في قصص الأنبياء ومما يبين معناها قوله تعالى ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ وهي لا إله إلا الله قال الإمام مالك الطاغوت هو ما عبد من دون الله وقال ابن كثير الطاغوت الشيطان وما زينه من عباد غير الله وهذا معنى ما نفته كلمة الإخلاص وهو الكفر بما يعبده المشركون من دون الله وقوله ويؤمن بالله هو التوحيد والإخلاص فمن لم يخلص العبادة لله ولم يكفر بما عبدو من دون الله لم يكن مستمسكا بلا إله إلا الله وإن قالها بلسانه فقد كذب وصار قوله حجة عليه كما قال تعالى ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ قال تعالى ﴿والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ وذلك أن قلوب المنافقين لم تصدق بما قالته السنتهم فحكم الله عليهم بالكذب بحسب ما في قلوبهم من الشك والريب إذا تقرر ذلك فنذكر كلام العلماء في ذلك قال أبو سليمان الخطابي في قوله أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ــ معلوم أن المراد

بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب لأنهم يقولون لا إله إلا الله ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف وقال القاضي عياض اختصاص عصمه المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وأن المراد بذلك مشركوا العرب وأهل الأوثان فأما غيرهم ممن يقربا لتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقول لا إله إلا الله إذا كان يقولها في كفره انتهى ملخصاً وقال النوور لا بد مع هذا من الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ كما جاء في رواية ويؤمن بي وبما جئت به قلت وهذا الذي ذكره في الحديث من القيود الثقال التي لا تنفع هذه الكلمة قائلها إلا بحصوله وقال شيخ الإسلام ابن تيمية لما سئل عن قتال التتار فقال كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة في هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم ما نعى الزكاة وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم قال فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء والأموال والخمر والميسر أو نكاح ذوات المحارم وعن التزام جهاد الكفار أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لاعذر لأحد في جحودها أو تركها التي يكفر الواحد بجحودها فإن الطائفة عند المحققين ليس بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام انتهى وهذا الذي ذكره هؤلاء العلماء إجماع من العلماء رحمهم الله لأن لا إله إلا الله لا بد من العمل بها وبما تقتضيه فإذا لم يحصل العمل فلا ريب أن القول لا ينفع بدون العمل لا سيما في كلمةالإخلاص التي هي أصل الإسلام والإيمان فلا ينفع شطر معناها إلا بالعمل بالشطر الآخر فالشطر الأول هو البراءة من عبادة ما يعبد من دون الله والبراءة ممن عبده وإخلاص لعباده بجميع

أفرادها لله كما قال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءة مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ فتبرأ من كل معبود سوى معبوده الذي فطره وهو الله وقال في آخر الآية ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ أي لا إله إلا الله وقال تعالى ﴿ قد كانت لكم إسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذا قالوا لقومهم إنا بُرآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ إلى آخر الآيات وهاتين الآيتين فيهما الكفاية والهدى إلى معنى لا إله إلا الله وأنه لا بد من الكفر بما يعبد من دون الله كما قال تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ والطاغوت الشيطان وما زينة من عباده غير الله فمن يكفر بالطاغوت فليس معه من لا إله إلا الله ما ينفعه إذا لم تمنعه من الشرك والكفر فان منعت من ذلك نفعت قائلها وإن لم تمنع من الكفر والشرك والكبر كله لم تنفع قائلها لتركه العمل بها أو ببعض ما تقتضيه إذا تقرر هذا فلهذه الكلمة شروط سبعة فلابد من العلم بكمال معناها المنافي للجهل وأما الجاهل فلا ينفعه قول لا يعرف معناه لأن العلم هو باب العمل والشرط الثاني اليقين بمعرفة المعنى بكماله المنافي للشك الوارد بورود الشبهات الثالث المحبة والإخلاص كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فالقلب بيت الله جل جلاله حباً وإخلاصاً مع الإحسان والمحبة مع الإخلاص والإحسان تنافي كل شرك وبدعة الرابع الصدق المنافي للكذب بخلاف حال المنافقين كما قال تعالى ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ﴾ كذبهم وأكد تكذيبهم بشهادته عليهم وبأن وللام لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقوله ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتداهم ودل من قال قولا لا يعتقد معناه أو بعضه فقد كذب لأن من الناس من يوجد الله بفعله لكن لم يكفر بالطاغوت فلم

ينف ما نفته لا إله إلا الله فقد أتى بشطر من هذه الكلمة وكفر بشطر منها وهو النفي فلم ينف ما نفت كما دل عليه قول الخليل وإخوانه من المرسلين وكما في قوله ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ فلابد من الإتيان بالأمرين بيقين وقبول وإنقياد فلا بد من القبول المنافي للرد والانقياد المنافي للترك لأن من الناس من لا يقبل ما دلت عليه أما كبراً وأما حسداً وغير ذلك من الأسباب التي منعت كثيراً من الناس من قبول التوحيد ممن دعى إليه ونصبوا له العداوة واستجلبوا الشبهات في دفع ما دعوا إليه من التوحيد ومنهم من لا يحصل من الانقياد بحقوق لا إله إلا الله ولوازمها لتوقف كمالها الواجب على الانقياد كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتاله ما نعى الزكاة وقتاله من قال من أهل الردة في رسول الله ﷺ لو كان نبياً ما مات وكذلك بنو حنيفة لما صدقوا مسيلمة كفروا وهم يقولون لا إله إلا الله فهذه ستة شروط السابع معادات من أشرك بالله والنفرة منه وعدم موادته كما قال لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادن من حاد الله إلى قوله أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وقال تعالى ومن يتولهم منكم فإنه منهم وقال تعالى ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم إن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون فاسجل عليهم بغضبه والخلود في النار ونفى الإيمان وغير ذلك مما دلت عليه الآيات وهي كثيرة في القرآن وهذه الشروط كلها مما تقتضيه لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذه الشروط بكمالها والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أكثر مما ذكرنا ولله الحمد والمنة لا نحصى ثناء عليه وأما قول السائل قوله ﷺ كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها هل عمت الرخصة للنساء أم الخطاب خاصة للرجال.

فالجواب: إن هذا من العام المخصوص بقوله لعن الله زوارات القبور

والمتخذين عليها المساجد والسرج وهذا الحديث رواه الإمام أحمد وابن ماجه والترمذي واحتج شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى على تحريمه بلعن النبي ﷺ زوارات القبور وصحح الحديث فعلى هذا يكون الأذن مخصوصاً بالرجال دون النساء وأما المعارض لا تقوم به حجة ولا يفيد النسخ وأما الأذان والقراءة عند القبر بعد دفن الميت.

فالجواب أن الأذان عند القبر بدعة منكرة ما أنزل الله بها من سلطان ولا فعله أحد ممن يقتدي به وقد نهى النبي ﷺ عما هو دون ذلك من الصلاة في المقبرة وإليها وإن كان المصلى يصلى لله لئلا يكون ذلك ذريعة إلى تعظيم القبور وعبادتها وأما القراءة حال الدفن فقال شيخ الإسلام نقل الجماعة عن أحمد كراهة القراءة على القبور وهو قول جمهور السلف وعليها قدماء أصحابه وكرخص في اعتبارها عيد كاعتياد القراءة عنده في وقت معلوم واتخاذ المصاحف عند القبر بدعة ولو للقراءة ولو نفع الميت لفعله السلف وأما دعاء الزائر بقوله يا ربنا بحرمة نبيك ووليك أقض حاجتي .

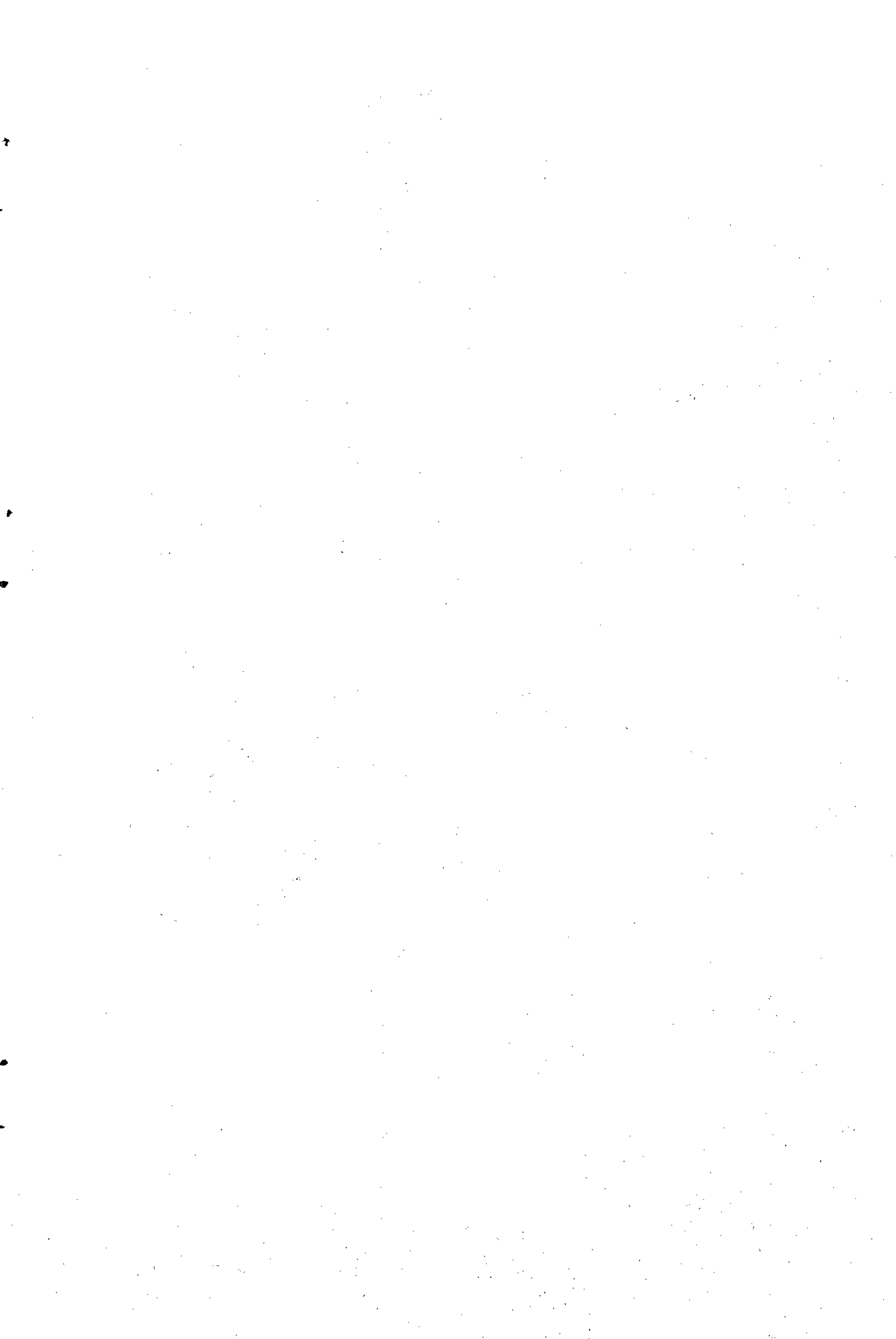
فالجواب : إن هذا من التوسل بذات الأموات وهو من البدع المنكرة والذرائع الموصلة إلى الشرك ولذلك لم يفعله أحد من الخلفاء الراشدين ولا من الصحابة فلو كان حقاً لسبقوا إليه فإنهم أعظم الناس سبقاً إلى كل خير فتركهم ذلك في حق النبي ﷺ مع قربهم من قبره يدل على أنه من البدع التي يجب تركها يحقق ذلك أنهم لما أجدبوا في خلافه عمر لم يأتوا إلى قبره يستسقون به كما كانوا يستسقون به في حياته بل خرج عمر بالسابقين الأولين وغيرهم من الصحابة واستسقوا بعمه العباس وقال اللهم إنا كنا إذا أجدبنا

توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وأنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون ففرقوا بين حال الحياة والوفاة خوفاً من الوقوع فيما نهوا عنه من الغلو في الأموات ولكون الاستسقاء بالشخص إنما هو بدعائه بخلاف حال الميت فإن الدعاء متعذر في حقه وهذا من غزارة علم الصحابة وقوة إيمانهم وتمسكهم بما شرع لهم وتركهم ما لم يشرع وهذا هو سبيل المؤمنين قال تعالى ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين الهدى﴾ الآية وأما قوله في الطعام المنذور هل هو حلال أم حرام وإن كان حرام فباي سبب حرم .

الجواب : إن ما قصد به الميت تقرباً إليه وتعظيماً من طعام أو غيره فهو حرام لأن ذلك شرك بالله تعالى كما قال تعالى عن المشركين ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والإنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ الآية فاذا خرج ذلك بالنذر فهو أعظم فيكون نذر معصية كما في الحديث الصحيح من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه ولأن النذر عبادة يجب الوفاء به إذا نذر طاعته لله كما قال تعالى ﴿ يوفون بالنذر ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ ومن نذر للميت فقد جعله شريكاً لله في عبادته ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ .

والحمدلله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

بقلم الفقير إلى رحمة الحنان ابراهيم بن عجلان
عفى عنه وعن والدين وجميع المسلمين
المنان في ٣/١٢٨٣هـ .



فهــــرس

القول الفصل النفيس في الرد على المفتري ابن جرجيس
والمورد العذب والزلال
وملخص منهاج السنة.

فهرس المورد العذب الزلال

فهرس ملخص منهاج السنة

الصفحة	الموضــوع
٢٧٩	التقديم.
٢٧٩	قال رحمه الله بعد كلام سبق وأما المثبتون للقدر فهم جمهور الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين.
٢٨٢	صفاة الفعل لا تلزم قدم جميع الحوادث ولا حدوث جميعها.
٢٨٤	جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون بأن كل ما سوى الله مخلوق كائناً بعد أن لم يكن.
٢٨٥	وأما قوله وما سواه محدث إلخ.
٢٨٨	اسم الله الصمد يتضمن صفاة الكمال.
٢٨٩	قول من قال لو استوى على العرش لقامت به الحوادث.
٢٩٠	غالب الشيعة الأولين كانوا مثبتين للقدر وإنما طهر إنكاره من متأخريهم كإنكار الصفاة.
٢٩١	وأما قوله وأنه تعالى يريد المعاصي من الكافر ولا يريد الطاعة فيه والرد عليه.
٢٩٣	تقسيم صاحب المنازل التوحيد على ثلاثة أوجه توحيد العامة وتوحيد الخاصة. وتوحيد قائم بالقديم.
٣٠٠	ثم ذكر قدس الله روحه في هذا الرد ما ذكره الله في كناية من اختلاف اليهود والنصارى.
٣٠٥	الخوارج والمعتزلة يقولون صاحب الكبائر الذي لم يتب منها مخلد في النار.
٣٠٥	وأما أهل السنة والحديث من الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين يؤمنون بالكتاب كله.
٣١٠	وأما قوله عن أهل السنة أنهم يقولون أن النبي ﷺ لم ينص على إمامة أحد فإنه مات من غير وصية.
٣١٣	جواب عن حديث كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.
٣١٥	وأما قوله في الفرقة الأمامية الاثني عشرية كفار أم مبتدعون والجواب عليه.
٣١٧	وأما قوله فإن كانوا كفاراً فما معنى قول النبي ﷺ من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.



بسم الله الرحمن الرحيم

دار الهداية للطبع والنشر والترجمة - الرياض ص.ب. : ٧٧٨١
تدعو القارىء الكريم إلى إقتناء كل جديد مفيد من منشوراتها
بأقلام علماء الدعوة السلفية وأعلامها وهي:

(١) **مصباح الظلام** .... للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
(٢) **القول الفصل النفيس** .... للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
(٣) **المورد العذب الزلال** .... للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
(٤) **هداية الطريق** .... للشيخ حمد بن علي بن عتيق
(٥) **إبطال التنديد** .... للشيخ حمد بن علي بن عتيق
(٦) **الورد المأثور** .... للشيخ حمد بن علي بن عتيق
(٧) **المجموع المفيد** .... للشيخ سعد بن حمد بن عتيق
(٨) **نيل المراد بنظم متن الزاد** .... للشيخ سعد بن حمد بن عتيق

٣٢١ وأما قول السائل قوله ﷺ كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها هل عمت الرخص للنساء أم الخطاب خاص بالرجال والجواب عليه.

٣٢٢ وأما دعاء الزائر بقوله يا ربنا بحرمة نبيك ووليك إقضي حاجتي والجواب على حكم هذا التوسل هذا والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل..